محمد كامل حته

فى أرض المعجزات

الكتاب الفائز
بجائزة الرحلات
فى مسابقة
الثقافة العامة

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

محمد كامل حته

في أرض المعجزات

الكتاب الفائز
بجائزة الرحلات
في مسابقة
الثقافة العامة

دار الكتاب المصري
٨٢ شارع القصر العيني

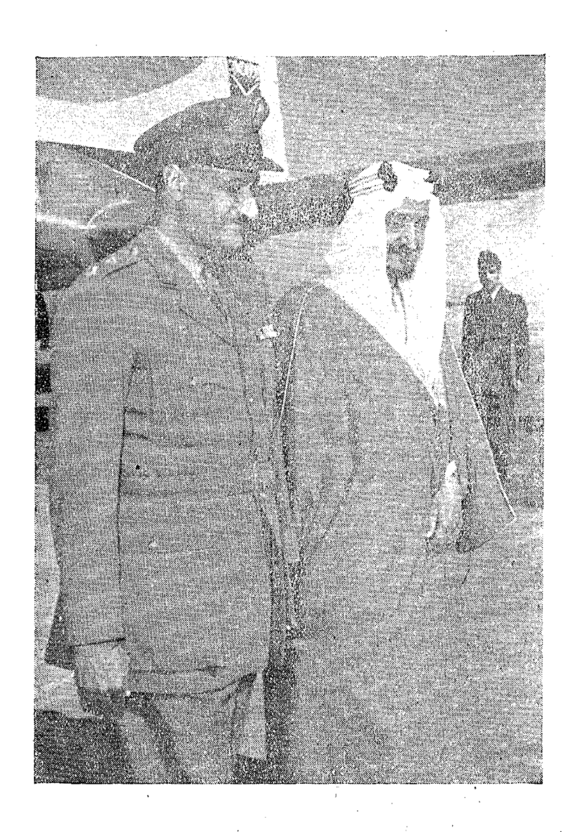
أقرته لجنة من الأساتذة

الدكتور محمد عوض محمد

الدكتور سليمان حزين

الدكتور محمد محمود الصياد





بسم الله الرحمن الرحيم

في مهد العرب

هذه الجزيرة العربية ، التى انبثقت منها أعظم رسالة عرفتها البشرية ، وأخلد أمانة تقوم عليها خلافة الإنسان فى الأرض ، وتعتصم بها الإنسانية كلما دهمها طوفان الفتن وزلزلت كيانها أحداث الحياة . . .

هذه الجزيرة ، مهد العرب ، ومنجم الفضائل البشرية ، الذى أمد العالم بأكرم عناصر الحرية ، والكرامة ، والحق ، والعدل ، والإصلاح . . .

هذه الجزيرة كانت — وما تزال — تدخر فى صحاريها ونجودها ، وفى سهولها ووديانها . . هذه العناصر التى تجود بها طبيعتها الحرة القوية ، التى تغالب بها الحياة ، وتتجدد بها على الزمن ، وتتوثب بين الفينة والفينة لتؤدى رسالتها الخالدة ، وتستأنف دورها التاريخى المتجدد على مر العصور . . .

ولقد جعل الله أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة ، تهوى إليه القلوب وتشخص الأبصار ، وتتمثل فيه وحدة العبادة ، وتتجمع حوله وحدة المشاعر والغايات ، وتتفاعل على أرضه الطيبة حياة الملايين

بالأخذ والعطاء ، تأخذ من هذه الأرض الملهمة ما تفيض به من معانى القوة والتحرر ومغالبة الحياة ، وتعطى بعض ما فى أعناقها من دين هيهات أن تبلغ منه أدنى مراتب الوفاء . .

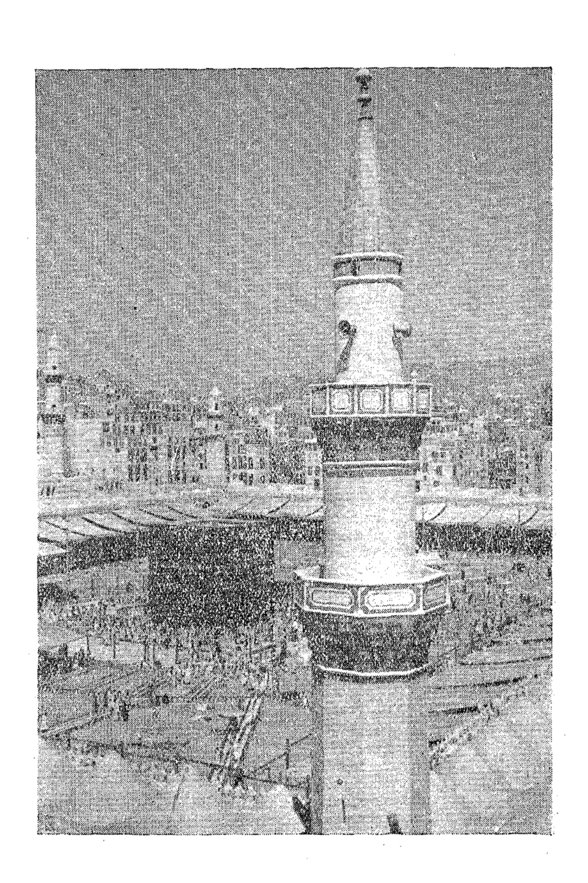
جعل الله هذا البلد قبلة ومثابة للناس ، ليظل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على صلة موصولة بمنابع القوة والحرية والهداية والنور التى تفيض بها هذه الأرض الطيبة ، ولتظل أرض القبلة بما تعطى وما تأخذ ، موطن المعجزات التى تتجدد على مر العصور والأزمان ...

والآن . . . ماذا تعرف عن هذه البلاد التى تربطها بالعالم العربى والإسلامى وشائج الأبوة والعقيدة الممتدة إلى أعماق التاريخ ، وروابط الجهاد المشترك فى سبيل دعم كيان العروبة والإسلام ، وتأمين مستقبل العرب والمسلمين ، واستئناف الرسالة الخالدة لخير الإنسانية جمعاء؟

إن هذه المعرفة التى تحقق هذه الأهداف ، فرضها الدين فى صورة الحج إلى تلك الأرض الطيبة .

ولكن فريضة الحج بما تستهدفه من « منافع » إنما يقتصر أداؤها على القادرين ، وهم قلة بين مئات الملايين من أبناء العالم العربى والإسلامى . . .

وحتى هذه القلة القليلة التى يتاح لها أداء فريضة الحج ، لا تتهيأ لأكثرها من الدوافع القومية والفهم البصير لحكمة هذه الفريضة ، ما يمكنها من الانتفاع بما وراء هذه الرحلة من ثمرات المعرفة والتجاوب الاجتماعى ، وما ينفعل به الوجدان القومى من مشاعر وأحاسيس . . .



ثم إن طبيعة موسم الحج وما تفرضه من قيود فى الحل والترحال ، تضيق معها فرص الدراسة والتجربة والاتصال المباشر بالحياة فى ميادينها المختلفة .

ومن هنا كانت رحلة الحج لا تغنى فى هذه الناحية كل الغناء ، وكان لا بد من رحلات أخرى فى جو يكون أكثر انفساحاً وأخف قيوداً ، تقوم بها الطوائف والأفراد فى فترات غير محدودة ، تتصل فيها بالحياة فى تلك البلاد عن كثب ، ثم تعود وقد توافر لها من عناصر المعرفة والتجربة محصول وفير .

وقد أتيح لى أن أمر بالتجارب التى تؤكد هذه الحقيقة ، فقد كانت زيارتى الأولى للمملكة العربية السعودية فى موسم الحج عام ١٩٥٢ ، وفى هذه الزيارة — رغم حرصى على أن أنتفع بها إلى أبعد مدى — لم أستطع أن أحقق من ذلك بعض ما أريد ، فقد استغرقتنى مشاعر العبادة وما يبهر القلب والروح فى جو المشاهد المقدسة لأول العهد بتلك المشاهد ؛ ولم يتح لى إلا حظ يسير خاطف من الاتصال بجوانب الحياة المختلفة ، والتعرف على المعالم والأعلام . . .

ثم كانت رحلتى الثانية عام ١٩٥٤ حيث كنت معاراً من الحكومة المصرية للعمل بمؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة ، وفى هذه الرحلة قضيت خمسة أشهر كاملة ، وأتيح لى بحكم عملى الصحفى هناك أن أعيش فى صميم الحياة العامة ، وأن أنتقل فى مختلف أنحاء البلاد ، وأقف على

معالمها القديمة والحديثة ، وأتعرف إلى شخصياتها البارزة والمغمورة ، وأستوعب مظاهر التطور فى حياة الدولة والمجتمع . . .

ثم كانت رحلتى الثالثة عام ١٩٥٦ ، حين أوفدتنى وزارة التربية والتعليم للإشراف على الرحلة التى نظمتها إدارة الشئون العامة بالاشتراك مع نقابة المهن التعليمية . وفى هذه الرحلة القصيرة التى استغرقت نحو سبعة أسابيع ، كان محصولى من المعرفة والتجاوب كبيراً فى مادته والإحساس به ؛ لأن هذا المحصول كان موصولا بالروافد الأولى التى أمدتنى فى الرحلتين السابقتين بكثير من المعارف والمشاعر . . .

وأنا إذ أقدم فى هذه الرسالة صوراً من التجارب التى عشتها فى المملكة العربية السعودية ، وألوانا من الحياة التى تمثلتها فى رحلاتى الثلاث إلى تلك البلاد ، أستطيع أن أزعم أن هذه الرسالة تعطى قراءها حصيلة من المعرفة والتجاوب ، يجد فيها من لا تتاح لهم زيارة هذه البلاد كل الغناء أو بعض الغناء ، كما يجد فيها من تتاح لهم تلك الزيارة ، دليلا يكشف الطريق ، ويحدد المعالم ، ويرتاد بهم المظاهر والأعماق . . .

القاهرة
٢٧ ربيع الأول ١٣٧٧
٢١ أكتوبر ١٩٥٧

محمد كامل حته

حدود ومعالم

والمملكة العربية السعودية تشمل أكبر مساحة من الجزيرة العربية ؛ إذ تمتد من ساحل البحر الأحمر غربا ، إلى الخليج العربى فى الشرق ، وتمتد من مشارف العراق والأردن فى الشمال إلى حضرموت وعمان واليمن فى الجنوب .

وتقدر مساحتها بنحو ٨٩٥ ألف ميل مربع . ويبلغ تعداد سكانها نحو ستة ملايين نسمة ، وذلك على متوسط التقديرات المختلفة إذ أن الإحصاء الدقيق لم تتوافر وسائله حتى الآن .

وتختلف طبيعة المملكة العربية السعودية فى تكوينها الجيولوجى والطوبوغرافى ، وفى مناخها وفى حياتها الاجتماعية ، اختلافا كبيرا بين منطقة وأخرى ، وهذه المناطق هى :

١ — الحجاز

وهى منطقة تقع بين سلسلة من الجبال يتراوح ارتفاعها من أربعة آلاف قدم إلى عشرة آلاف ، وبين ساحل البحر الأحمر . وتتراوح هذه المسافة بين عشرة أميال وأربعين ميلا . وتمتد من الجنوب إلى الشمال نحو ٧٠٠ ميل .



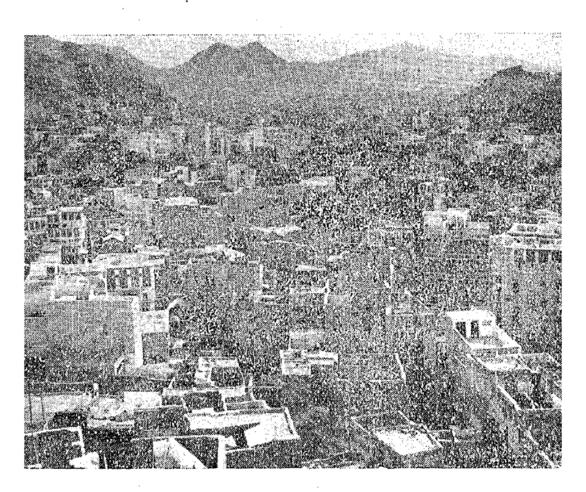
ومناخ الحجاز بالقرب من ساحل البحر رطب حار فى الصيف ، إذا تبلغ درجة الرطوبة فيه ٨٥ ٪ ودرجة الحرارة ٩٩ فهرنهيت ، ثم تنخفض هذه النسبة تدريجيا بنسبة البعد عن الساحل حتى تتحول فى الجهات الجبلية إلى جو جاف منعش .

وتكثر بالحجاز الأودية التى تنساب فيها مياه السيول ، والعيون التى تحيا عليها بعض الواحات ، والتى تمد مدن الحجاز بالماء ، مثل عين زبيدة وعين حنين وعيون وادى فاطمة .

وأهم مدن الحجاز : مكة المكرمة ، وجدة ، والطائف ، والمدينة المنورة . وتكثر بين سكان هذه المدن سلالات العناصر المختلفة الوافدة من مختلف البلاد الإسلامية . ولهذا كانت الحياة الاجتماعية فيها مزيجا

من ألوان الحياة فى تلك البلاد ، يظهر ذلك فى طرز العمارة وأساليب المعيشة والأزياء واللهجات والتقاليد ، على أن البيئة المحلية صهرت ذلك كله فى صورة ذات طابع عام ، وإن لم تفقد ميزاتها الخاصة .

أما فى البادية ، فما زالت القبائل العربية تحتفظ بعنصرها الأصيل وتقاليدها الموروثة وأساليبها الخاصة فى الحياة .



. . . مكة ، فى بطن الوادى تحيط بها الجبال

٢ — نجد

وهى المنطقة التى تلى سلسلة الجبال من جهة الشرق ، وتتكون من مرتفعات « رسوبية » وهى نوع من الصخور التى تصبح تحت تأثير حالات معينة مستقرا صالحا لرواسب الزيت والفحم الحجرى ، كما تشمل أيضاً كتلة من الجبال النارية ومجموعة من التلال العالية . وتمتد مساحتها فيما وراء جبال الحجاز إلى نحو ٢٠٠ ميل ، وفيما بين الشمال والجنوب إلى ما يقرب من ٩٠٠ ميل ، ويتراوح ارتفاع هذه المنطقة ما بين أربعة آلاف قدم وستة آلاف .

وفى نجد كثير من الأودية والأنهار الجوفية والعيون . وهى مشهورة بمراعيها الخصبة ، وواحاتها الغنية بالنخيل ومزارعها الواسعة ، ومرابعها الجميلة الساحرة .

وقد خلد الأدب العربى نجدا بما ترنم به شعراؤها أمثال أمرىء القيس وطرفة والحارث بن حلزة وزهير وعنترة ومجنون ليلى والفرزدق وجرير . . . وتتألف نجد من عشر مقاطعات هى :

● العارض — وفيها مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وقد مستها يد التعمير فتحولت فى عهد الملك سعود إلى حاضرة كبيرة ، ولن تمضى بضع سنوات تتم فيها المشروعات العمرانية الجبارة التى تغمرها الآن — حتى تصبح من أكبر عواصم الشرق العربى .

ومن بلاد العارض الهامة بلدة « الدرعية » التى انبثقت منها دعوة

التوحيد التى نادى بها الإمام محمد بن عبدالوهاب ، واحتضنها الإمام سعود الكبير جد الأسرة السعودية .

● الخرج — وتلى العارض فى الجنوب الغربى ، وهى أغنى مقاطعات نجد وأوفرها خصوبة . وتعتبر الآن منطقة زراعية نموذجية ، تتوافر فيها وسائل الرى الحديثة ، وتنتج أجود المحاصيل ومختلف أنواع الفاكهة والخضروات ، وتقوم بها مزارع خاصة لتربية الماشية والدواجن على أحدث الأساليب العلمية . وقد أقيم بها إلى جانب ذلك مصنع للذخيرة والسلاح ، وأهم بلدانها : الدلم ، ومنفوحة ، ونعجان ، والسلمية ، واليمامة ، والمناصف ، والبدع ، وفرزان .

● القصيم — وهى أكبر مقاطعات نجد ، وفى موقع ممتاز إذ تمر بها القوافل القادمة من مكة المكرمة ، وترتبط عن طريقها كثير من بلاد نجد ، وتنتج محصولا وافرا من التمر ، وتضم هذه المقاطعة خمسين قرية أهمها : بريدة ، وعنيزة ، والرس ، والخبرا ، والعيون ، وقصيبة .

● جبال شمر — وهى مشهورة بخيولها الأصيلة ، التى تصدر منها عددا كبيرا ، كما تصدر كثيرا من الجمال والغنم التى تنتج أجود أنواع الوبر والصوف ، وترتفع هذه المقاطعة عن سطح البحر بنحو ٢٢٠٠ قدم ، وتهطل عليها الأمطار بغزارة ، وبها كثير من المياه الجوفية .

● الجوف — وتقع فى حدود نجد الشمالية ، وهى حلقة الاتصال بين سوريا وقلب الجزيرة ، وتكثر بها الواحات وأهم إنتاجها التمر .

● سدير — وبها وديان خصبة ومزارع تستخدم فيها الآلات

الحديثة التى أمدتهم بها الحكومة للنهوض بمستوى الزراعة والإنتاج ، وأهم بلادها : المجمعة ، والزلفى ، والغاط ، وجلاجل .

وهناك أيضاً مقاطعات : لحريق ، والأفلاق . ووادى الدواسر ، والوشم . وهى مشهورة بمياهها ، ونخيلها ، وزراعاتها المختلفة .

وتتمثل فى حواضر نجد وبواديها الحياة العربية العريقة ، بما تمتاز به من تقاليد الفروسية والفتوة والنجدة والمروءة . وقد ظلت محتفظة بهذه التقاليد نظرا لموقعها المنيع فى قلب الجزيرة ، وامتناعها على المؤثرات الخارجية التى تفسد خصائص الشعوب حين تتعرض للغزوات الأجنبية فى الحرب والسلم على السواء . . .

٣ — الإحساء

وتقع هذه المنطقة فيما يلى نجد شرقا حتى الخليج الفارسى ، وتتكون تربتها من الصخور الرسوبية ، التى تفجر منها الزيت عام ١٩٣٤ وكان ذلك بداية عهد جديد للمملكة العربية السعودية . . .

ولهذه المنطقة أهمية أخرى حتى قبل اكتشاف حقول الزيت فيها ، إذ تشمل واحات شاسعة فى «الهفوف» تثمر فيها أكثر من مليونى نخلة أطيب أنواع التمر ، وتجرى فيها سبعة عيون هائلة يتدفق منها ٢٢٥٠٠ جالون من الماء فى الدقيقة الواحدة .

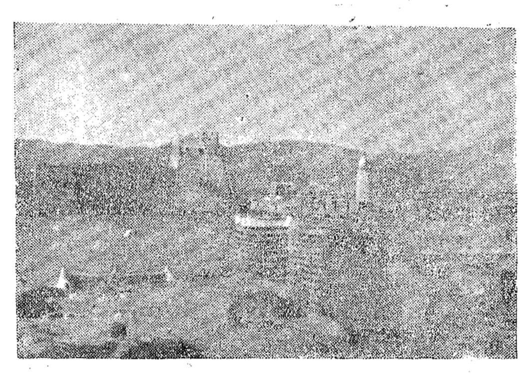
٤ — عسير

وتقع منطقة عسير جنوبى الحجاز إلى حدود اليمن ، فى مساحة طولها ٢٠٠ ميل وعرضها ٤٥ ميلا . ولهذه المنطقة من اسمها نصيب ، لوعورة مسالكها الجبلية ، ولكنها مع ذلك عامرة بالسهول التى تغمرها السيول ، ولهذا كانت غنية بالمزارع والبساتين ، وبالمناظر الطبيعية الساحرة ، التى جعلتها أجمل مناطق المملكة العربية السعودية .

وأهم بلاد عسير : أبها ، وبيشة ، وتربة ، ومحايل ، وخميس مشيط ، وأبوعريش ، وصبيا ، وجيزان .

وأهالى عسير ينتسبون إلى عدة قبائل عربية ، وتجمع حياتهم بين ألوان الحضارة والبداوة ، على أن لهم تقاليد خاصة ينفردون بها دون سائر البدو والحضر فى هذه البلاد .

ومن أبرز مايدهش له الزائر فى عسير أنواع الزى المستعملة هناك ، ولعل أشدها غرابة أن النساء يلبسن القبعات !!



... أبها : حاضرة إقليم عسير

قيام دولة

١

اقترن تاريخ الدولة السعودية بدعوة المجدد العظيم محمد بن عبد الوهاب ، التى انتشرت فى بلاد العرب وفى الهند ، والتى تعتبر إحدى انتفاضات ثلاث كان لها فى تاريخ الإسلام الحديث آثار بعيدة المدى : الوهابية فى جزيرة العرب وشمالى الهند ، والسنوسية فى شمالى أفريقية ، والمهدية فى السودان . . .

وهى انتفاضات دينية كانت منبعثة من صميم الإحساس بما وصلت إليه حال المسلمين من الجهل بحقيقة الإسلام ، وتدهور العقيدة وتحلل مقوماتها فى النفوس ؛ مما تخلف بهم عن مكانهم الطبيعى فى الصدارة ، وجعلهم خولا للأجنبى ، يطأ بلادهم ، ويستذل أعناقهم ، ويبتز خيراتهم ، ويسلبهم ما بقى من مقومات حياتهم وميراث تاريخهم . . .

ويرى لوثروب ستودارد فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » أن الدعوة الوهابية تعتبر أساس اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث ، وإليها يعزو حركات التحرير التى انبثقت فى مختلف الأقطار الإسلامية

للتحرر من أغلال الجهل، والثورة على الاستعمار : فى الهند ، وأفغانستان ، وجزيرة العرب ، وشمالى أفريقية ، ومصر والسودان . . .

أما صاحب الدعوة الوهابية - محمد بن عبد الوهاب - فقد ولد فى مطلع القرن الثامن عشر فى « العيينة » شمالى الرياض . وقضى صدر شبابه مرتحلا إلى الأحساء والحجاز والبصرة وبلاد فارس . وتتلمذ على ما كتبه ابن تيمية وأتباعه وخاصة ابن القيم وابن كثير ، وهم من الأئمة السلفيين الذين كان لهم فى تاريخ الفقه الإسلامى جهود ضخمة ، ردت إليه اعتباره وجددت شريعته السمحة البيضاء .

إذن فقد اجتمع للرجل فى اتصاله بحياة المسلمين فى كثير من الأقطار ، وفى فقهه لأسرار الشريعة ، ما ملأ قلبه غيرة على حال المسلمين ، وحسرة على ما وصلوا إليه من جهالة وضعف وانحلال ، وحفزه ذلك إلى الجهاد فى سبيل تجديد إيمان هذه الأمة ، وتسديد عزائمها إلى مواطن العزة والقوة والاتحاد . . .

وكانت الجزيرة العربية لذلك العهد ممزقة الأوصال ، متعددة الولايات والولاة ، لا تهدأ بينهم نار الحرب ، ولا تخبو الإحن والتارات . وكذلك كان الشأن بين البدو والحضر ، وبين القبائل بعضها وبعض ، بل بين أبناء البيت الواحد ممن يتنافسون على المناصب والمغانم ، حتى أن أحد أشراف مكة لم يتورع عن قتل أخيه ، ثم طبخ لحمه وقدمه إلى بقية إخوته فى وليمة ساهرة . . .

وكانت الخرافات والعقائد الضالة قد استحوذت على العقول ، حتى

لأوشكوا أن يرتكسوا فى جاهلية عمياء ، هى شر من الجاهلية الأولى ؛ لأن أهلها يزعمون مع ذلك أنهم مسلمون . . .

وبدأت دعوة محمد بن عبد الوهاب بالعمل على إصلاح العقيدة الدينية ؛ وهل إلى ذلك من سبيل غير الرجوع إلى منابعها الصافية الأولى : الكتاب والسنة .

٢

ومن خصائص العرب فى جميع العصور أن طبيعتهم السمحة القوية ، وبيئتهم البادية المتصلة بالكون ، المتفاعلة فيه ، هى أقرب الطبائع البشرية إلى روح الإسلام وطبيعته . وليست كذلك طبيعة الأمم التى أغرقتها الحضارة واستغرقتها العقائد المادية ، وأنهكها الترف العقلى ، وخدعتها تهاويل الفنون ...

ولذلك استطاع الإسلام أن يحقق بأولئك العرب بعد أن زالت عن طبيعتهم السمحة القوية أدران الجاهلية ، وتطهر جوهرها النقى مما شابه من عقائد وأفكار — استطاع أن يحقق بهم أروع وأسرع معجزة فى فتح الأمصار ونشر كلمة الله . . .

فلما اتصلت حياتهم بتلك الأمصار ، وتذوقوا ما فيها من ألوان الحياة الحضارية ، وبهرتهم دنياهم الجديدة بما فيها من زينة وزخرف ومتاع ، تأثروا بذلك كله فضعفت قواهم المبدعة الغلابة ، ولم يستطيعوا أن يتابعوا جهادهم بعد الفتح فى تطوير عقائد تلك الأمصار ، وابتعاث صور جديدة للحياة فى شتى مناحيها العقلية والاجتماعية ، يتصل إلهامها

بروح الإسلام وطبيعته . فكان أن ذرّت العقائد الموروثة التى حاربها الإسلام بقرونها من جديد ، فى صور موشاة بألوان تخيل للرائى أنها صور إسلامية ، وإن كانت فى مادتها ووحيها بعيدة كل البعد أو بعضه عن مادة الإسلام ووحيه . . .

ذلك لأن هذا الميراث الضخم الذى خلفته العصور الإسلامية منذ انحسر عنها مد العروبة المسلمة أو غاض ، ومنذ انطلقت تلك العصور تبنى للاسلام حضارته العمرانية والعقلية فى مصر وفارس والهند وتركيا وغيرها من الأمصار ، فتنشىء العمارة ، وتنتج للعلم والفلسفة ، وتصوغ فنون الحياة . . .

إن هذا التراث الضخم لا يمكن القول بأنه تراث إسلامى صرف بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكنه صور متعددة لحيوات مختلفة تمتد جذورها إلى أعماق الأمم التى صنعت هذا التراث فى مصر ، وفارس ، والهند ، وتركيا وغيرها من الأمصار .

ولم يكن هذا التعدد فى ألوان التراث الإسلامى قاصراً على مظاهره وبالقدر الذى تختلف به طبيعة كل أمة ومؤثراتها الخاصة ، ولكنه أعمق من ذلك جذوراً وأبعد أسّا ، لأن هذا الاختلاف فى المظاهر لا يقاس إلى ما بين العقائد والمشاعر التى تكمن وراءها من تباعد واختلاف ، وبالقدر الذى يباعد بين هذه العقائد والأفكار والمشاعر الموروثة ، وبين الاسلام فى حقيقته الأولى ، وتمثله للكون والحياة ، باعتباره دينا يقوم على « التوحيد » فى كل شيء : التوحيد الذى يسمو

بالانسان عن كل عبودية إلا لله ، ويجعل المسلم قوّاما على الحياة والكون ، يسيطر عليهما ويسخرهما لتحقيق الرسالة التي جاء بها الإسلام لخير الفرد والمجتمع ، لا أن يكون عبداً للكون والحياة ، تستخدم مواهبه في الفنون حتى يكاد يعبد ما خلق ، وتستغرق عقله بالفلسفة حتى تصرفه عن العمل . . .

ولا أظن أنني أبعدت كثيرا وأنا أمهد للحديث عن بواعث الدعوة الوهابية وأهدافها ، فان هذه هي نقطة الابتداء لكل دعوة إسلامية تقوم على « تجديد » الإسلام في حياة المسلمين ، بتنقية عناصره الأولى وإحياء معالمه الأصيلة ، والاحتكام إلى معاييره في الحياة .

وما أحوجنا — ونحن الآن في مطلع يقظة إسلامية قوية — أن نتدبر هذه الحقائق ، لتصفية التراث الاسلامي مما شابه من مؤثرات العوامل الوراثية الدخيلة ، وحمايته من مؤثرات المذاهب الفنية والاجتماعية الأجنبية ، التي تستمد أصولها من مبادئ تغاير مبادئ الاسلام ونظرته إلى الكون والحياة ، حتى نكفل لليقظة الاسلامية الحاضرة عناصر القوة والذاتية ، باعتبار أن الاسلام نظام اجتماعي كامل له خصائصه وأهدافه ورسالته في الحياة . . .

٣

ولنعد إلى الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب ...

أراد هذا الامام أن ينهض بدعوته تلك . . وهل لها إلا تلك « الخامات » العربية التي تنطوي على عناصر الحرية ، والاتصال المباشر

بالكون ، والاستواء على أقطار الحياة ، يبرئها مما أصابها من غشاوة الجهالة ، ويردها إلى فطرتها السمحة ، ويغذيها بوحى الكتاب والسنة ، ثم ينطلق بها خفيفة مؤمنة صابرة ، تحمل أعباء الدعوة ، فتنشر الهدى المحمدى ، وتقر الأمن المضطرب ، وتحمى البيت الذى يتخطف الناس فيه ، ثم تمضى برسالتها إلى أبعد الآفاق . .

ولقد نجح هذا الامام فى المرحلة الأولى للدعوة ، مرحلة الانتصار على أهواء الجاهلية ، وأدواء الجهالة ، واستنفار « الاخوان » للدعوة إلى شريعة الله ، نجاحا كاد أن يتجاوز حده فيقع بهم فى السرف ، أو كأن قد كان ...

وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب تسير جنبا إلى جنب مع مراحل الدولة السعودية ، فلما دانت الجزيرة العربية لآل سعود فى مطلع القرن التاسع عشر ، كانت هذه الدعوة تزلزل قلوب كثير من السلاطين والولاة فى البلاد الإسلامية ، ويرون فيها خطراً جائحا يخشى أن تمتد آثاره فتقضى على الأوضاع الظالمة والعقائد الفاسدة التى يقوم عليها كثير من العروش والتيجان . . .

أحس بهذا الخطر سلطان تركيا ، وكان يعيش فى تلك الأسطورة التى تقول بأنه ظل الله فى أرضه ، وأحس به محمد على فى مصر . . . وكان إحساس سلطان تركيا بخطر الدعوة الوهابية مزدوجا ، لأنه كان يحس فى الوقت نفسه بخطر محمد على فى مصر ، فأراد أن يضرب الضربة يصيب بها الاثنين معاً ، فطلب إلى محمد على أن يغزو الحجاز ، وأن يقضى على أولئك المتمردين العصاة . . .

ورآها محمد على فرصة يضرب بها ضربته ، باسم خليفة المسلمين : ظل الله فى أرضه . . .

ثم كانت الغزوات والحروب التى ذهب وقودها مئات الألوف من أبناء مصر وعشرات الألوف من أبناء الجزيرة العربية ، وكتب التاريخ الزائف قصص البطولة والنصر لجيوش الخليفة وولاته فى مصر، على الدعوة الثائرة المتمردة فى جزيرة العرب .

٤

وقد كانت الحركة التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب خطوة أولى فى سبيل تحقيق دعوته ، ولكن الدعوة وقفت عند هذه الخطوة ولم تمض إلى ما وراءها من خطوات تبلغ بها الغاية . ويبدو أن للحروب التى حدثت أثراً كبيراً فى توقف هذه الدعوة عند خطوتها تلك ، وهى المناداة بالشريعة الاسلامية لتكون أساس الحكم ، والرجوع إلى الكتاب والسنة فى كل أمر ، واستنفار أهل البادية ذوى الحمية والبأس للاضطلاع بأعباء هذه الدعوة . . .

أما ما وراء ذلك من خطوات تتصل بدعم هذه الدعوة بالعلم ، وتخريج أفواج الدعاة الذين لا يقتصرون على سورة الحماس الدينى ، دون البصر بشريعة الإسلام فى الحياة ، وتعبئة قوى الأمة جميعاً لهذه الدعوة ، والعمل على تحقيق الجامعة الإسلامية — فذلك ما قصرت عنه الأسباب ، وما انتهى بالدعوة فى الجزيرة العربية إلى أضيق الحدود ،

وإن ظلت آثارها تتفاعل وتقوى وتتطور فى كثير من البلاد العربية والإسلامية . . .

ولقد كان من أثر ذلك أن الملك عبد العزيز آل سعود ذاته ، حين أراد أن يخرج قليلا من نطاق تلك الحياة الجامدة الراكدة ، وأن يدفع بلاده خطوات يسيرة فى سبيل الحياة ، انقلب عليه أشد أعضاده وأنصاره من «الإخوان» أعداء الداء ، ووقعت بينه وبينهم فتنة دامية ، انتهت بغلبته عليهم ، ووقوع زعيمهم «فيصل الدويش» أسيراً فى يده ، وعندئذ تنفس الملك عبد العزيز الصعداء وقال : من اليوم سنحيا حياة جديدة . . .

وما ظنك فى أن تقوم بينه وبين علماء نجد مشكلة ظل يجاهدهم فيها عشر سنوات ، بسبب التليفون والتلغراف ؟

وماظنك فى أن يعقدوا مؤتمرا يحضره زعماؤهم ، ينكرون عليه فيه أن بعث بابنه سعود إلى مصر بلد الشرك !

وان فى هذين المثلين ، وهما قل من كثر ، لشاهدَين على مبلغ ماأصاب الدعوة الوهابية من جمود ، وقعودها عن الانطلاق فى مراحلها المتوالية إلى غاياتها البعيدة ، باعتبارها انتفاضة دينية تهدف إلى تحرير العقول من أثر الجهالة والأوهام ، وتحرير المسلمين من ربقة الذل والاستعمار .

٥

وتعاقبت على آل سعود ألوان من الرخاء والشدة والهزيمة والانتصار ، ثم صار الأمر فى نجد لابن الرشيد ، بعد أن دالت دولة آل سعود لتنازعهم فيما بينهم ، وما كان يقع بين الأخوة منهم من تنافس على الامارة تسيل فيه الدماء .

وكان الصبى « عبد العزيز بن عبد الرحمن » الذى لم يشهد من تاريخ أسرته التى امتد سلطانها على الجزيرة العربية ، إلا اطلالا من الذكريات ينطوى عليها قلبه المفئود ، يربض إلى جوار أبيه فى منفاه بأرض الكويت

وظلت ذكريات المجد الذاهب تلهب عاطفة الصبى وهو فى منفاه ، حتى إذا استوى عوده فصار شابا جلدا ، كانت فكرة الثأر قد استولت على جميع مشاعره ، وأقسم ليستردن ملك آبائه وأجداده ، وليعودن بأبيه وأهله إلى عاصمة ملكهم تلك مظفراً منصوراً .

وأطلع أباه الشيخ على ماانتوى من أمره ، فحذره العاقبة وأشفق عليه من المصير ...

ولكنه أصر على رأيه ، وألحف على أبيه فى أن يأذن له فأذن . . .

وانطلق تحت جنح الظلام فى أربعين رجلا من أهله وأصحابه ، يضرب بهم فى مهامه الصحراء ، ويجتاز بهم دروباً موحشة غير مطروقة حتى لا يلقاه أحد من الرعاة أو السابلة فينكشف أمره وتحبط خطته . وما زال يدلج بالليل ويستخفى بالنهار ، حتى بلغ مشارف « الرياض » فترك من جماعته ثلاثين رجلا تحت إمرة أخيه محمد بن عبد الرحمن ، ثم تقدم بالباقين فتسلق سور البلد ، وخف إلى دار مجاورة لقصر الأمير عجلان — عامل ابن الرشيد — فطرق الباب . . .

وأجابت امرأة من داخل الدار : من الطارق ؟

قال : رجل من خدم الأمير عجلان يريد زوجك لغرض . .

قالت : اذهب لابارك الله فيك؛ ماجئت تبغى إلا النساء ، وهل يطرق باب الناس فى الليل إلا فاسد . .

قال : لا والله ياخالة ، ماجئت لهذا ، ولكنى أخشى على زوجك من القتل غداً إذا لم يلب نداء الأمير حالا . .

وكان زوجها قد استيقظ ففتح الباب ليرى جلية الأمر ، وكان الفتى عبد العزيز يعرف الرجل وأهل بيته ، فهن من كن فى خدمة بيوت آل سعود . فما خرج الرجل حتى قبض عليه عبد العزيز وهدده بالقتل إن هو تكلم . ثم دخل البيت فلما رأته النسوة صحن : عمنا عبد العزيز . .

قال : اسكتن ولا بأس عليكن . ثم أغلق عليهن بابا . .

وتسلق الجدار ثم هبط إلى القصر . وكان قد بعث إلى بقية رجاله فلحقوا به ، ودخل إحدى الغرف فإذا بها زوجة الأمير فصاحت به :

— أأنت عبد العزيز ؟ !

قال : نعم أنا هو . .

قالت : من تبغى ، وما مأربك هنا ؟

قال : أريد عجلان لاسواه . .

قالت : يابنى لاتغرر بنفسك ، انج بنفسك فى هذا الليل وإلا قتلوك !

قال : ماجئنا لنسمع منك نصيحة ، ولكن لنعرف متى يخرج عجلان من القصر الداخلى . .



ولم تستطع المرأة ، وقد رأت الموت يطل من عينيه ويهتز فى يمينه ، إلا أن تقول :

— بعد شروق الشمس بساعة . .

قال : هذا كل ما نريد . ولكن إذا لزمتن السكوت والسكون فلا بأس عليكن . وإلا فالموت لا محالة . .

ثم أغلق على المرأة وصواحبها بابا ... وظل ينتظر شروق الشمس . . .

وانفتح باب القصر الداخلى مع الصباح ، وعبد العزيز ورجاله قد كمنوا على مقربة منه يتربصون . .

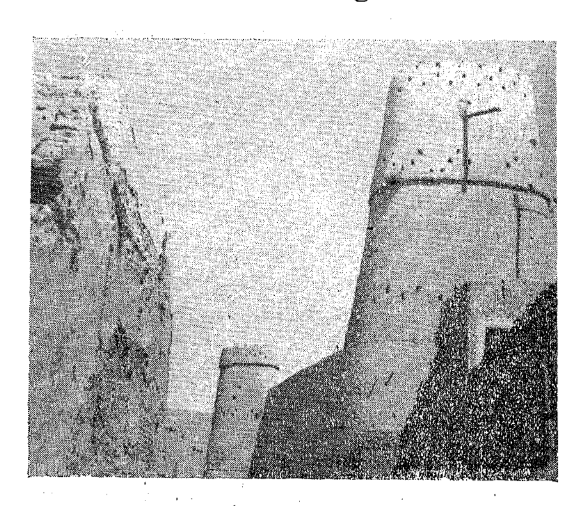
ثم أهلّ الأمير فباغتوه ، وهمّ يحاول الفرار فعاجله عبد العزيز بطلقة لم تدرك منه مقتلا ، فتبعه يعدو وراءه حتى أدركه ، ونشب بين الرجلين صراع عنيف اشترك فيه رجال الأمير بإطلاق النار من فوق الأسوار فقتلوا اثنين وجرحوا أربعة ، وافلت الأمير فانطلق وراءه عبد الله بن جلوى — ابن عم عبد العزيز — فأرداه قتيلا . . .

ونشبت معركة بين حرس الأمير ورجال عبد العزيز لم تلبث أن انتهت باستسلام الحرس ، وسقطت القلعة فى يد عبد العزيز ، ودانت له العاصمة .

ثم عاد الشيخ وأهله من منفاه فى أرض الكويت . واستقبله الفارس الشاب المظفر مترجلا عن جواده خارج الرياض ، وقد بر بقسمه : ليردن ملك آبائه وأجداده وليعودن بأبيه وأهله إلى عاصمة ملكهم مظفراً منصوراً . .

على أن الأمر لم يستتب للأمير عبد العزيز ، فما زال فى صراع دام وجلاد مرير مدة عشرين عاما ، تارة مع ابن الرشيد حتى دحره ، وطورا مع « الإخوان » الثائرين حتى قضى على ثورتهم ، وأخرى مع الاشراف والاتراك حتى انتصر عليهم ، ثم دانت له الجزيرة نجدها وحجازها بعد ذلك الصراع الدامى المرير ...

ومنذ ذلك اليوم ، توحدت الجزيرة العربية بعد فرقة وانقسام ، وقامت دولة ، وبدأ تاريخ ...



قصر عجلان بالرياض ... شهد الفصل الأول فى تاريخ المملكة

نظام الحكم

١

نظام الحكم القائم فى هذه البلاد هو النظام الملكى ، وقد يكون لهذا النظام عيوبه فى بلاد أخرى يقوم فيها على الاستعلاء والظلم والاستغلال ، بما مكنت له عوامل التاريخ وظروف الحياة السياسية والاجتماعية من أسباب الغلبة والقهر ، وانفساح هوة سحيقة بين الحاكم والمحكومين .

ولكن النظام الملكى فى المملكة العربية السعودية أقرب الأنظمة إلى طبيعة هذه البلاد ، فهو نظام « قبلى » على صورة مكبرة ، وكان أول ملك فيها وهو الملك عبد العزيز — يعتبر زعيم القبيلة الكبرى التى تتألف منها هذه المملكة . وقد كان رحمه الله ـ بحكم تكوينه وبيئته لا تتجافى به مظاهر الملك عن التقاليد القبلية العامة ، ولا يجد غضاضة فى أن يقتحم عليه مجلسه ، أو يستوقفه فى الطريق أعرابى إمعــه وهو يناديه : ياعبد العزيز . وإذا تلطف هذا الأعرابى قال له : يا طويل العمر !

فيقف الملك ويستمع إليه فى سماحة ورحابة صدر ، منبعثة من إحساسه العميق بالحرية والمساواة

وقد ضرب الملك عبد العزيز فى ذلك أروع الأمثال .

قال لى السيد بشير السعداوى[1] رحمه الله :

— إن رجلا من أهل الرياض شكا إلى الملك عبد العزيز ابنه الأمير ناصر - وكان أميراً للرياض وقتئذ - من أنه احتجز ماء السيل فروى به بساتينه ، وحال دون وصول هذا الماء إلى بساتين الرجل .

وأمر الملك أن يحاكم ابنه أمير الرياض على صورة فذة ، وذلك بأن يساق إلى مجلسه بحضور القضاة مقبوضاً عليه ، وسار رجال الشرطة بأمير الرياض على هذه الصورة فى شوارع المدينة حتى أدخلوه إلى مجلس الملك . . ووقف الأمير إلى جانب غريمه وتولى القضاة التحقيق . ولم يفرج عنه إلا بعد أن ثبتت براءته .

ومثل آخر يرويه السيد أحمد عبيد :

كان الأمير خالد بن عبد العزيز - وهو فى التاسعة من عمره - يلعب بالنبلة ويتدرب على إصابة الهدف ، فأصاب أحد الصبية فى جبهته ، وانطلق الصبى إلى الملك عبد العزيز يشكو إليه ابنه الأمير .

صبى لا يتهيب الدخول على ملك ، ولا يتهيب أن يشكو إليه ابنه !

واستدعى الملك عبد العزيز ابنه فاعترف بما حدث .

فقال الملك للصبى :

— إذن خذ هذه النبلة واضرب بها خالداً كما ضربك .

---

(١) الزعيم الليبى الكبير ، وقد كان مستشاراً للملك عبد العزيز ، ثم مستشاراً للملك سعود .

وأخذ الصبي النبلة وصوبها إلى جبهة الأمير . ولكنه لم يطلق قذيفتها بل اتجه إلى الملك قائلا :

ــ الآن يكفيني هذا !

قال : وما يرضيك ؟

قال : يرضيني أنك عدلت ...

وهناك عشرات الأمثلة التي تروى في هذا المقام ، وهي أمثلة أراد الملك عبد العزيز أن يحقق بها هدفين كبيرين في وقت معاً .

أما الهدف الأول فهو أن ينشيء أولاده الأمراء وأفراد أسرته نشأة تشعرهم بأنهم لا يمتازون عن بقية أفراد الشعب في الحقوق ، ولا ينبو بهم عن المساواة المطلقة بأفراد الشعب جاه الملك والإمارة ، وبذلك تمتلىء قلوبهم ونفوسهم بهذه المعاني ويمارسونها في حياتهم ممارسة عملية .

وأما الهدف الآخر فهو أن يؤمن هذه المعاني في نفوس الشعب ، ويحفظ عليهم تقاليد الحرية والمساواة التي تنبض بها دماؤهم الحرة في بيئتهم التي لا تعرف إلا هذه التقاليد .

وبهذين الهدفين معاً يكفل قيام الدولة على أسس سليمة من العدل والمساواة في الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكومين . . الحاكم الذي ينبت من صميم الشعب ، والذي يؤهله للحكم أنه أوفر مواطنيه نصيباً من الفضائل والتقاليد الصالحة ، وأقدرهم على حمل تبعاتها نحو مواطنيه .

والمحكومين الذين تمدهم طبيعتهم الحرة البادية بالمناعة الكافية ضد الظلم والاستعلاء ، ولا يرون في النظام الملكي القائم على هذه الصورة

إلا صورة مكبرة لشيخ القبيلة ؛ ولهذا يطلقون على الملك لقب : الشيوخ !

وعلى هذه التقاليد التى أرسى دعائمها الملك عبد العزيز ، نشأ الملك سعود وأفراد أسرته ، ويصور العلاقة التى تربط الملك بأفراد الشعب قول الملك سعود :

— إننا والله لا ننظر إلى الناس إلا بعين المحبة والتقدير والمساواة ؛ فكبيرهم عندنا فى مرتبة الوالد ، ومتوسطهم فى مرتبة الأخ ، وصغيرهم فى مرتبة الابن !

ولقد بدأ نظام الحكم فى المملكة العربية السعودية بتوحيد السلطة فى يد مؤسس الدولة الملك عبد العزيز ، لأن طبيعة هذه البلاد وقيام دولة موحدة تجمع شتاتها لأول مرة بعد تاريخ طويل من التفكك والفتن والحروب ، اقتضى أن يمسك الملك عبد العزيز بقبضته القوية على أزمة الأمور جميعاً ، حتى تستقر الأوضاع وترسخ قواعد الأمن والولاء للعهد الجديد ...

على أن الملك عبد العزيز — رحمه الله — لم يفتنه النصر الذى حققه والجاه العريض الذى تمتع به ، ولم ينزع به ذلك إلى الاستئثار بشئون الحكم والانفراد بحرية التصرف فى مقادير البلاد ، بل أشرك معه طائفة من العلماء ورجال الجهاد وخبراء السياسة يستشيرهم فى سياسة الدولة وشئونها الداخلية والخارجية .

ثم أخذ نظام الحكم يتطور شيئاً فشيئاً ، كلما تطورت شئون الحياة فى هذه البلاد نحو الاستقرار والحضارة ، وكلما ازدادت تبعاً لذلك أعباء

الحكم ومسئولياته . وبدأ الملك عبد العزيز فأشرك معه فى الحكم بعض أبنائه ، فأناب عنه « الأمير » سعود فى حكم نجد ، والأمير فيصل فى حكم الحجاز ، وأقام الأمير محمد أميراً على المدينة...

وأنشىء مجلس الوكلاء الذى يمثل الهيئة التنفيذية ، كما أنشىء مجلس للشورى يضم صفوة من رجال المملكة ويعتبر هيئة نيابية على صورة مصغرة ، وتولى معالى الشيخ عبد الله السليمان منصب أول وزير فى المملكة العربية السعودية .

ثم توالى إنشاء الإدارات التى تشرف على مرافق الدولة ، وتطورت هذه الإدارات فتحول بعضها إلى وزارات ، وأنشىء أول مجلس للوزراء برياسة « الأمير » سعود ولى العهد .

واستكمل جهاز الحكم كيانه وصورته فى عهد الملك سعود ، إذ أنشىء عدد آخر من الوزارات وأسند جلالته رياسة الوزارة إلى الأمير فيصل ولى العهد . ويتكون مجلس الوزراء الآن من ستة عشر عضواً ، منهم تسعة وزراء عاملين وسبعة من المستشارين ووزراء الدولة ، وذلك على الوجه الآتى :

الأمير فيصل رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية .
« عبد الله الفيصل وزير الداخلية .
« فهد بن عبد العزيز وزير المعارف .
« سلطان بن عبد العزيز وزير المواصلات .
« فهد بن سعود وزير الدفاع والطيران .



الملك سعود وعمه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن كبير المستشارين

معالى الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية والاقتصاد الوطنى
« « محمد على رضا وزير التجارة
« الدكتور رشاد فرعون وزير الصحة
« الشيخ السديرى وزير الزراعة
الأمير عبد الله بن عبد الرحمن كبير مستشارى الملك
« مساعد بن عبد الرحمن مستشار الملك
« مشعل بن عبد العزيز مستشار الملك
سعادة الشيخ خالد أبو الوليد مستشار الملك
« « جمال الحسينى مستشار الملك
« « يوسف ياسين وزير دولة ونائب وزير الخارجية
« « ابراهيم بن معمر من كبار رجال القصر

ولمجلس الوزراء ديوان تتبعه الهيئات الآتية :

١ — ديوان الأمانة العامة وهو يختص بشئون سكرتارية مجلس الوزراء .

٢ — ديوان المراقبة العامة ويختص بالإشراف على تنفيذ ميزانية الدولة .

٣ — ديوان الخبراء لتقديم التقارير الفنية فى مختلف الشئون .

٤ — ديوان المظالم وهو أشبه ما يكون بمجلس الدولة .

وتنقسم المملكة من الناحية الإدارية إلى تسع مقاطعات وبكل مقاطعة عدة ملحقات ، وعلى كل مقاطعة وملحقه أمير . وهؤلاء الأمراء من أبناء الشعب الذين شاركوا الملك عبد العزيز فى تكوين الدولة ، وقد ثبتهم الملك سعود فى مناصبهم عندما خلف والده الملك الراحل فى ولاية العرش .

وهناك هيئات تباشر أعمال بعض الوزارات التى لم تنشأ بعد وهى :

رياسة القضاء ، ومديرية الانشاء والتعمير ، والمديرية العامة للحج ، ومديرية الأوقاف ، ومديرية المعاهد الدينية ، ومديرية الشئون البلدية ، ومديرية الجمارك العامة ، ومديرية الإذاعة والصحافة والنشر .

الرحلة الأولى

دعوة من وراء الغيب

لبيك اللهم لبيك !

١

حين فرغ ابراهيم من بناء البيت العتيق ، توجه ببصره إلى السماء وهو يقول : يا رب ، قد فرغت ...

فتلقى الوحى أن أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ...

قال فى ضعف وإشفاق : يارب ، وما يبلغ صوتي !

فقال : إنما عليك الأذان وعلى البلاغ ...

وصدع الشيخ الواهن بأمر ربه ، وأرسل صوته الضعيف بالأذان لا يكاد يسمع رجع صداه . ولكن كلمة الله نفخت فى هذا الصوت الضعيف الواهن ، فاذا به يبلغ من وراء الغيب مستقر الأرواح فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وإذا من بين هذه الأرواح من تضج بالهتاف :

— لبيك اللهم لبيك .

فليس حاج يحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا من أجاب دعوة ابراهيم من وراء الغيب البعيد .

ذكرت هذه القصة وأنا أستمع إلى السيد بشير السعداوى ، مستشار الملك عبد العزيز آل سعود ، وهو يقول لى فى التليفون [١] :

---

(١) كان ذلك فى أواخر يولية سنة ١٩٥٢ .

— أنت مدعو لأداء فريضة الحج هذا العام . . .

قلت ، وأنا فى غمرة الدهشة والسرور : كيف ولم يبق على موعد الحج إلا بضعة أيام ؟ !

قال : نعم ، وإنك لرفيق فى هذه الرحلة المباركة ، فخذ لها أهبتك العاجلة . .

قلت : إذن ، هى دعوة إبراهيم . . عرفت اليوم أن روحى قد استجابت لها من وراء الغيب البعيد .

وأخذت أعد العدة لهذه الرحلة المباركة . ولم أكن أفكر وقتئذ فى نفسى ، وفى الاخذ بأسباب هذه الرحلة ، بقدر ما كنت أفكر فى أن أقضى حقوق الأمومة لتلك السيدة التى تقيم فى موطن الأسرة بأقصى الصعيد . . .

إن للحج هنالك أفراحا وتقاليد ، لا بد من أن أهيء لتلك الأم أن تحي هذه التقاليد وتعيش فى جوها المبارك السعيد ، وإن من البر أن ألقاها قبل السفر فأقضى لها بعض الحقوق ، ثم لأهتبل هذه الفرصة ، فأستروح تحت قدميها نسائم الجنة ، وأتزود من دعائها المستجاب . .

٢

ثم شغلت نفسى بالرجوع إلى كتب الفقه والسنة ، أتحرى فيها أحكام الحج وما كان يفعله الرسول عند أداء هذه الفريضة . ولقد لقيت فى ذلك كثيرا من الجهد — لا أدرى أكان ذلك بسبب ضيق

الوقت ، أم لاتساع ميادين البحث وحرصى على أن أستجمع مختلف أطرافه ، وأستخلص من خضمه الزاخر خلاصة عملية موجزة ، أتمثلها فيما أنا مقدم عليه لأول عهدى بأداء هذه الفريضة . . .

وأراد بعض الأصدقاء أن يهونوا على الأمر ، فقدموا إلى بعض الكتب الحديثة الموجزة فى شئون الحج ، فاذا كثير منها يتضمن توجيهات ومأثورات معينة ، يتوهم قارئها أنها الصورة « التوقيفية » التى يجب أن يلتزمها عند أداء هذه الفريضة ، ففيها مثلا لكل شوط من أشواط الطواف بالكعبة ، أو السعى بين الصفا والمروة ، دعاء خاص ... ولم أجد شيئاً من ذلك فيما رجعت إليه من أمهات كتب الفقه والحديث، وفيما كان يفعله الرسول وأصحابه من بعده . . .

وكونت فى نفسى صورة لما ينبغى أن أؤدى عليه فريضة الحج ، واستحضرت ماوعت ذاكرتى من صور المعالم والمشاهد التى تقترن بشعائر هذه الفريضة ، مما سبق لى أن قرأت أو سمعت . على أنى حين أقبلت فيما بعد أؤدى حجتى ، تضـــاءل كل ماقرأت وما سمعت وما تصورت ، وألفيتنى فى أمية قد أستوى فيها مع من لم يصيبوا مثل حظى ذاك من العلم والتصور .

وحدثنى أحد علماء الأزهر قال :

ــ « لقد ظللت عشرين عاماً ألقى على طلبتى دروسا فى الحج ، فلما أقبلت هذا العام أؤدى هذه الفريضة ، ألفيت نفسى حائرا فى كثير

من المواقف — لا أقول من روعة هذه المواقف ، وإنما لأن العلم فى صحائفه شىء ، وتطبيقه على الطبيعة شىء آخر ... »

هذا من جهة أحكام الحج ، وقل أكثر من ذلك فى آدابه ، فقد شهدت هنالك أن غالبية الحجاج لا يفقهون كثيرا من آداب الحج التى تتمثل فى قوله تعالى :

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ؛ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » .

وقد خرجت من ذلك كله برأى أعتقد أن الأخذ به يحتمه الدين ، ويفرضه شرط الانتفاع بحكمة هذه الفريضة . وهو أن تعد كل دولة إسلامية كتيباً بلسانها عن الحج ، يشترك فى وضعه الفقهاء ورجال التاريخ والآثار والاجتماع والرحلة ، تبسط فيه أحكام هذه الفريضة على ما كانت عليه فى عهد الرسول ، وتوضح فيه آدابها وآداب زيارة المسجد النبوى وغيره من المشاهد ، وتحدد فيه معالم المشاعر بالصور والرسوم ، وتؤرخ فيه الآثار الإسلامية التى يراها الحاج فى تلك البلاد ، ويبين فيه ما هو فى حاجة إليه من مطالب الرحلة ، وما يفيده من علم وتوجيه وإرشاد .

ثم تفرض هذه الدول على كل راغب فى الحج أن يدرس هذا

الكتيب ويصحبه معه دليلا له فى رحلته ، إلا يغنه عن « المطوف » فانه يعصمه من جهالات البعض منهم . وقد أذهب إلى أن يسبق موسم الحج إقامة حلقات للدراسة فى المساجد والأندية بكل قرية ومدينة ، يختلف إليها الراغبون فى الحج ، ويجازون بعدها على « جواز » سفرهم ، كما يجيزهم الطبيب بعد حقنهم بالدواء .

٣

. . . واستيقظت مع الفجر أتأهب ليومى الرائع الجميل ، فاغتسلت واحتلقت وتطيبت ، ثم أخذت لباس الإحرام ونويت العمرة ، وأديت الصلاة . . .

وودعت أهلى وولدى وقد طغت على مشاعرى أشواق أقوى من حرارة الوداع ، ثم غادرت منزلى بحلوان وأنا فى لباسى هذا الأبيض البسيط ، ونعلى المتواضع المكشوف غير المخيط ، وفى عدتى الخفيفة الوافية ، وأنا أشبه ما أكون بالنافر إلى ميدان الجهاد ، وقد انطلقت فى إثرى الدعوات والزغاريد . . .

وقد أحرمت بالمنزل لأن الإحرام بالطائرة غير ميسور ، إذ يصعب على المسافر بها تحديد مكانها من « الميقات » وليس الأمر كذلك بالنسبة للمسافر بالباخرة ، إذ يحرم ركابها عندما تحاذى بهم « رابغ » على ساحل البحر الأحمر ، وهى ميقات الحجاج من أهل مصر وشمالى أفريقية .

وقد جعل الرسول لأهل كل جهة ميقاتهم ، يتهيأون عنده للدخول

إلى حرم الله ، وجعل ميقات أهل المدينة أبعد هذه المواقيت عن الحرم ، لتزيد رقعة الإحرام فيزداد أهلها استمتاعاً بمشاعر الإقبال على بيت الله الحرام ، ويزداد ثوابهم على قدر ما ازداد من تحملهم مشاق الرحلة وقيود الاحرام . . .

وقال عبد الله بن عامر والى البصرة على عهد عثمان ، إن عثمان — رضى الله عنه — كان فى نيسابور حين قال له أحد خاصته ، وقد امتدت الفتوحات الاسلامية فى عهده إلى أبعد الآفاق :

— يا أمير المؤمنين ، لم يفتح الله لأحد ما فتح عليك !

فقال : لا جرَم لأجعلن شكرى لله أن أخرج محرما من موقفى هذا ...

فهل كثير علىّ — وقد أكرمنى الله بدعوته هذه لزيارة بيته الحرام — أن أقبل عليه محرما من دارى بحلوان !؟



. . . فى مطار القاهرة — الجالسون من اليسار — السيد بشير السعداوى ، اللواء محمد فؤاد عثمان ، السيد عبد السلام المريّض . الواقفون من اليسار : المؤلف ، الملازم أول أحمد فؤاد عثمان ، السيد مصطفى السراج .

٤

وأقلتنا الطائرة السعودية من مطار القاهرة الدولي ظهر يوم الأربعاء السابع من ذي الحجة . ولم أكن قد ركبت الطائرة من قبل ، ولكن شعوري لم تكن تخالطه الرهبة التي يستشعرها كل من يحاول تجربة جديدة مجهولة تحيط بها أوهام الخطر واحتمالات الشرور ، ذلك لأن هذه التجربة التي كانت جديدة بالنسبة لي ، لم تكن في الواقع جديدة على خاطري وإحساسي الاجتماعي ، فهي قد فقدت عناصر الجدة والمفاجأة ، وتهاويل الشيء الغريب المجهول ، مذ أصبحت مركباً ذلولا عاديا منذ عشرات السنين . . !.

وأرسى هذا الشعور في نفسي أنني شهدت معي في الطائرة أخلاطا من الرجال والنساء والأطفال ، كما أشهدهم كل يوم في قطار حلوان وفي المركبات العامة بالقاهرة ، فليست الطائرة إذن إلا وسيلة مألوفة من وسائل السفر ، لافرق بينها وبين الوسائل الأخرى إلا من حيث السرعة التي لاتحسها وأنت جالس في مقعدك الوثير ، وإلا أن مجراها بين الأرض والسماء .

على أني أحسست شيئاً من القلق والإشفاق ، وأنا أنظر من وراء زجاج النافذة ، فأجد الطائرة قد اتخذت مجراها البعيد فوق البحر الأحمر .

أكان ذلك لأني من أبناء اليابسة ، فأنا لاأستشعر احتمال الخطر ، ولاأشفق من المصير المجهول ، إلا وأنا بين السماء والماء . ولاأستشعر ذلك وأشفق منه إذا كانت الطائرة — وهي هي — تسبح بنا بين السماء والأرض ، ولو فوق الجبال ومفاوز الصحراء ؟!

على أن نفسى لم تلبث أن فاءت إلىّ ، واستقرت مشاعرى فى طمأنينة وإسلام ، فقد تجلت لى هذه الهواجس والوساوس حقيرة تافهة ، وأنا أتمثل هذه القدرة الإنسانية التى ذللت عناصر الكون ، واستوت على عروش الأجواء ، ومن وراء ذلك ... تلك القدرة الإلهية الرحيمة ، المحيطة بالكون فى البحر والبر والهواء .

وعكفت على كتاب الله أتلو من آياته ، وقد تملكنى شىء من الزهو أشبه ما يكون بالعبادة ، إذا تمثلتنى فى مقامى هذا مَلَكاً يترنم بالتسابيح فى معارجه بين الأرض والسماء !

وما هى إلا ساعات أربع ، حتى هبطت بنا الطائرة فى مطار جدة ، ونحن نردد جميعها الهتاف فى شوق وإيمان .

— لبيك اللهم لبيك . . .



في الأرض الطيبة ...

١

هانحن أولاء نخطو خطواتنا الأولى على الأرض الطيبة وئيدة متهيبة ، تلك الأرض التى كانت مسرحا لأروع حوادث التاريخ ، وأخلد ملاحم الإنسانية ...

هذه الأرض التى تروى ذراتها تاريخا طويلا زاخرا بصور البطولة ، وألوان الكفاح ، ومصارع الشهادة فى سبيل الحق والمثل الأعلى . وتتردد فى أجوائها أصداء بعيدة قريبة ، لتلك الانتفاضة الروحية القوية ، التى انشق عنها ضمير الوجود منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، فغيرت معالم التاريخ ، وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق . . .

إن طوفاناً من المشاعر والأحاسيس يحتوينى ، ويملك على الروح والقلب والواعية ، فإذا أنا أعيش فى جو تزدحم فيه صور التاريخ حية نابضة ، وتختلط فيه مشاعر التجرد والعبودية ، وأشواق التلبية والإقبال على الله .

إنها نقلة روحية بعيدة ، تفصل المرء عن حياته تلك التى كان يحياها وهو يصارع « الدوامة » التى تلف الحياة والأحياء ، وتقذف به إلى حياة جديدة ، تنفخ فى روحه شحنة لاعهد له بها من المشاعر والأحاسيس.

أنه يستدبر تلك الحياة المضطربة الصاخبة ، بما فيها من أعباء وهموم وروابط وتقاليد ، وقد تجردت نفسه عن ذلك كله ، كما تجرد جسمه إلا عن لباس الإحرام ، ويستقبل حياة أخرى تتلاشى فيها هذه المعالم ، وتتبدل الأقدار والموازين.

وقد يكون فى هذا التصوير كثير من الرمزية والغموض ، وإنه لكذلك تصوير لايطيق مزيدا من الإبانة والإفصاح ، لأن الإحساس بتلك الصور المزدحمة الغلابة ، لايستطيع أن يتبين حدود هذه الصور ودقائقها فى إحاطة ووضوح ، ولا أن يستوعب كل مايتمثل فيها من ألوان وظلال.

وأخرجنى من هذا الاستغراق فى مطالع الحياة الجديدة وأنا أخطو خطواتى الأولى على الأرض الطيبة ، صوت الرائد وهو يقول :

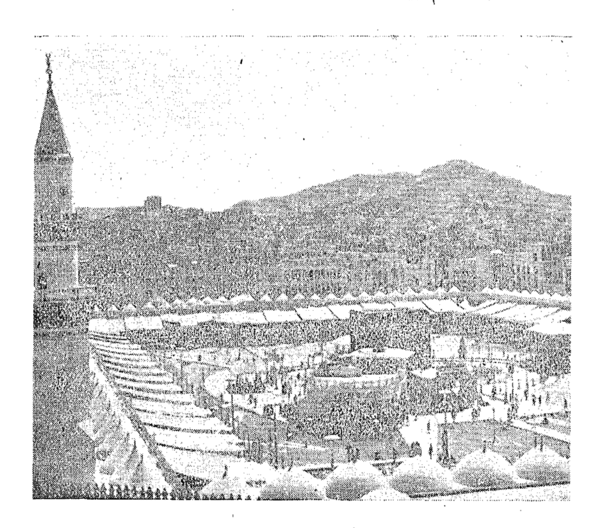
— هلم إلى البلد الحرام . . .

إلى أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين . . .

وحملتنا السيارة إلى مكة بعد الغروب ، وانطلقت بنا فى طريقها الممهد تطوى الأرض فى سرعة خاطفة ، ولكنها لم تكن مع ذلك أسبق من أشواقنا المتوثبة فى حرارة وانطلاق . . .

وعادت الصور المزدحمة الغلابة تستغرق مشاعرى من جديد ، وقد أطبق الظلام على الكون ، فلا تنفرج فيه إلا ومضات خاطفة ترسلها مصابيح السيارات فى انطلاقها السريع . وكنت أحس أن السيارة لا تنطلق بنا فى طريقها من جدة إلى مكة ، ولكنها توغل فى رحلة إلى أعماق التاريخ ، وأنها لا تطوى الأرض وإنما تطوى السنين والحقب والأجيال . حتى إذا لاحت لنا من بعيد أضواء مكة وجبالها الشاهقة ، هتفنا من الأعماق :

— لبيك اللهم لبيك . . .



ودخلنا مكة مكبرين مهللين ، وكنت محرما بالعمرة ، وهى الحج الأصغر كما يقولون ، وقصدت إلى الحرم فدخلته من باب السلام وأنا أقول كما قال الرسول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حيّنا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرًّا ، وزد من حجه أو اعتمره تكريما وتشريفا وتعظيما ومهابة وبرًّا . . . »

ثم إذا بى أهتف من أعماق نفسى :

— الله أكبر ، الله أكبر . . .

هذه الكعبة . . يكتحل بمرآها ناظرى ، وتنتشى روحى ، ويُخبت قلبى ، وتخشع جوارحى !

هذا الرمز الخالد الذى يجمع حوله القلوب ، من عهد إبراهيم إلى أن تقوم الساعة ، رمز التوحيد والعبودية لله وحده . . .

هذه الكعبة ، بيت الله فى الأرض ، وقبلة المسلمين حين يمثلون أمام الله فى الصلاة . . .

هذه الكعبة التى لاتخلو لحظة من لحظات الدهر ، إلا وحولها طائف أو راكع أو ساجد . . .

واجتذبتنى موجة الطواف التى لاتهدأ ولاتفتر ، فإذا بى ذرة متجردة هائمة فى ذلك الملأ الذى يضج بالتسبيح والدعاء . . .

وفى هذا المقام وحده ، يذل عصىُّ الدمع ، فلا تملك إلا النشيج والبكاء . ألست فى حرم الله ، وقد تجردت عن كل مظاهر الدنيا ، إلا من آثامك وخطاياك ؟ !

ألست فى مقامك هذا واقفا بين يدى الله وحيدا فريدا ، قد تخليت عن الأهل والولد والجاه ، وقدمت إليه منقطع الصلة بالحياة والأحياء ، فى لباسك هذا الذى تغادر به الدنيا وأنت تستقبل الموت وتستدبر الحياة ! !

وفى هذا المقام وحده ، لا تخجل من أن تعترف بذنوبك وآثامك ، بل إنك لتجد الراحة والسلام وأنت تذيب هذه الذنوب والآثام فى دموع التوبة والندم . . .

ألست واقفا بباب الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى وسعت رحمته كل شىء ، فأنت تلوذ بحماه ، وتستجديه الرحمة والغفران !

وفى هذا المقام وحده ، يجأر الإنسان بالدعاء لا يكاد يحس من حوله ولا يحس به من حوله ، أليس قد تلاشى من إحساسه كل شىء فى الوجود ، إلا أنه عبد آبق تقطعت به الأسباب وتخلت عنه الأرباب ، فأقبل على مولاه تائباً منيبا بين يديه ، لأنه لا مهرب منه إلا إليه !

٣

وأتممت الطواف سبعاً ، وكنت كلما حاذيت الحجر الأسود أشرت إليه بيدى مكبرا ، فإذا حاذيت الركن اليمانى بسملت وكبرت . وكان دعائى فى الطواف ما كان يدعو به الرسول :

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

ثم ما كان يحضرني من مأثور الآيات والأحاديث ، وما تفيض به مشاعري في هذا المقام من ضراعة وابتهال . . .

وما كان أشد عجبي فيما بعد وأنا أقف أتأمل الكعبة ، أن أشهد بعض صبية المطوفين وهم يقودون جماعات الحجيج يلقنونهم من الأدعية ما لا يفقه أولئك الصبية معناها ولا يحسنون مبناها ، فيردد أولئك الحجيج ما يسمعون ترديدا ينبعث من الآذان لا من القلوب !

وهل في مثل هذا المقام يحتاج المهاجر إلى الله ، المقبل عليه ، إلى من يقوده من أمثال هؤلاء الصبية ، كما يقود الصبي الراحلة ؟

وهل في مثل هذا المقام الملهم بفيوض المشاعر ، الجياش بأروع المعاني وأبلغ الأحاسيس ، يحتاج المرء إلى من يترجم له مشاعره ويملي عليه ما يقول ؟

إنه إذن للجهل بسنة الرسول ، والأمية الوجدانية ، وعي المشاعر ، وجدب الأحاسيس . . .

واقتديت بالرسول فكنت أسرع قصير الخطى في الأشواط الثلاثة الأولى ، وقد « اضطبعت » فأزحت عن كتفي اليمنى لباس الإحرام فجعلته تحت عضـــدي . لقد فعل محمد ذلك في عمرته الأولى وأمر به

أصحابه ، لأن المشركين حين رأوا المسلمين فى « الحديبية » وقد أوهنتهم حمى يثرب ، قالوا شامتين :

— « قد أوهنتهم الحمى ، وإن محمداً وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال »

فأمر الرسول أصحابه أن « يرملوا » فى الأشواط الثلاثة الأولى ، وأن يضطبعوا ، إظهاراً للنشاط والقوة ، وقال :

— « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » .

فصارت سنة فى الطواف ...

وبعد أن أتممت الشوط السابع اتجهت نحو « الملتزم » وهو يقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، فالتصقت بالجدار رافعاً يدى أتعلق بأستار الكعبة وأنا أجأر بالدعاء وأنشج بالبكاء ؛ إنه موقف للضراعة تتشبث فيه بالبيت العتيق بجسمك وروحك ومشاعرك جميعاً ، وأنت تسأل الله من فضله وعفوه ، وتلوذ بحماه فى ذلة وتجرد وابتهال !

ثم غدوت على مقام إبراهيم فصليت إلى جواره ركعتين ، وشربت من ماء زمزم ...

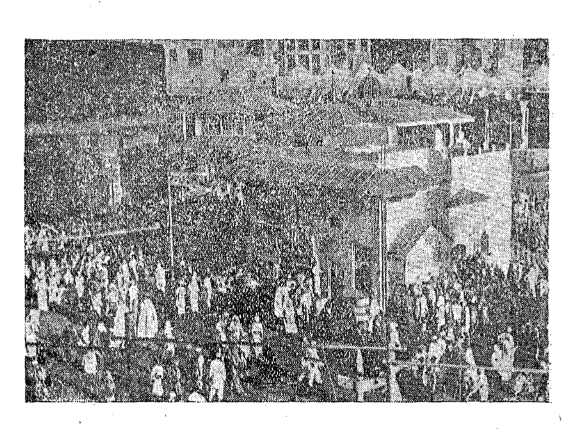
أما مقام إبراهيم هذا ، فهو الحجر الذى كان يقوم عليه وهو يرفع القواعد من البيت . وقد بلغ هذا الحجر من القداسة أن أقيمت عليه قبة ، وأصبح مزاراً يظن كثير من الحجاج أنه قبر إبراهيم ... كما تبارى بعض السلاطين والولاة فى تحليته بالذهب والفضة ! !

وما أظن الآية التى تقول :

« واتَّخِـذُوا مِنْ مَقامِ ابراهِيمَ مُصَلًّى . »

تعنى هذا الحجر أو تخلع عليه شيئاً من القداسة ، وإنما تعنى المكان الذى قام فيه إبراهيم إذ ذاك . . .

وأما زمزم فقد كانت تشهد قبل أن يقام عليها البناء الحالى ، ألوانا من جهالات بعض الحجاج ، وتهافتهم على التبرك بمائها ، حتى إن أحدهم — كما يقول صاحب الرحلة الحجازية — ألقى بنفسه فى البئر ليموت شهيداً فى مائها المقدس !



وقد رأيت كثيراً من الحجاج يأتون بقطع طويلة من القماش فيغمسونها فى ماء زمزم ، ثم ينشرونها على حصباء الحرم حتى تجف .

وسألت : ماذاك ؟

قيل : هذه أكفانهم يدخرونها ليوم الوفاة . .

ثم وقفت أتأمل الكعبة من جديد ، إن النظر إلى الكعبة عبادة صامتة .

ولكن أي صمت هذا الذى يوحى إلى النفس أبلغ منطق وأروع بيان !

وقفت أتأمل الكعبة ... قائمة فى أستارها السوداء ، وقد غص المطاف بأفواج الحجيج متدفقة هادرة ، كلهم فى لباس الإحرام عراة الرءوس حفاة الأقدام ، قد انمحت من بينهم الفوارق الاجتماعية ، فلا غنى يستعلى به غناه ولا فقير يتواضع به فقره ، ولا عظيم يتقدم به جاهه ولا حقير تتخلف به حقارته ، ولا فرق بين أبيض وأسود ولا بين سيد ومسود ، الكل فى هذا المقام سواسية أكفاء ، عبودية خالصة لله وحده ، ومساواة مطلقة بين الجميع . . .

أى معنى إنسانى حققه الاسلام على هذه الصورة الرمزية الرائعة ، والتى ما زال العالم المتحضر فى أرقى مؤسساته الدولية لا يستطيع أن يبلغ أدنى مراتبها ، بل إنه حين يحاول ذلك تخذله الأنانية والرجعية ويفضحه الكذب والنفاق ؛ وما قضايا الشعوب المنكوبة بالاستعمار ، وقضية الملونين فى أمريكا وغيرها ببعيد . . .

أطياف الذكريات ...

١

ووقفت أتأمل الكعبة ، فإذا صور من أطياف الماضى تتواثب أمامى حية نابضة ، وإذا أنا أعيش فى أعماق التاريخ البعيد ...

هذه الكعبة تتردد فى سمائها أصداء رهيبة آتية من كل مكان ...

إنها أصداء قريش وغيرهم وقد تملكهم الفزع والاضطراب ، وهم يغادرون دورهم ويجلون عن مكة إلى شعاب الجبال ، فراراً من جيش « أبرهة » الداهم الذى قدم ليمحو الكعبة من الوجود !

هذه الكعبة التى تعلقت بها قلوب العرب فى أنحاء الجزيرة ، ولم تصرفهم عنها بيوت أخرى للعبادة ، أقامها الغساسنة فى الحيرة ، وأبرهة فى اليمن ، وبيت اللاّت فى الطائف ، وغيرها فى بعض البلاد ...

وهذا عبد المطلب سيد قريش ، قد عاد لتوّه بعد أن واجه أبرهة فى معسكره ذاك وراء مكة ، واسترد أمواله وأموال قومه التى استولت عليها طلائع الغزاة ...

ولقد عجب أبرهة من أمر عبد المطلب أيما عجب ...

إنه يقدم عليه منافحاً دون « البعران » لا مدافعاً عن الكعبة . .

ويزداد عجبه حين يقول له عبد المطلب :

— نعم ، هذا مالى أدافع عنه ، وللبيت رب يحميه . . .

هذا عبد المطلب يقف ممسكا بحلقة باب الكعبة ، وحوله نفر من قومه تفيض نفوسهم بالحزن والأسى ، وهو يتوجه إلى الله فيقول :

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ . . .

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنَا فَأَمْرٌ مَا . . . بَدَا لَكْ !

ثم ينصرف عن الكعبة وينصرفون ، وتبدو الكعبة من بعدهم موحشة واجمة . إنها بداية المعركة الرهيبة بين جيش أبرهة فى الأرض وجند الله فى السماء . . . .

* * *

وتتواثب الصور أمامى حية نابضة . . .

هذه الكعبة قد عاد إليها الأمن والطمأنينة والسلام . وهذا عبد المطلب سيد قريش يجلس فى ظلها على فراش قد أعد له ، وحوله الرجال يفترشون الأرض فى هيبة واحترام ، إلا طفلا وضيئاً قد جلس إلى جانبه وقد استأثر منه بكثير من العطف والاهتمام . . .

إنه محمد الصغير . . .

ذلك الطفل الذى ولد عام الفيل ، والذى فقد أباه قبل أن يراه . . .

يجلسه عبد المطلب فى حجره ، وعلى فراشه ، حين يتخذ مجلسه كل يوم بين أشراف مكة فى ظل الكعبة . . .

* * *

وتتواثب الصور أمامى حية نابضة . . .

هذه قريش يشتد بينها الجدل ، ويحتدم الشقاق ، حتى لتوشك أن تصمت الألسنة وتنطلق السيوف .

إن كل قبيلة تريد أن تستأثر بوضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة وهم يعيدون بناءها بعد أن دهمها السيل ، وتأبى أن تترك لغيرها هذا الشرف العظيم . . .

ويقبل على القوم شاب وضيء ، فيهللون فى نفس واحد قائلين :

— رضيناه حكماً . . .

— إنه الأمين !

* * *

وتتواثب الصور أمامى حية نابضة . . .

هذا محمد الأمين يدخل الكعبة ، فتأخذه العيون بنظرات غريبة ، ليست كتلك التى استقبلوه بها فى الأمس القريب . . .

نظرات حانقة شزراء ، يتطاير منها الشر والشرر . . .

إنه يصلى فى الكعبة صلاة عجيبة لم يألفها القوم فى عبادتهم تلك التى يتقربون بها إلى التماثيل والأصنام . . .

وإنهم ليضيقون بهذا الرجل وعبادته، لأنه يلحد فى دينهم، ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، وهم سدنة البيت، وأشراف مكة، وسادة العرب.

وأقبل أحدهم عليه وهو قائم فى الصلاة، فأخذ بمجامع ردائه وخنقه خنقاً شديداً، والقوم من حوله شامتون مستهزئون، حتى كادت عيناه تبرزان... لولا أن انبرى له شيخ وقور فدفع الرجل عنه غاضباً وهو يقول:

ـــ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله!

... إنه أبو بكر!

* * *

وتتواثب الصور أمامى حية نابضة...

إن الكعبة لتشهد اليوم أمراً عجباً...

هذا محمد الذى شهدته بالأمس يؤدى صلاته فى ظل السخرية والإيذاء والموت، والذى خرج من مكة خائفاً يترقب، فراراً بدينه وحياته بعد أن ائتمر به قومه ليقتلوه. ها هو ذا يدخل الكعبة ومن ورائه عشرة آلاف يملئون سماء مكة بالتكبير والتهليل...

وها هى الأصنام التى كانت تحيط بالكعبة تهوى ذليلة محطمة، على أعين سدنتها وعبادها، لا تملك عن نفسها دفعاً ولا يملكون...

٢

وانتزعنى من تأملاتى هذه صوت الرائد وهو يقول :

— هلم نستكمل مناسك العمرة ، إلى الصفا والمروة أيها الرفيق .

وخرجنا من الحرم إلى الصفا ، تلك الربوة التى وقف عليها محمد فى فجر دعوته يوم نزل عليه قوله تعالى :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »

فجعل ينادى بطون قريش بأسمائهم حتى اجتمع منهم خلق كثير ، ثم قال فيهم :

— أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقى ؟ .

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ...

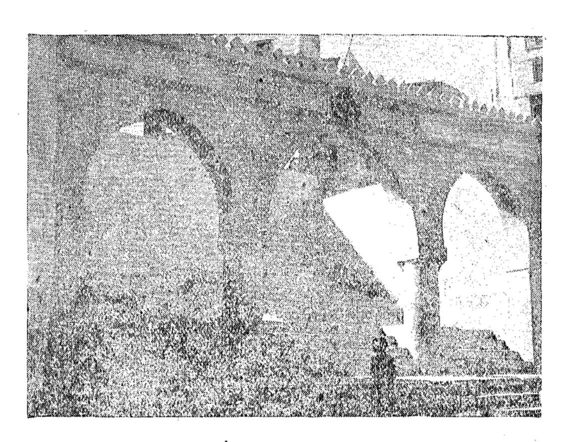
قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فانفجر عمه أبو لهب ساخطاً وهو يقول :

تباً لك ... ألهذا جمعتنا ؟

وبدأنا السعى بين الصفا والمروة ونحن نهتف بالتهليل والتكبير والدعاء ونردد قوله تعالى :

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ »



ربوة الصفا ... حيث يبدأ السعى

وكان سعيُنا بين الصفا والمروة فى زحمة شديدة التلاطم والاضطراب ، بين صفين من المتاجر والمشارب والدور تطل على الساعين بأنظار فضولية باردة .

ترى هل كان من الممكن أن يخلو هذا المشعر مما قام على جانبيه من تلك المتاجر والمشارب والدور ، فضيق على الناس مسعاهم ، وأقحم على جوهم القدسى ذلك الفضول النابى البليد ؟

وهل كان من الممكن أن يتوافر لهذا المسعى من الرحابة والنظام ، ما يجنب الناس ذلك الكرب الذى يكاد يفسد عليهم جو العبادة الخالصة ؟

وهلا كان من الممكن أن تتخذ السيارات التى تقطع هذا المسعى طريقا آخر إلى غايتها ، فلا تعطل حركة السعى ولا تقطع على الساعين طريقهم وتزعج نجواهم ؟

نعم ، كان هذا ممكنا بل واجباً . وقد علمت أن الملك سعود حاول وهو ولى للعهد أن يزيل هذه المبانى ويرد للمسعى رحابته وقدسيته ، لولا أن قامت فى سبيله الأنانية والجمود .

إن « عمر » أزال كثيراً من البيوت التى كانت تحيط بالحرم ، وأدى لأصحابها الثمن، ليزيد من مساحة المسجد الحرام. ولقد أبى بعضهم يومئذ أن ينزلوا عن دورهم ، فأجلاهم عنها ووضع لهم ثمنها فى خزانة الكعبة ثم قال لهم :

— إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ، ولم تنزل الكعبة عليكم .

فعل ذلك عمر ثم عثمان من بعــــده . وكذلك ينبغى أن تفعل الحكومة السعودية ، فتزيل جميع المبانى المحيطة بالمسعى ، وتؤدى لأصحابها الثمن راضين أو كارهين . . .

وكان ذلك منذ أعوام . . .

ثم دارت الأيام ، وتولى الملك سعود العرش ، وطالع العالم الاسلامى بمشروعه الجبار لتوسيع الحرم ، وشهدت فى رحلتى الثالثة إلى هـذه البلاد ، ذلك الأمل الذى كان يراود النفوس يصبح حقيقة ماثلة .

إن المسعى بين الصفا والمروة قد أعملت المعاول فيما يحيط به من المتاجر والدور ، وإن المشروع الجديد لتوسعة الحرم أدخل هذا المسعى فى رحاب الحرم المقدس . وبذلك سوف يتهيأ للساعين أن

يؤدوا نسكهم فى جو قدسى خالص يليق بجلال هذه العبادة ، وينأى بها عما كان يفسدها من سوقية وفضول .

وأتممنا السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ونحن نتمثل اللهفة الطاغية والحيرة الذاهلة التى استبدت بقلب « هاجر » زوج ابراهيم منذ آلاف السنين ، وهى تهرول بين الصفا والمروة تلتمس قطرة من الماء تبل بها صدى وليدها اسماعيل .

لقد ألقى بها ابراهيم فى هذا المكان القفر إلى جانب أطلال الكعبة ولم يترك لها ولطفلها الرضيع إلا جرابا من التمر وقربة من الماء . وإلا دعوات ضارعة توجه بها إلى الله :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »

ولم يلبث أن نفد التمر والماء ، وانقطع معهما غذاء الطفل من ثدى أمه . وأخذ الجوع والظمأ يلهب أحشاء الطفل الرضيع .

وجن جنون المرأة وهى تستمع إلى أنين الطفل وبكائه المتقطع الموصول ، وتلفتت فيما حولها مكروبة ذاهلة ، تتلمس الماء . . فلا ترى إلا الجبال السود والأودية القاحلة ، وانطلقت إلى الصفا تتطلع إلى الأرض والسماء ، ثم نزلت مهرولة إلى المروة تقلب طرفها الواهن وتستجمع أنفاسها اللاهثة ، وما زالت كذلك تتجاذبها اللهفة والقلق والاشفاق

سبعة أشواط ، حتى إذا كانت على المروة وقد استبد بها اليأس وناءت بها الآلام ، توجهت ببصرها نحو الكعبة فإذا عين ماء تتدفق تحت قدمى طفلها المشرف على الهلاك !

٤

وعدنا إلى الفندق فتحللنا من الإحرام .

ولم أستطع النوم فى تلك الليلة ، وأى عين تستطيع أن تغمض أمام هذه المشاهد الرائعة ، وأى قلب يستطيع أن ينام !

لقد قطعت آلاف الأميال منذ غادرت دارى فى حلوان صباح ذلك اليوم إلى أن بلغت مكة قبل العشاء ، رحلة طويلة مجهدة ، لم يتخللها إلا فترات قصيرة للراحة والاستجمام ، لا أكاد أصيب منهما طرفا حتى أخف إلى مرحلة بعد مرحلة ، وطواف وسعى ينالان من المرء كثيراً من الجهد والإرهاق .

ومع كل هذا الجهد المتصل والعناء الشديد ، أجدنى موفور القوة والنشاط ، متفتح المشاعر ، مرهف الأحاسيس ، لا أجد فى الليل آية السكينة والنوم والأحلام ، بل يقظة واعية ، وأفراح تغمر النفس ، وأشواق تنسخ آية الليل والنهار .

ومرت الساعات خفيفة مسرعة ، إن صح أن الزمن هناك يقاس بالدقائق والساعات ...

وتردد فى سماء مكة أذان الفجر ، ينطلق من مآذن الحرم فى بساطة وخشوع وإيمان : الله أكبر ، الله أكبر !!

وهنالك شهدت أروع صورة تبهر العين والقلب والوجدان ، هذا الحرم المقدس تتلألأ جنبـاته بالأنوار ، وهذه الكعبة بأستارها السوداء قد اصطف الناس حولها من كل اتجاه ، وقد جلسوا فى خشوع ورهبة ، يتلون آيات الله ويرددون التسبيح والدعاء ، حتى إذا قامت الصلاة خف إليها الناس حلقة وراء حلقة ، حتى يمتلىء بهم المسجد . وما تزال هذه الحلقات تتسع وتتداح مع الفجر فى مسراه ، حتى تشمل فى اتجاهها نحو الكعبة جميع أقطار الأرض ، فإذا أربعمائة مليون من المسلمين قد اتجهت أبصارهم وقلوبهم نحو هذه الكعبة ، ورفعوا أيديهم إلى آذانهم هاتفين .

ـــ الله أكبر . . .

هذه الصورة الرمزية الرائعة للوحدة الاسلامية ، لا يمكن المسلم أن يتصورها على حقيقتها المجسمة الملهمة ، ويعيش فيها بحسه ووجدانه إلا وهو يؤدى الصلاة الجامعة فى المسجد الحرام . . .

أما ونحن نستقبل الكعبة فى الصلاة فى كل قطر من أقطار الأرض ، فلا أحسب أن فى المسلمين من يستطيع أن يتمثل على البعد تلك الصورة الوجدانية الواعية ، اللهم ألا من صفت قلوبهم ، وشفّت بصائرهم ، وانزاحت عن حياتهم حجب الزمان والمكان ، وقليل ماهم هؤلاء . . .

وقد أعجبنى للدكتور عبد الوهاب عزام فى مثل هذا المعنى ما جاء فى كتابه « رحلات » عن أذان الفجر فى الحرم إذ قال :

ـــ « ما أجمل هذا الصوت وما أروعه !!

عظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد .

قلت لنفسى :

ليت الإنسان يستمع أبداً إلى أذان الفجر فى جوار الكعبة !

قالت : أما الأذان فهو دائم موصول لاتخلو منه ساعة من ليل أو نهار ، فالأوقات فى أقطار الإسلام مختلفة ، فما يسكن أذان فى بلد إلا ارتفع فى آخر ، أبد الدهر . تكبير دائم لمن كان له سمع ، وذكر مستمر لمن كان له قلب . وأما الكعبة فأنت فى جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب .



جولة خاطفة فى مكة

١

ورأيت أن أقضى بعض الوقت فى زيارة أصدقائى من الحجاج الذين ودعتهم فى مصر ، ودعوت الله ودعوا لى يومئذ ، أن أفوز بحج بيته الحرام فى العام المقبل ... ولم نكن يومئذ ندرى أن الله قد كتب لى الفوز بأداء هذه الفريضة قبل هذا الموعد بعام ، وأنى سألحق بهم بعد أيام ...

وطفت فى شوارع مكة ودروبها أبحث عن دار هذا المطوف وذاك ، حيث ينزل من أقصد من الحجاج . وشهدت فى طوافى هذا شوارع مكة ودروبها ودورها وهى غاصة بأفواج الحجيج من مختلف الأجناس والألوان واللغات . ثلثمائة ألف أو يزيدون ، استجابوا لدعوة ابراهيم من وراء الغيب البعيد ...

وإنك لتعجب وتحس معانى جديدة على شعورك وخاطرك ، وإن لم تكن جديدة على الواقع المقرر المعروف ، حين تتبين أن الكثرة الغالبة ممن يؤدون فريضة الحج ، وهى الفريضة الخامسة فى الإسلام ، دين محمد العربى ، وفى مكة من قلب جزيرة العرب ... انما هم من شعوب

غير عربية ، وأن القلة من الحجاج هم من أبناء العروبة المسلمين . . .

إن الواقع المقرر المعروف هو أن تعداد المسلمين فى العالم يبلغ أربعمائة من الملايين ، وإن العرب منهم ثمانون مليونا . ولكنى لم أتصور هذه الكثرة والقلة كما تصورتها فى الحج ، وعندئذ شعرت بكثير من المعانى المتضاربة تصطرع فى نفسى ...

شعرت بالزهو والإيمان ، وأنا أتصور رسالة محمد العربى ، وقد تخطت حدود الجزيرة العربية ، وانطلقت فى الآفاق شرقاً وغرباً ، عبر الجبال والصحارى والبحار ، واستجابت لها الملايين من أبناء البشرية على تعاقب العصور والأجيال ، واستطاعت أن توحد حول لوائها أشتات الأمم والشعوب ، ومختلف الأجناس والألوان ، وأن يكون المؤمنون بها من غير لسانها العربى أضعاف المؤمنين بها من أهل هذا اللسان . . .

ومعاذ الله أن أصدر فى هذا عن عنصرية أو شعوبية ، إنه زهو وفخر بالإسلام الذى محا العنصرية وقضى على الشعوبية ، لامنٌّ بالعروبة مهد الإسلام ولسانه المبين .

بل قد يكون الأمر هنا على العكس ، فانه إن جاز أن يكون مَنٌّ أو ما يشبه المن ، فهو من حق تلك الشعوب غير العربية ، التى آمنت بدين محمد العربى ، وكان لها فى تاريخه أضخم نصيب ...

ومالى أذهب بعيداً فأعرض نفسى لكثير من الحرج وأنا أسجل هذه المشاعر العابرة ؟ حسبى أن ألقى القلم خاشعاً وأنا استعرض الصفحات

الأولى فى تاريخ الإسلام وحياة الرعيل الأول من رجاله وأبطاله ، فأتمثل المواقف الخالدة لبلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ؛ لأجد هذه العناوين الضخمة اللامعة ، التى تندرج تحتها تلك الحقائق الرائعة فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

ولكن ثمة شعوراً آخر كان يخالطنى وأنا أطوف فى شوارع مكة ودروبها ، فتسترعى اهتمامى وهى تلك النسبة العددية بين الحجاج من العرب وغير العرب — هذا الشعور الذى تطغى عليه الحسرة ويصطبغ بالألم ، لأن الإسلام الذى وحد العقيدة والقبلة بين مختلف الأجناس والألوان من ملايين البشر ، لم يستطع — أو لم يستطع أهله على التحقيق — أن يوحدوا لسانهم الذى نزل به القرآن ، والذى يتعبدون به كل يوم خمس مرات فى الصلاة .

أى مرارة وأى ألم يمض نفسك ويحز فى قلبك ، وأنت تلقى أخاك الهندى أو الصومالى ، فيهش لك وتبش له ، سعيدين بهذا الرباط المقدس الذى جمعكما على قبلة واحدة ، ثم يحاول كلاكما أن يعبر لصاحبه عما فى نفسه من مشاعر الدين أو مصالح الدنيا ، فاذا بكما أخرسان أبكمان ، لاوسيلة بينكما للتفاهم إلا الإشارات والرموز ، وإلا اللغة الاستعمارية الدخيلة ، لغة أبناء التاميز ...

إن الوحدة الروحية والاجتماعية التى حققها الإسلام بين جميع الأجناس والألوان ، تفقد كثيراً من معانيها فى واقع الحياة ، ومن آثارها العملية فى المجتمع ، بسبب هذه البلبلة اللسانية ، التى توهن

أقــوى الروابط وتوهى أمتن الصلات ...

ولست أدرى على من تقع هذه المسئولية الكبرى التى تتصل بالرسالة المحمدية فى الصميم ؟

أتقع على العرب الذين لم يتابعوا جهاد أسلافهم فى تعريب لسان المسلمين فى كل قطر دخل أهله فى دين الله ، أم على أولئك المسلمين أنفسهم ، الذين قنعوا من لغة القرآن ببضع آيات يرددونها فى الصلاة؟

٢

واهتديت إلى بعض أصدقائى الحجاج فى دار المطوف الذى يتولى أمرهم منذ وصلوا إلى الحجاز . وقد راعنى أن أشهد أمام كل دار من دور المطوفين العتيقة ، عشرات من النزلاء يزحمون الطريق على أسرة من الليف ، أو إلى جانب الجدار ...

ولكنى حين دخلت واحداً من هذه الدور ، أدركت السبب والتمست لهم المعاذير ، إنها دور عتيقة لا ماء فيها ولا ضوء ولا هواء ، وإن الغرفة الواحدة تضم فوق ما تطيق من النزلاء ، وكلما ازداد عددهم قل نصيب الفرد فيما يؤدى من الأجرة وإن ازداد ما يعانيه من كرب وبلاء ...

إن الحياة التى يحياها الحجاج فى أكثر دور المطوفين حياة قاسية مؤلمة ، لا تحتملها النفوس رغم ما تنطبع عليه فى موسم الحج من تجرد وتقشف وإحرام ...

وحاول المطوف أن يعتذر عن ذلك فقال :

ـــ إن مكة تستقبل فى موسم الحج نحو ثلثمائة ألف من الحجاج ، تضيق بهم دور مكة أيما ضيق ، ومنهم عدد ليس باليسير يقيمون فى الطرقات والميادين . فماذا يمكن أن يكون الحال غير ما ترى ؟

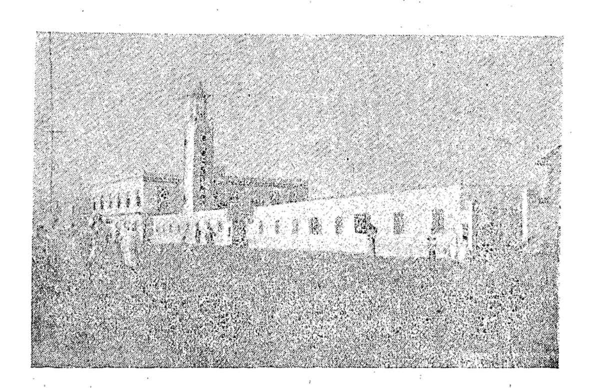
وقبل أن أجيب ، انبرى صديقى الأستاذ مصطفى السراج وزير المالية والاقتصاد الأسبق فى ليبيا يقول :

ـــ « يمكن أن يكون الحال غير ذلك ، لو أن أمين العاصمة زار مدينة الفاتيكان ، ورأى كيف تستوعب تلك المدينة فى موسم الحج خمسة ملايين من الحجاج ... »

وقد علمت أن ثمة مشروعاً لإنشاء مدينة للحجاج فى البطاح والأودية التى امتد إليها العمران خارج مكة ، تؤسس على طراز يجمع بين البساطة وتوافر الشرائط الصحية ، بدلا من هذه الدور العتيقة التى يكتظ فيها الحجاج ، ويعانون فيها مالا يطاق من المتاعب ، ويتعرضون فيها لكثير من العلل والأمراض ...

إن مثل هذا المشروع قد نجح على صورة مصغرة فى جدة ، إذ أقيمت فيها مدينة للحجاج قرب الميناء ، تستقبل فى كل فترة عشرة آلاف من الحجاج ، كانوا من قبل يلاقون كثيراً من العناء فى إقامتهم بدور المطوفين عند وصولهم إلى جدة ، وعند عودتهم إليها للابحار إلى بلادهم بعد أداء فريضة الحج ، ولا تكلفهم الإقامة فى هذه المدينة

الآن إلا جنيهاً مصرياً واحداً ، يقضون بها في مقـــابل ذلك بضعة أيام . . .



جانب من مدينة الحجاج في جدة . وقد ظهر به مسجد المدينة

الموقف الأكبر!

١

ثم عدت إلى الفندق قبـــل الزوال ، أتأهب للاحرام بالحج ، والانطلاق إلى منى لقضاء يوم « التروية » فى طريقى إلى عرفات . .

ولـكن صديق قال :

— هون عليك يا أخى ، إنك تستطيع أن تبيت ليلتك هنا فى مكة ثم تقصد فى الغد إلى عرفات ، دون حاجة إلى أن تبيت فى منى . .

قلت : ولـكنها سنة الرسول . .

قال : نعم وإن وراء هذه السـنة حـكمة يجدر تدبرها . . إن الحـكمة فى مبيت الحجاج بمنى يوم التروية هى التخفيف عليهم من مشاق الرحلة إلى عرفات ، وهى رحـــلة يقطع فيها الحجاج نحو ٢٢ كيلو متراً ، ولم تـكن وسائلهم فيما مضى ميسرة كما هى الآن ، فهم كانوا بذلك يهونون على أنفسهم مشـاق هذه الرحـلة بتجزئتها إلى مرحلتين .

أما الآن فمن اليسير على الحجاج أن يقصدوا إلى عرفات فى سياراتهم فيبلغوها فى نحو ساعة واحدة ، ثم إن التزام جميع الحجاج — وهم مئات

الألوف — المبيت بمنى فى هذا اليوم ، فيه إرهاق لهم أى إرهاق ، لما يتطلبه ذلك من تكاليف المبيت فى هذا المكان ، وما يترتب على حشد مئات الألوف منهم من ضغط وعسر واضطراب ، وبذلك تنعكس حكمة المبيت بمنى — كما شرعه الرسول — من تخفيف على الناس وتهوين لمشاق الرحلة ، إلى تعقيد وإعنات . .

قلت : ولكنى أميل إلى أن التزم فى حجتى الأولى كل مافعله الرسول — صلى الله عليه وسلم — فاذا وفقنى الله لأداء الحج مرة أخرى أو مرات ، أخذت بهذه «الرخصة» التى لا يخامرنى شك فى أنها مستوحاة من حكمة هذه السنة النبوية .

٣

وتجردت من زيتى وأخذت ملابس الإحرام ، ونضوت عن نفسى ماعاودها من خواطر الحياة والأحياء ، وتوجهت إلى الله أقول :

— اللهم إنى أريد الحج فيسره لى ، وتقبله منى . لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

وحملتنا السيارة إلى منى ، فأدركنا بها صلاة الظهر ، وقضينا بها ليلتنا حتى مطلع الفجر . إنها مرحلة روحية تهيء الحاج لموقفه العظيم فى عرفات .

وهنالك تمثلت محمدا يغذ السير على ناقته «القصواء» فى طريقه إلى عرفات ، وقد سار فى ركابه مائة ألف أو يزيدون ...

ثم تمثلته فى موقفه ذاك ، وهو يلقى على الناس خطبة الوداع ، يقول

العبارة فيرددها عنه ربيعة بن امية بن خلف ، يبلغها أسماع الناس ، وفى هذه الخطبة أبان الرسول عن كثير من شئون الدين والدنيا فأوجز وأبلغ ، فلما أتم كلامه واستوثق من أن الناس قد وعوه قال :

ـــ اللهم هل بلغت ؟

فأجاب الناس من كل صوب : نعم .

قال : اللهم فاشهد !

وفى هذا اليوم نزل عليه قوله تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً »

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى ، لأنه علم أن النبى قد نعيت إليه نفسه !

* * *

قال صديقى :

ـــ هنيئاً لك حجك فى هذا اليوم ، إنه يعدل سبعين حجة ! !

قلت : وما ذاك ؟

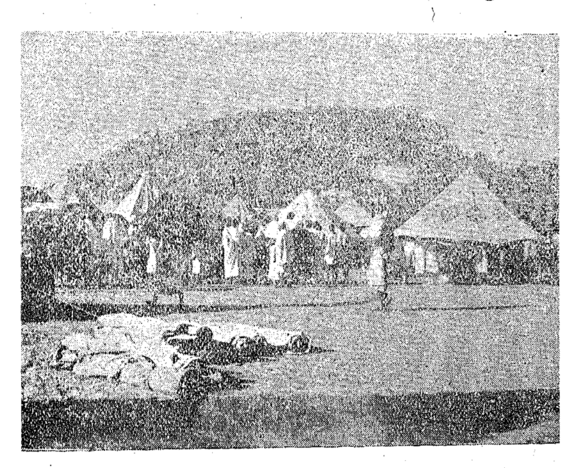
قال : لقد كانت حجة الوداع فى يوم جمعة ، وهو يومنا هذا ، ولهذا قيل إن الحج إذا وقع فى يوم جمعة تضاعف أجره سبعين مرة !

قلت : إن الذى يضاعف أجر الحج ليس وقوعه فى هذا اليوم أو ذاك ، وإنما فى وقوعه من القلوب بمنزلة الإيمان الواعى البصير ، الذى تنعكس أنواره فتسرى فى المشاعر كالكهرباء ، فتترجمها المشاعر إلى أعمال مبرورة وكلم طيب يرتفع بصاحبه إلى السماء .

٣

ولاحت لنا عرفات ، ذلك السهل المنبسط الفسيح ، وقد أقيمت فيه الخيام على مد البصر ، وفى أقصاه جبل « إلال » أو جبل الرحمة كما يقولون ، وقد بدا كأنه جبل من البشر لا من الصخور . . .

إن آلاف الحجاج يغطون جوانبه حتى القمة ، وإنك لتشهدهم هكذا حتى فى وقت الظهيرة تحت وهج الشمس المحرقة ، وفى أتون الحر اللافح الشديد .



وارحمتاه لأولئك المسرفين فى العبادة ، تنطلق بهم أشواقهم إلى بعيد ، حتى لتكاد تبلغ بهم المهالك ، وهم هائمون ذاهلون . . .

وليس ذلك من الإسلام فى شيء أيها الإخوة المسرفون .

أيها المسرفون على أنفسهم ، وعلى دينهم السمح اليسير . . .

هذا الدين الذى لن يشاده أحد الاغلبه ، مهما أوتى من قوة وطاقة ، ومهما أسرف على نفسه من جهد وعناء . . .

خذوا ذلك عن صاحب الرسالة سيد العابدين ، وأوغلوا فى الدين برفق كما يقول . . . .

ثم ماهذا الوقوف على جبل إلال ، ومامكانه من مناسك الحج كما شرعها محمد بأفعاله وأقواله ؟

إن الحج عرفة ، ذلك السهل المنبسط الفسيح ، وكل مكان فيه موقف لأداء هذه الفريضة المقدسة ، وقد وقف الرسول عند جبل إلال ولم يتسنم قمته كما يفعل هؤلاء الغلاة المسرفون ، وأقر مائة ألف من أصحابه على الوقوف حيث هم من ذلك السهل المنبسط الفسيح ، يتوجهون إلى الكعبة بالتهليل والتسبيح والدعاء . .

وارحمتاه لأولئك المسرفين على أنفسهم وعلى دينهم ...

إن منهم من يقدم إلى الحج فى أخريات أيامه محطما هزيلا متهالكا من شيخوخة وإعياء ، وليست لديه إلا أمنية واحدة ، هى أن يموت فى هذه الأرض الطاهرة البيضاء . . .

وهو فى سبيل تحقيق هذه الأمنية التى تملك عليه كل مشاعره ، يحاول جاهدا أن يستعجل هذه النهاية ، ويختصر فى الوصول إليها أسباب الحياة ! !

أنه يجد فى أشعة الشمس المحرقة خيوطا ترقى عليها روحه إلى السماء ، فهو يتعرض لها ويتشبث بأسبابها ليبلغ من أمنيته ما يريد . . .

وهو يقسو على شيخوخته وضعفه ، بل إنه ليجد هذه الشيخوخة وذلك الضعف بما يدفعهما به دفعا إلى مصيره الرهيب الحبيب !

إنه الانتحار . . .

الانتحار على أخبث صورة وأبعدها فتنة وضلالة ؛ لأنه انتحار يلبس ثوب الشهادة فى سبيل الله ، والله ورسوله من ذلك براء ! !

٤

وجدير بى وأنا أتحدث عن أولئك المسرفين على أنفسهم وعلى دينهم ، من أمثال هؤلاء الشيوخ الفانين ، وغيرهم ممن لا تتوافر فيهم شرائط « الاستطاعة » كهذا الذى يقدم على الحج وهو ضعيف معتل ، لا يقوى على متاعب الحج ومشاقّه ، أو ذاك الذى يبيع كل ما يملك من حطام الدنيا ليظفر بأداء هذه الفريضة ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أن يعود إلى بلده معدما يستجدى الناس ما يعول به نفسه وأهله . . .

جدير بى فى هذا المقام أن أضرب مثلا بما فرضته دولة إسلامية ناهضة هى أندونيسيا ، إذ اشترطت على من يريد أداء فريضة الحج

شروطا منها ألا تزيد سنه على خمسين عاما ، وأن يجتاز فحصا طبياً تثبت به سلامته من العلل والأمراض ، وتدخل فى ذلك المرأة أيام حملها ، وأن يكون لديه من المال — عدا نفقات السفر والإقامة — مالا يقل عن ٧٠ جنيهاً . وإذا ثبت أنه باع عقاراً لا يملك سواه لينفق منه على رحلة الحج ، منع من السفر ورُدَّ إليه عقاره . . .

ولم يكن من نتائج هـذه السياسة أن انصرف الأندونيسيون عن الحج ، فإنهم ليفدون على البيت الحرام أفواجا مؤلفة ، وإنما كان من نتائجها أنها جنبت العجزة منهم كثيرا من المهالك والمآثم ، وبعثت إلى موسم الحج بالنماذج القادرة الصالحة لأداء هذه الفريضة .

وقد علمت أن الدكتور محمد علي بدر الدين رئيس البعثة الطبية فى موسم الحج آنئذ ، قدم تقريرا إلى السلطات المصرية تضمن كثيرا من الآراء القيمـــة ، ومن بينها وضع قيود للسفر على من لا تسمح حالتهم الصحية بذلك .

٥

واجتمع فى عرفات ثلثمائة ألف أو يزيدون . . .

وفى هذا الموقف تتجلى روعة الحج وحكمته ، هذا المؤتمر الإسلامى العظيم ، الذى يهرع إليه المسلمون من جميع أقطار الأرض ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات . . .

ولكن أى منافع تلك التى شهدناها فى هذا الموقف الجامع ، وأى

ثمرات جنيناها من ذلك المؤتمر الخطير ، الذى لاتهيأ أسبابه المادية والروحية إلا يوم عرفة ؟

وأخذتنى سنة من النوم وأنا جالس فى المخيم الذى أعده الفندق لنزلائه أتفيأ الظل وأقرأ فى كتاب . . .

وإذا بى أشهد جبل إلال وقد أقيمت عليه مظلة كبيرة ، تخفق فوقها عشرات الأعلام ، وقد جلس تحتها نفر من الناس فى لباس الإحرام ؛ على منصة ذات أسوار . وإذا رجل يقف أمام جهاز للإذاعة فيهتف :

ـــ الله أكبر . . ولله الحمد . . .

ثم ينطلق فى حديث تردده أجهزة للإذاعة أقيمت بين الخيام . . .

إنه يتحدث عن هذا الموقف العظيم ، ويرجو أن يكون شهوده جديرين بأن يباهى الله بهم ملائكته فى السماء .

ثم هو يتلو على الناس مااتخذه مؤتمر الحجيج فى الموسم السابق من قرارات ، وماقامت به الدول الإسلامية لتنفيذ هذه القرارات من جهود . . .

وهو يستعرض بعد ذلك قضايا العالم الإسلامى ، وعلاقاته بغيره من الدول فى إحاطة وإيجاز . . .

ويتنحى عن مكانه بعد أن يقدم للحديث أولئك النفر الذين يجلسون حوله واحداً بعد الآخر . . .

فهذا آية الله الكاشانى يتحدث عن تأميم الزيت فى الحقول الإسلامية ، وتحرير هذه المرافق الحيوية من الاستغلال الأجنبى .

وهذا البشير الإبراهيمى رئيس جمعية العلماء فى الجزائر ، يرسم الخطوط العملية لتحرير المغرب العربى من نير الاستعمار . . .

وهذا سردار عبد الرب نشتر وزير الصناعة فى باكستان ، يتحدث عن تجارب بلاده فى سياسة الاكتفاء الذاتى ، ويعرض مشروعا للتعاون الاقتصادى بين البلاد الإسلامية . . .

وهذا بشير السعداوى زعيم طرابلس ، يكشف عن المؤامرات الاستعمارية التى أوشكت أن تحيل استقلال ليبيا بعد جهادها الدامى أربعين عاما ، إلى أسطورة سياسية ..

وهذا الدكتور محمد حتا نائب رئيس الجمهورية الأندونيسية ، يروى قصص البطولة النادرة التى صرعت الاستعمار الهولندى وأسناده فيما وراء البحار .

وهذا عبد الله الفاضل المهدى يعدد جرائم الاستعمار البريطانى فى السودان ، وخاصة فيما وراء الستار الحديدى فى الجنوب ..

وهذا الأمير سيف الإسلام عبد الله ، يتحدث عن الكنوز المعدنية المخبوءة فى حقول اليمن وجبالها ، ويدعو أهل الفن وأرباب المال فى البلاد العربية والإسلامية ، لكشف هذه الكنوز واستغلالها . وبذلك تتحقق لليمن أسباب النهضة التى تلحقها بركب الحياة .

وهذا أمين الحسينى يؤبن الفردوس المفقود ، ويردد أنات شعب

فقد الوطن وفقد معه حقه فى الحياة ، وأنكره بعض الأولياء من أبناء عرقه وملته . قبل أن ينكره الأباعد والأعداء .

وهذا الشيخ حامد الفقى ، رئيس جماعة أنصار السنة ، يتحدث عما ابتدعه المسلمون فى دينهم من طقوس ، وما أحدثوا من ضلالات ، الأمر الذى أوشك أن يعود بالإسلام غريباً كما بدأ ، وأوشك أن يجعل المؤمنين به ، القائمين على شريعته : غرباء فى هذه الحياة ..

وهذا نجيب الراوى سفير العراق فى مصر ، يعرض مشروعاً أعدته بلاده لتعمير ملايين الأفدنة الغامرة على ضفاف دجلة والفرات ، وهو مشروع يفتح مجالا واسعاً لترقية مستوى المعيشة ، بازدياد الإنتاج الزراعى وإنعاش الحياة الاقتصادية فى البلاد . .

وهذا الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية يتحدث عن التقريب بين المذاهب ، وعن الاجتهاد فى الشريعة ، حتى توائم تطور العصر وتواجه مشكلات المجتمع ، وحتى يصبح التشريع الإسلامى مادة حية فى المجتمع الإسلامى ، وليس أثراً جامداً فى الكتب الصفراء .

وهذا الأمير فيصل يتحدث عن مشروع السنوات الخمس ، الذى وضعته الحكومة السعودية للنهوض بمرافق الدولة ومستوى الشعب ، ورصدت له مائة مليون من الجنيهات .

ثم عاد مقرر المؤتمر إلى الميكرفون يقول :

ــ والآن أيها الإخوة ، نختتم هذه الجلسة الأولى للمؤتمر . وموعدنا معكم أيام التشريق فى منىً ، حيث تجتمع اللجان المختصة لدراسة

ما لديها من مشروعات ، وما تقدمونه اليها من مقترحات . ثم تعرض تقاريرها على المجلس الأعلى للمؤتمر ، فيحولها إلى توصيات تأخذ طريقها إلى الدول الأعضاء لتدخل فى مراحل التنفيذ .

— الله أكبر .. ولله الحمد .

٦

وأفقت من غفوتى على ضجة فى المخيم ، وتلفتّ فاذا الخدم يحملون أكواب الشراب المثلج ، والناس يتصايحون ليطفئوا ظمأهم الشديد .

ثم هدأت الضجة ، ولم يزل أثر هذا الحلم الجميل يداعب أجفانى ويراودنى على الإغفاء من جديد . . .

وسألت نفسى : أين نحن فى موقفنا هذا من تلك الصورة التى طافت بى فى المنام ، وأين تلك المنافع التى جئنا لنشهدها فى هذا الموقف العظيم ؟

إن جبل إلال ما يزال ماثلا أمامى تغطى جوانبه وقمته آلاف الحجاج تصهرهم أشعة الشمس المحرقة ويرمضهم حرها الشديد ، ولا تطوف بخواطرهم إلا معان غامضة ساذجة ، ليس بينها وبين تلك المعانى المشرقة الرشيدة التى تمثلها أولئك النفر الذين تخيلتهم فى منامى ، إلا ما بين الحقائق والأحلام .

وإن هؤلاء النفر من الصفوة المفكرة المجاهدة فى الأمة الاسلامية ، والذين تخيلتهم فى موقفهم ذاك على جبل إلال يتحدثون ويلهمون فتهتز لحديثهم جنبات الوادى ، وتتجاوب مع كلماتهم قلوب الملايين من مسلمى الأرض ، وتنخلع أفئدة زبانية الاستعمار وقراصنة الشعوب ...

ها هم أولاء بذواتهم يؤدون فريضة الحج، ويقفون فى عرفة. ولكن وقوفهم هذا أبعد ما يكون عن وقوفهم ذاك، بعد الأرض عن السماء، إنهم هنا لا يؤدون تلك الأمانة العظمى، فيتحدثون إلى مئات الألوف ومن ورائهم مئات الملايين، ومن ورائهم دول العالم ترهف السمع والقلب — حديث التوجيه والإلهام والبعث والبناء، ولكنهم يقفون كغيرهم من عامة الناس ممن لا يحملون أمانة، ولا يضطلعون بمسئولية. وإذا تحدث أحدهم لا يتجاوز حديثه بضعة أفراد، ولا يتخطى أبواب الخيمة وآذان سامعيه.

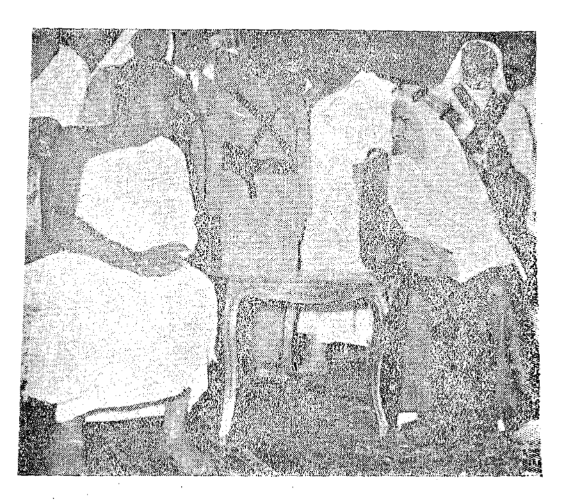
أين هى إذن تلك المنافع التى جئنا لنشهدها فى هذا الموقف الجامع العظيم؟

إن منفعة واحدة هى التى أزعم أننى أفدتها يوم وقوفى بعرفة، ويزعم الكثيرون...

إنها الشعور بهذا النقص الخطير فى تمثل حكمة الحج، والمسئولية الكبرى فى إهدار هذه الفرصة التى لا تتاح للمسلمين إلا مرة كل عام...

وكان ذلك منذ أربعة أعوام...

ثم دارت الأيام، فإذا هذا الحلم الذى راودنى فى المنام، أو هذه الصورة الرمزية التى طافت بخيالى، كما طافت من قبل بأخيلة الكثيرين أمثال عبد الرحمن الكواكبى، ومن كان قبله أو جاء بعده... إذا هذه الصورة الرمزية تصبح حقيقة واعية انبثق عنها قيام المؤتمر الإسلامى.



وبدأت قصة المؤتمر الإسلامى على الصورة التى رسم خطوطها الرئيس جمال عبد الناصر حيث قال :

« . . . ولقد وقفت أمام الكعبة ، وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى :

ـــ يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، يجب ألا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ؛ ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجـــلالة الملك سعود ، فقال لى الملك :

— إن هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية فى الحج .

وفى الحق إنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى ... » .

وفى موسم الحج عام ١٣٧٣ هـ اجتمع فى بيت الله الحرام الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية ، والرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر ، والسيد غلام محمد حاكم عام باكستان .

واستقر رأى الأقطاب الثلاثة على إنشاء المؤتمر الإسلامى . وتكوّن منهم المجلس الأعلى للمؤتمر ، واختير السيد القائمقام أنور السادات سكرتيراً عاما ، واتخذت القاهرة مقراً للسكرتيرية العامة . ومضى المؤتمر يرسم سياسة ، ويعد وسائله ، ويحقق أهدافه .



حديث عن المؤتمر الإسلامي بين الملك سعود والسيد غلام محمد
وبينهما الشيخ عبد الله بلخير الوزير المفوض وسكرتير الملك

وقال القائمقام أنور السادات السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى فى أول مؤتمر صحفى عقده بعد إعلان قيام المؤتمر :

إن فكرة إجتماع المسلمين كل عام فى مكة — كما قد تعلمون — فكرة قديمة قدم الإسلام نفسه . فهى أحد تعاليمه الأساسية التى نفذها المسلمون فى البداية على وجهها الصحيح ، فكانت وسيلة رائعة لتعارفهم ، وبحث مشاكلهم وتوحيد أهدافهم . بالإضافة إلى كونها منسكا دينيا يهدف إلى تنمية القيم الروحية فى نفوسهم عن طريق تجريدهم لفترة معينة من مادية الحياة .

ولكن الأمر لم يستمر طويلا على هذه الصورة . فلم تلبث عوامل التأخر والجهل التى بسطها الاستعمار على معظم شعوب العالم ومن بينها الشعوب الإسلامية أن شوهت حقيقة هذه الفكرة وحولتها عن أهدافها ، وجعلتها مجرد منسك دينى قد لا يعلم الكثيرون من المسلمين الغرض منه .

ونحن الآن نحاول أن نعبر هذه القنطرة الطويلة التى تفصل ماضينا عن حاضرنا ، والتى تراكمت تحتها فى هوة عميقة مظلمة أخطاء قرون طويلة .

ونحن لا نسعى من وراء ذلك إلى أكثر من إعادة تنظيم حياتنا طبقا لتعاليم الإسلام الصحيحة ، وتقوية أواصر الإخوة بين المسلمين ، وتحويلها الى قوة فعالة تستطيع بحكم طبيعتها أن تساهم فى تحقيق سلام العالم وتقدمه وسعادته . فاننا نؤمن أن العالم لن يمضى قدما فى مدارج التقدم والرقى ، ولن ينشر السلام ظلاله عليه ، مادامت بعض أجزائه تعيش فى حالة متأخرة ومتخلفة عن الأجزاء الاخرى .



وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أشرح دور مصر فى هذا المشروع . فأعلن لكم أن دورها فى السعى لتنظيم هذا المؤتمر لا يخرج فى الواقع عن كونه تعبيراً عملياً عن رغبة تجيش منذ فترة طويلة فى صدور المسلمين ، وأنها لا تسعى من وراء دعوتها إلى أية مصلحة ذاتية ، أو مغنم سياسى .

وإذا كان الإسلام قد اقترن - فى أذهان الكثيرين - بذكرى امبراطوريته الأولى ، فانى أشعر أنى لست الآن فى حاجة إلى أن أعلن أن عصر الامبراطوريات قد انقضى ولن يعود . وأن مستقبل الحياة والسيادة على هذه الأرض لن يكون بعد الآن إلا للشعوب ، فى ظل معانى الأخاء والتعاون والعدل .

أيام التشريق..

١

ثم أفاض الحجيج من عرفات . . .

مئات الألوف تنساب بهم الأباطح والأودية فى طريقهم إلى مزدلفة ، وكأنهم جيش لجب تنطلق فيالقه الراكبة والراجلة هادرة فى أحشاء الظلام . .

وإن تعجب فعجب ذلك النظام المحكم ، وتلك الحركة الواعية التى يسيطر عليها رجال الشرطة وجنود المرور . . .

إن آلاف السيارات الكبيرة والصغيرة تنطلق مواكبها فى هذا الطريق تحمل الحجاج والمتاع . وقد سالت على جوانبها أمواج البشر ، فلا يضطرب لهذه المواكب المتدفقة نظام ، ولا تكاد تزل فى غمارها قدم ، أو يصاب إنسان . . .

وهذا الملك سعود — وقد كان وقتئذ ولياً للعهد — والأمير عبد الله الفيصل وزير الداخلية ، يرقبان المواكب ويشرفان على الحجيج ، ويبعثان فى جهاز الحركة روح الثقة والأمن والنظام . . .

ونزلنا مزدلفة حيث المشعر الحرام ، وقد غمرنا شعور طاغ بالغبطة والطمأنينة والسلام ، ألسنا نستقبل منذ الليلة عيداً تولد فيه أرواحنا من جديد ؟

لقد انطوت فى عرفات صفحات الماضى القريب والبعيد ، وانمحت منها تلك السطور القاتمة والظلال السوداء . . .

إن الله كتب على نفسه — وهو يباهى ملائكته بأولئك المهاجرين إليه ، اللائذين بحماه ، الواقفين بين يديه فى تجرد وتوبة وضراعة — ألّا يردهم بعد موقفهم هذا إلا وقد انمحت ذنوبهم وخطاياهم ، وأشرقت صحائفهم بيضاء من غير سوء . . .

ياللفرحة الطاغية ، ويالّلاشفاق الرهيب . . .

الفرحة بما أصبنا من فضل ورحمة ، والإشفاق مما يفرضه علينا هذا الفضل وتلك الرحمة ، من تكاليف وأعباء . . .

أى مستوى هذا الذى رفعتنا إليه رحمة الله ، فإذا نحن أطهار كالملائكة ، وأى جهد وعزم وصبر وإيمان ، نستطيع أن نمسك به مقامنا هذا بين الملائكة فى السماء ، ونغالب به نوازع البشرية فلا تهوى بنا ثانية فى مهاوى الفتنة ومزالق الشرور !

وانطلق صوت المؤذن يشق ظلام الليل ويطارد فلوله الهاربة :

— الله أكبر . . . الله أكبر . . .

وانطلقنا نؤدى صلاة الفجر وندعو الله عند المشعر الحرام ، وقد تجمعت قلوبنا ومشاعرنا عند معنى واحد رهيب ، هو أن يجعلنا الله

أهلاً لمستقر هذه الرحمة ، وأن يمدنا من روحه القوى بما يمسك مقامنا هذا الذى بلغناه بين الملائكة فى السماء . . .

٢

ثم أشرقت شمس يوم العيد الأكبر ، ونحن فى طريقنا إلى منى ، ذلك المشعر الذى شهد أروع قصة للتضحية والفداء . . .

قصة ابراهيم الخليل . . . وهو يمضى بابنه إسماعيل إلى حيث يوفى نذره ويحقق رؤياه ، فيقدم فلذة كبده قرباناً إلى الله . . .

وقصة إسماعيل وهو يسلم رقبته للذبح ، ويقول لأبيه فى طاعة وإيمان:

« يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»

وفى هذا المكان رمينا جمرة العقبة ، كما كان يفعل الخليل وابنه إسماعيل ، وهما يطاردان الشيطان وهو يتعقبهما يريد أن يفتنهما فيما يقبلان عليه من محنة وامتحان . . .

بل لعلهما كانا يطاردان تلك العواطف البشرية ، التى خلفاها عند أول الطريق . . .

عواطف الأبوة الرحيمة الحانية فى نفس إبراهيم ، وعواطف التشبث بالحياة فى نفس إسماعيل . . .

وكذلك كنت أحس وأنا أرمى الحصوات السبع ، فأصيب بها ذلك النصب القائم فى ذلك المكان . . .

لم أكن أتصور أنى أرجم إبليس اللعين ، وقد مسخه الله على هذه الهيئة كما يتصور البعض ، أو الذى يرمز إليه هذا النصب كما يتصور البعض الآخر . وإنما كنت أحس وأنا أرمى هذه الحصوات أنى أرجم الشيطان المندس فى أعماق نفسى ، تلك الشهوات والنزغات المستقرة فى حنايا الصدر ولفائف القلب . أو التى طهرنى الله منها بعد موقفى ذاك فى عرفات ، ولكنها ما زالت تتعقبنى وتراودنى فى فتنة وإغراء ، كما كانت العواطف البشرية تتعقب ابراهيم وإسماعيل فى هذا المقام ...

ولكن أين هذا المعنى الذى تمثلته ، والذى استلهمته من حكمة الرجم مما كان يجول بخواطر الكثيرين ممن يؤدون هذه الشعيرة إذ يرجمون ؟

إنك تستطيع أن تتصور الجواب على هذا السؤال ، إذا علمت أن من بين ما يتجمع فى المكان المسور الذى يحيط بتلك النصب ، كثيراً من النعال ؟

٣

وهناك حيث رمينا جمرة العقبة فى ذلك الوادى الضيق من طريق مكة ، عادت بى مشاعرى مرة أخرى إلى الوراء . . .

هاهوذا محمد ، وقد بلغ منه اليأس أن تؤمن به قريش حدا بعيدا ، فهو يخرج إلى ظاهر مكة يستقبل الوافدين عليها فى موسم الحج ، فيعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم لنصرته ، فلا يخامر أولئك النفر من أهل يثرب شك فى صدقه ، فقد كانوا يسمعون من أهل الكتاب أوصاف :

« الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » .

ثم يستجيب أولئك النفر لدعوة محمد ، ويبايعونه بيعة العقبة الأولى ، ويعودون إلى يثرب ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويفقههم في دينهم الجديد . . .

ثم يمضي عام ، وتشهد العقبة — في هذا المكان — اجتماعاً خطيراً ، هو نقطة التحول في تاريخ الإسلام بالجزيرة العربية . إن وفداً من مسلمي يثرب تبلغ عدته ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، يتسللون تحت جنح الظلام إلى أحد الشعاب ، في انتظار محمد ليبايعوه البيعة الكبرى ، ويدعونه للهجرة من مكة إلى المدينة . . .

وقدم إليهم محمد ومعه عمه العباس ، ولم يكن قد أسلم بعد . ولكنه أراد أن يستوثق لابن أخيه قبل أن يقدم على تلك الخطوة الجريئة ، فابتدر وفد يثرب قائلا :

— يا أهل يثرب إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه .

قالوا : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتلا محمد بعض آى الكتاب ، وتحدث عن الاسلام ، ثم قال :

— « بايعونى على الا تشركوا بالله شيئا ، وعلى السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تنصرونى اذا قدمت عليكم بيثرب ، فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم » .

فمد اليه سيد القوم يده وهو يقول :

— بايعنا يا رسول الله ؛ فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر !

ولكن أحدهم ينبرى فيقول :

— يا رسول الله ، أن بيننا وبين الرجال — يعنى يهود يثرب — حبالا نحن قاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم محمد وقال :

— « بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أنتم منى وأنا منكم . . أحارب من حاربتم . . وأسالم من سالمتم » .

وهموا بمبايعة الرسول ، ولكن أحدهم يعترضهم قائلا :

— يا معشر الخزرج ، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه ... فمن الآن فدعوه ، فانه والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

قال : الجنة !!

٤

وانصرفنا الى مكة فأتممنا شعائر الحج ، طواف بالكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة . ثم عدنا الى الفندق فتحللنا من الاحرام ، أى احتلقنا وتطيبنا ولبسنا المخيط وأخذنا زينتنا من جديد ، احتفالا بالعيد الأكبر فى هذا اليوم المبارك السعيد . . .

وحملتنا السيارة ثانية الى منى نقضى بها أيام التشريق ؛ أياما ثلاثة ينتقل فيها الحجاج الى جو جديد ، هو مرحلة وسطى بين جو العبادة المتجردة الخالصة فى أيام الحج ، وجو الحياة المضطربة الصاخبة التى تنتظرهم بعد أيام أو أسابيع . . .

حكمة بالغة ، وتربية روحية سامية ، تروض النفس على ممارسة ما كسبته من مشاعر جديدة ، وتهيئها لتمثل ما انسكب فيها من معانى الحج وآدابه ، حتى اذا انتقلت الى غمار الحياة من جديد ، كان لها رصيد

مذخور من هذه المعانى المستقرة فى الأعماق ، تواجه به الحياة والأحياء على أسلوب مثالى رفيع . . .

وكانت الحياة فى منى أشبه بحياة المعسكر ، الا أنها طليقة القيود لا شظف فيها ولا عناء ، اللهم الا شدة الحر ووطأة الغلاء .

ومرت أمامنا قطعان من الغنم فاستوقفنا صاحبها نساومه على الثمن فقال :

— الطلى ثمنه أربعون ريالا . . .

قلت لرفيق : وما الطلى . . . ؟

قال : الخروف ، وجمعه طليان . . .

فناديت صديق السيد عبد السلام المريّض ، وهو من مجاهـــدى طرابلس الذين قارعوا الاستعمار الطليانى عهدا طويلا ، ثم طاردهم الاستعمار البريطانى فى عهد الاستقلال ، وقلت أداعبه :

— هل لك فى مزيد من دم الطليان ؟

قال : لا ، فقد انتهى ما بيننا منذ حصلنا على الاستقلال ، ولكنى ظامىء إلى دماء أخلافهم وأحلافهم من القراصنة والسماسرة الذين سلبونا روح هذا الاستقلال . . .

* * *

وسقنا الهدْىَ إلى محله متقربين به إلى الله . . .

عشرات الألوف من الإبل والبقر والأغنام ، سالت دماؤها فى ذلك اليوم ، ووزعت لحومها على الفقراء والمساكين ، حتى لم يبق أحد إلا أصاب منها ما يريد ، وما زالت منها المئات ملقاة على جوانب الطريق ، تنتظر وحوش البرية وعقبان السماء . . .

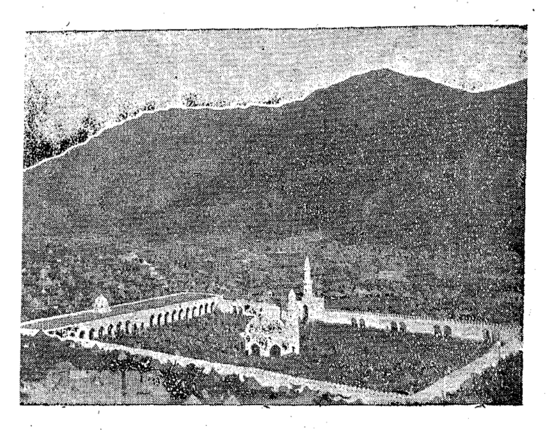
ترى هل كان من الممكن أن يجد المسلمون وسيلة أخرى لإنفاق هذه الصدقة ، تجعلها أكثر نفعاً للفقراء والمساكين ، وأخلق بوقاية الصحة العامة لمئات الألوف من الحجيج ؟

قال صاحبي : نعم ، وإنها لوسيلة يسيرة المأخذ قليلة التكاليف ، هى حصر النحر فى المكان المخصص لذلك دون غيره ، ثم توزيع لحوم الهدى على الفقراء والمساكين ، وتعبئة ما يفيض منها بعد تقديده فى علب من الورق أو الصفيح ، تحمل إلى الملاجىء وإلى دور قوم يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

٥

وكان علينا أن نرمى الجمرات كل يوم فى ثلاثة مواضع ، هى التى تعرض فيها إبراهيم وإسماعيل لفتنة الشيطان ، توكيداً لذلك المعنى القريب أو البعيد فى النفوس ، وحتى تنطبع على هذا اللون من المجاهدة ، وتسترجع صورته كلما عرض لها فى الحياة أمر من الفتنة أو الانحراف ...

وعرجت فى عودتى من الرجم على مسجد « الخيف » أتأهب لصلاة المغرب ، وهو مسجد أقيم تحت سفح الجبل ، تتوسطه قبة قيل إنها تظل المكان الذى أدى فيه الرسول الصلاة . . .



وكان فناء المسجد الكبير المحصب غاصاً بالمصلين والعاكفين ، الذين آثروا الجلوس فيه التماساً للهواء ، وفرارا من الحر الشديد داخل البناء المعروش . ورأيت فرجة على فراش أحدهم تتسع لأكثر من ثلاثة ، فهممت أن أجلس ولكن الرجل ذادنى عنها بخشونة وهو يقول :

ــ دونك المسجد فيه متسع للصلاة . . .

قلت متلطفا : ولكن ألا يسرك أن تشاركنى فى الأجر وأنا أصلى على فراشك هذا ، فأتقى حرارة الحصباء أو حرارة البناء المعروش ؟

قال : إن هذا الفراغ ينتظر أصحابه . . .

قلت : أفى بيت الله تحجز الأمكنة ، وقد شرع الدين الأفضلية فيها للسابقين ؟

قال : وقد ضاق الرجل بى وبحديثى :

— وماذا كنت تفعل لو لم تجد هذا الفراش خاليا ؟

قلت : أصلى على الحصباء ، أو يحتوينى البناء بحره الشديد .

قال : فلتفعل ...

فانصرفت مغيظاً محنقاً بعد أن استنفدت صبرى وحيلتى فى إقناعه ، تتجاذبنى تلك النوازع البشرية التى كنت أرجمها منذ قليل .

ولكنى تغلبت على نوازعى وكظمت غيظى ، وأديت الصلاة فى الصف الأول داخل المسجد ، وأنا أستغفر لنفسى ولصاحبى ما وقع فيه ...

ولقد حرصت على تسجيل هذه القصة ، وأمثالها فى الحج كثير ؛ لأبين إلى أى مدى يأخذ بعض الحجاج بآداب الدين ، وينتفعون بروح الحج وحكمته .

هذا الدين الذى يأمر بالعرف ، ويحض على الايثار ، ويبث روح التعاون . وذلك الحج الذى يمحو ذاتية الفرد ، ويستل شهوات النفوس ، ويجمع القلوب على الحب والألفة ، رغم اختلاف الأجناس والالوان والبيئات واللغات . . .

إن هؤلاء النفر من الحجاج ، وأخشى أن أقول إنهم كثيرون ، يقدمون إلى الحج وهم لايدركون من حكمته وغايته إلا أنه وقوف

وطواف وسعى ودعاء . مناسك يؤدونها جامدة عمياء ، لا تنفذ إلى قلوبهم أسرارها ، ولا تنطبع نفوسهم بآثارها ، ولا تتطهر مشاعرهم مما رسب فيها من عيوب وأقذار ...

وإذا كان من الصائمين نفر ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش ، فإن هؤلاء النفر من الحجاج ليس لهم من حجهم إلا عناء السفر وآلام الغربة ، ومتاعب الحياة المتجردة الشاقة ، وإلا ما يقارفونه فى حجهم هذا من ذنوب وأوزار ...

ولقد قيل إن علامة الحج المبرور ، هى أن يعود الحاج إلى بلده خلقا جديداً ، قد تبدلت حياته ونظرته إلى الحياة ، واتسقت علاقته بربه وبالناس على مثل كريمة طيبة ، ولا عجب بعد ذلك ألا يكون لمثل هذا الحج المبرور جزاء إلا الجنة !

فكيف بأولئك النفر من الحجاج إذا عادوا إلى بلادهم ، واحتوتهم الحياة الصاخبة الضارية ، وهذه حالهم فى منازل الوحى ، ومواطن النبوة ، ومشاعر التجرد والاقبال على الله ...

٦

وفى صباح اليوم الثانى من أيام العيد ذهبنا إلى القصر الملكى فى منى حيث شهدنا عرضاً نموذجياً لوحدات الجيش السعودى . وقد أقيم فى فناء القصر سرادق كبير ، جلس فى صدره الملك سعود — ولى العهد وقتئذ — وإلى جانبيه نخبة من الحجاج يمثلون مختلف البلاد الإسلامية وحوله الأمراء وكبار رجال الدولة .

وبدأ العرض العسكرى فتدفقت وحدات الجيش المختلفة ، راكبة وراجلة ومدرعة ، فكان الملك سعود يقف محيياً هذه الفيالق التى أعدت إعداداً حديثاً ، وزودت بمختلف الأسلحة الخفيفة والثقيلة . وكان المذياع يتحدث عن كل منها حديث التعريف والإشادة . ثم غطت أسماعنا أصوات التهليل والتكبير تنطلق بها حناجر « الإخوان » وهم فى لباسهم البدوى ، وقد غطوا رءوسهم بكوفيات حمراء فوقها عقال أسود أو عمامة بيضاء . . .

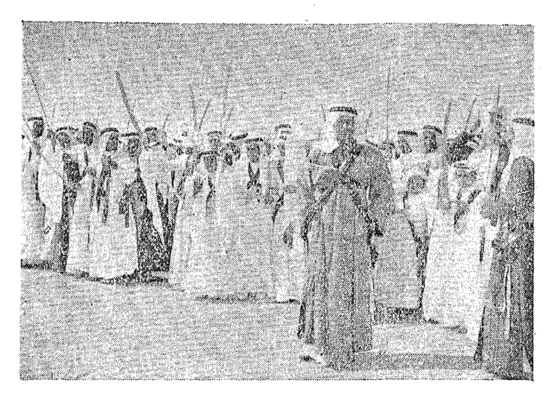
إنهم أهل الجهاد من جنود نجد الأبطال ، تهزهم الحمية الدينية ويهدر فى صفوفهم بأس الصحراء !

وأثار منظر هؤلاء « الاخوان » فى نفسى تلك الصورة الرائعة التى هى أشبه بصور الأساطير ، صورة الملك عبد العزيز وهو يسترد بأربعين رجلا من هؤلاء الاخوان عاصمة آبائه وأجداده ، ثم يقيم ملكا ويؤسس دولة . . . .

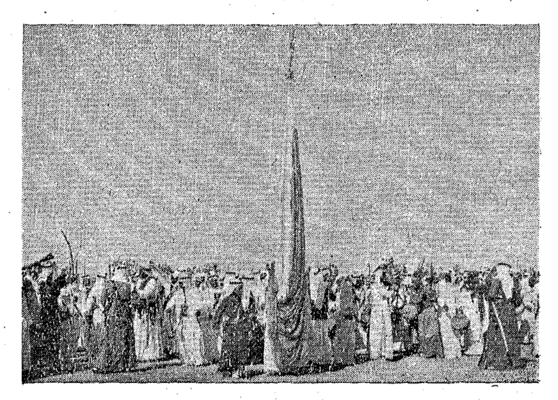
ولأهل نجد فن من فنون العرض العسكرى يعرف باسم « العرضة » كثيرا ما يجتذب إلى ميدانه الملك سعود فيمتشق حسامه وينزل إلى الميدان ، يؤدى حركاته الحربية على دق الطبول وترجيع الأناشيد .







الأمير محمد بن سعود يقود لواء من ألوية أهل الجهاد



الطبول والأعلام فى العرضة النجدية

أحاديث وأسمار

١

... وعدنا من منى إلى مكة قبل الغروب ، وأنا أتمثل فى هذا الموكب المتدفق السيال قول الشاعر القديم :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ
وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا
وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا
وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِىِّ الْأَبَاطِحُ

وقضينا ليلتنا بالفندق نسمر فى ناديه مع طائفة من من أهل المكانة والرأى من مختلف البلاد الإسلامية . . .

وكان الأستاذ عبد الحميد المشهدى الصحفى المصرى ، يحدثنا عن الأزمة السياسية والفتنة الدينية التى كادت تقع بسبب موقف للزعيم الإيرانى آية الله الكاشانى منذ أيام . . .

فقد أبدى الكاشانى للملك سعود رغبته فى أن ينفرد بالوقوف على عرفة يوم السبت ، باعتباره التاسع من ذى الحجة حسب التوقيت المحلى فى إيران . وكان محدداً للوقوف بعرفة يوم الجمعة ، طبقا لرؤية الهلال فى الحجاز !

ولم تكن إيران وحدها هى التى سارت على هذا التوقيت ، فإن مصر كذلك احتفلت بالعيد الأكبر بعد أربع وعشرين ساعة من احتفال المسلمين بهذا العيد فى موسم الحج . . .

على أن اختلاف مواقيت الأهلة فى البلاد الإسلامية ، ينبغى ألا يترتب عليه اختلاف المسلمين على أنفسهم فى هذا الموقف الجامع العظيم !

وأولى البلاد الإسلامية بأن تلتزم مواقيتها ، هى تلك التى تؤدى فيها فريضة الحج ، وإلا كان الأمر فوضى لا ضابط له ، وأصبح المسلمون تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . . . حتى فى مناسك الحج وشعائر التوحيد !

بمثل هذا كان رد الملك سعود على السيد الكاشانى . . .

ولكن الكاشانى لم يقتنع وأصر على طلبه !

وأصر الملك سعود كذلك على رأيه . . .

وهدد الكاشانى بالعودة إلى بلاده هو وأصحابه ، دون أن يؤدوا فريضة الحج . . .

وقال الملك سعود إن أداء هذه الفريضة أمر بين الكاشانى وربه ، فليس له فى أدائها أو الانصراف عنها شأن . . .

ثم عصم الله المسلمين من هذه الفتنة ، ونزل الكاشانى على حكم الله وحكمته ، فوقف هو وأصحابه على عرفات فى ذلك اليوم الجامع العظيم !

٢

ثم تناول الحديث الخطوة الحميدة التى خطاها الملك عبد العزيز ، بإلغاء رسوم الحج ، التى كانت تجبى من الحجاج إلى خزانة الدولة .

قلت : نعم ، فلم تعد الدولة بعد أن فتح الله عليها خزائن الأرض ، فى حاجة إلى فرض هذه الرسوم ، التى كان لها فى تاريخ هذه البلاد منذ القدم ذكر بغيض ، نرجو أن تعفى عليه هذه الخطوة التى خطاها العاهل العربى الكبير . . .

فلقد حدثنا التاريخ أن من أسباب انهيار ملك « جرهم » فى الجاهلية أنها بغت على حجاج البيت ، وأسرفت فى فرض الضرائب عليهم والمكوس . . .

ثم كان من مفاخر قريش على العرب ، أن من بين ما أستأثرت به شرف سقاية الحجيج ، ورفادة الفقراء منهم والمنقطعين . . .

وجاء الإسلام ففرض الزكاة ، وقال الرسول : لايدخل صاحب مكس الجنة !

على أن المكوس عادت تفرض على الحجاج حتى أبطلها صلاح الدين ..

ولكن أشراف مكة ، كانوا لايفتأون يعيدونها كلما أبطلها بعض السلاطين والولاة ، ولم يكفهم ما كانوا يعوضون عنها من الأموال والأرزاق . . .

وكان بعضهم يحتال فى الحصول على هذه المكوس حيلا شتى ، ومن ذلك ماذكره اللواء ابراهيم رفعت (باشا) فى كتابه « مرآة الحرمين » من أن شريف مكة فرض على كل حاج ريالا بدعوى إعانة السكة الحديدية ، وحبس الحجاج عن مغادرة مكة إلا أن يؤدوا هذه الضريبة المفروضة ، فظلوا سبعة أيام لا يؤذن لهم فى الخروج ، حتى أتم المطوفون تحصيل هذه الضريبة من الحجاج جميعا !

على أنهم ما كادوا ينفلتون من هذا الأسر البغيض ، الذى جعل مقامهم بمكة — ذلك البلد الحرام الذى تهوى إليه القلوب وتهفو الأرواح جحيما لا يطاق الصبر عليه ، ولا تطيب النفس إلا بالفرار منه .

ما كادوا ينطلقون من إسارهم هذا حتى كان جنود الشريف يترصدونهم فى مضيق بين جبلين ، فيطالبونهم بأن يؤدوا ريال « الحكومة » عن كل جمل فى القافلة !

واضطربت القوافل بعشرات الألوف من الحجاج فى « شقادفهم » على الجمال ، وأصابهم من الأهوال والأذى أضعاف ما أصابهم فى مكة . ولم يسمح لهم بالمرور من ذلك المضيق الذى أحصروا فيه إلا أن يؤدوا هذا « المكس » لشريف مكة الذى لا يؤمن بما قاله جده ، ولا يعنيه أن يذهب إلى الجنة أو إلى النار !

وإذا كان الناس على دين ملوكهم — كما كان يقال — فإن هذه المكوس لم تعد حقا على الحجاج لشريف مكة وحده ، بل صارت حقا لقبائل البادية ينالونها بالسيف والرصاص ، ويساومون عليها امراء الحج ورؤساء الحكومات . . .

وكان شريف مكة يغضى عن هذه الجرائم ولا يتحرك لها ضميره ، لأنه يستأثر لنفسه بما ترسله مصر وغيرها من الأموال والأرزاق لينفق على هؤلاء البداة ، فهو يطلقهم على فرائسهم من الحجيج ، ويبيح لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، ليشغلهم بذلك عما فى يده من تلك الأموال والأرزاق . . .

ولقد ضج العالم الإسلامى وقتئذ من تلك الفظائع والأهوال . وإنى لأذكر قصيدة شوقى التى صور فيها تلك المآسى الفاجعة ، وتوجه فيها إلى « الخليفة » يستعديه على أولئك الطغاة ، ويناشده ، حماية بيت الله وضيفه من جرائمهم المنكرة ، إذ يقول من قصيدته تلك :

ضَجَّ الحجازُ وضجَّ البيتُ والحَرَمُ
واستصرختْ رَبَّها فى مكةَ الأممُ

تلك الربوعُ التى ريعَ الحجيجُ بها
أللشريف عليهـــا أم لكَ العـــلَمُ ؟

أُهينَ فيهـا ضيوفُ الله واضطُهِدُوا
إنْ أنتَ لم تنتقمْ فاللهُ ينتقمُ !

أفى الضُّحى وعيونُ الجنـــد ناظرةٌ
تُسبَى النساءُ ويؤذى الأهلُ والحشمُ ؟

ويُسفك الدمُ فى أرضٍ مقدسةٍ

وتُستباحُ بها الأعراضُ والحُرَمُ ...

« نيرون » إن قيسَ فى بابِ الطغاة به

مبالغٌ فيـــه و « الحجاجُ » متهمُ !

وعدت من ذلك الأمس الغابر إلى حاضرنا الذى نحن فيه فتنفست الصعداء وأنا أقول : ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم ، وما أسعد المملكة العربية السعودية بما تنعم به من أمن وسلام ، أصبح فى العالمين مضرب الأمثال ...

صور وتقاليد ...

١

وتلقيت دعوة من الملك سعود لتناول الغداء في القصر الملكي في اليوم التالي ، ولكن موعد الدعوة استلفت نظري وأثار حيرتي . . .

إنه الساعة السادسة .

أتكون هذه الدعوة لتناول طعام العشاء ؟

أم لعلها دعوة لتناولي الشاي ؟

وكان بجانبي الأستاذ عبدالسلام غالي مدير إدارة الضيافة ، فاستنجدت به ليفسر لي هذه المشكلة .

ولكن الأستاذ غالي قهقه ضاحكا وهو يقول :

— كم ساعتك الآن ؟

قلت : الرابعة مساء .

قال : لا ، إنها العاشرة !

قلت : كيف ؟

قال : انظر إلى ساعة الفندق .

ونظرت فإذا هي العاشرة ... فقلت : لعلها مختلة .

قال : أقسم أن لا .

قلت : عجباً . . . أو لا ترى الشمس على جبال مكة أيها الصديق ؟

قال : نعم وإن الشمس لن تغرب هنا إلا بعد تمام الساعة الثانية عشرة

فضحكت به وبدعابته هذه ونحن فى موقف الجد .

قال : صدقنى ، فليس فى الأمر دعابة ، ولكنه الحق كل الحق .

قلت : إذن هى إحدى علامات الساعة .

قال : نعم ، ولكنها الساعة بتوقيتها العربى !

وبدأت أفيق من دهشتى وحيرتى ، ثم إذا بى أقهقه ضاحكا كما كان يفعل صديقى الأستاذ عبد السلام غالى ، وكنت أنكر عليه ذلك منذ لحظات . . .

وأدرت عقارب الساعة أضبطها على التوقيت العربى ، الذى تسير عليه جميع الساعات فى المملكة العربية السعودية وترتبط بها جميع الأعمال والمواعيد .

وفى الموعد المحدد كنا فى القصر الملكى ، ندخل على الملك سعود وقد اتخذ مجلسه فى صدر قاعة فسيحة ، نضدت بالأبسطة الفاخرة والمقاعد الوثيرة ، نخف " لاستقبالنا فى بشاشة وترحاب ، وقد وقف عن يمينه وشماله الأمراء وزعماء العشائر ، وجلسنا دقائق ثم حانت منى التفاتة نحو الباب فإذا صفان من الحرس الملكى قد جلسوا على الأبسطة فى ملابسهم العربية وأسلحتهم اللامعة .

ودعانا الملك للغداء فانتقلنا إلى قاعة الطعام وقد صفت بها الموائد على الطريقة الغربية ، يطغى عليها الكرم العربى ، ورأيت الملك سعود

يبطىء فى تناول طعامه حتى لا يعجل ضيوفه ، ثم غادر المائدة فتقدم وغسل يديه وغسلنا من أباريق صفت وراء المائدة ، ثم استقبلنا عند الباب رجل يحمل قارورة من العطر فصب على أيدينا من عطرها الفواح .

وعدنا إلى مجلسنا ذاك ، فأقبل الساقى متوشحاً سيفاً وهو يحمل فى يده إبريقا وفى الأخرى مجموعة من الفناجين بعضها فوق بعض ، وبدأ بالملك فصب فى فنجانه قطرات ، ثم دار على الجالسين .

إنها القهوة العربية تصنع بطريقة خاصة من مزاج البن وحب الهان وبعض أنواع العطارة فيبدو لونها كالزيت الرائق ، ولهذه القطرات القليلة تأثير ملء فنجان أو أكثر من القهوة التى تصنع على الطريقة المصرية .

وقد تلقيت الدرس الأول فى تقاليد القهوة العربية على يد صديق الأستاذ جواد ذكرى الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بالقاهرة فى ذلك الوقت ، يوم قدم لى الساقى قطرات منها فى فنجان فاستطبت طعمها ورائحتها ثم مددت يدى إليه بالفنجان فإذا به يصب قطرات أخرى . تكرر منى ذلك وتكرر منه عدة مرات حتى بدأت أشعر بالاكتفاء ، ولكنه ظل يزيدنى كلما رددت إليه الفنجان ، وأنا أهمهم بأنى اكتفيت فلا يقف عند حد .

وتلفت فإذا صديق الأستاذ جواد يبتسم وهو يشهد هذه الحلقة المفرغة تطوقنى فلا أستطيع منها الخلاص !

ثم قال : سيظل يزيدك مالم تطلب منه أن يكف .

قلت : قد فعلت ، ولكن كرم الساقى لا حد له ...

قال : وماذا فعلت ؟

قلت : أفهمته انى اكتفيت .

قال : إنك لم تفعل . . . إن علامة الاكتفاء هى أن تهز الفنجان بين أصابعك وأنت ترده إليه .

ووعيت هذا الدرس الأول ، فهززت الفنجان بين أصابعى وأنا أرده إلى الساقى فى مجلس الملك سعود .

وأقبل شاب يحمل بين يديه أوراقاً ، وتقدم لحيا الملك ثم جلس أمامه على البساط ، واستأذن فأذن له . . .

وأخذ الشاب يتلو من هذه الأوراق التى بين يديه .

إنه الموظف المختص بأنباء الإذاعة ، جاء يتلو على الملك نشرة الأخبار.

٢

قال صديقى الأستاذ عبد الحميد السعداوى ، من موظفى الجامعة العربية :

ـــ هلم بنا نشهد لونا آخر من ألوان الحياة العربية ...

إنهم جماعة من أحرار الشام ، فروا من القصاص السياسى ، ولاذوا بالبلد الحرام !!

وفى دار متواضعة بظاهر مكة ،كان يستقبلنا « أبو صياح » وصحبه وقد أعدوا لنا طعام الغداء على الطريقة البدوية ، فجلسنا أرضا على البساط وجىء لنا بوعاء كبير مملوء بالثريد المخلوط بأنواع مختلفة من الخضر واللحم والأرز .

ومددت يدى أتناول لقمة ، فاذا الطعام ملتهب لا تقوى اليد على لمسه ، بله تناوله فى الأفواه !!

ورأيت أبا صياح وصحبه وبعض المدعوين يأكلون فى طمأنينة وشهية ، وكأن ما يتناولونه قطع من الحلوى المثلجة ، وليس طعاما يشوى اليد والحلقوم . . .

وتبادلنا النظرات فى تساؤل واشفاق . وضحك الشيخ حسونة العالم السودانى وهو يروى لنا قصة أشعب فى صباه قال :

كان أشعب غلاما حدثا حين جلس الى قصعة كهذه من الثريد الملتهب ، بين جماعة من أهله الكبار كانوا يأكلون فى سوغ ويسر ، وهو لا يطيق أن تمتد يده الى الطعام . . .

وبكى أشعب فى حرقة وألم . وقالوا : ما يبكيك ؟

قال : إن الطعام ملتهب . . .

قالوا : ولماذا لا تنتظر حتى يبرد ؟

قال : ولكنكم لا تنتظرون !

. . . ثم قدمت لنا أطباق « الحبحب » وهو البطيخ ، وألوان من الحلوى الشامية طيبة الصنع شهية المذاق .

وأراد القوم أن يزيدوا فى تكريمنا ، فدعونا لنشهد حلقة المبارزة على الطريقة العربية . . .

وتقدم أبو صياح وصاحبه فحمل كل منهما سيفه ودرعه ، وأخذ

يدور فى الحلبة بخطوات فيها بخترة وخيلاء ! !

وأرجعتنى هذه الصورة الى بعض ما قرأت من تقاليد البطولة العربية فى صدر الاسلام . . .

هنالك فى « أحد » حيث كان محمد يخطب فى المسلمين ويحضهم على القتال ، ويعدهم النصر مع الصبر وحسن البلاء ، ثم هاهو ذا يمد يده بسيف فيقول :

— من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فيقوم اليه رجال فيمسكه عنهم . ثم يتقدم اليه « أبو دجانة » فيقول :

— وما حقه يارسول الله ؟

قال : أن تضرب به العدو حتى ينحنى ! !

وكان أبو دجانة رجل شجاعة وبأس ، له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل قتال الموت . . .

فأخذ السيف من يد الرسول ، واعتصب بعصابته الحمراء ، ثم جعل يتبختر بين الصفين على عادته اذا يختال عند الحرب . . .

ونظر اليه محمد فى مشيته هذه فقال :

— إنها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن !

. . كنت أقرأ هذه القصة فى كتب التاريخ ، فلا أكاد أتمثل هذه الصورة للخيلاء فى موطن الحرب ، حتى شهدت أبا صياح وصاحبه فى حلبة المبارزة ، يدوران فى الحلبة بخطوات فيها بخترة وخيلاء . . .

وقلت : هذه المشية التى يبغضها الله الا فى مواطن القتال !

فى ظلال الحرم ...

١

قال صاحبي : هل لك فى زيارة جوف الكعبة ؟

قلت : حبذا الأمر . . .

ووقف صاحبي يحدثني عن تاريخ الكعبة ، ريثما يهيء لنا السادن فرصة الدخول .

هذا البناء القائم الآن على صورته هذه ، ليس هو الأثر الذى تركه إبراهيم منذ آلاف السنين ، فقد تعاورته الأحداث وتداولته الأحقاب بالهدم والبناء . ولعل أصح ما يروى فى ذلك ما كان قبيل البعثة المحمدية ، حينما طغى السيل على الكعبة فأوهى بنيانها وصدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها من جديد .

على أن قريشاً أنقصت من مساحة الكعبة حينما أعادت بناءها . ولذلك قال الرسول لعائشة فيما بعد :

ـــ لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام ، لهدمت الكعبة فألزقتها

بالأرض ، وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر ، فإن قريشاً استقصرتها حينما بنت الكعبة ».

ثم كانت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان ، وانتقاض عبد الله ابن الزبير على بنى أمية ، وهو يؤجج الثورة عليهم فى مكة . فأرسل يزيد بن معاوية جيشاً لاخضاعه ، واعتصم ابن الزبير ورجاله بالحرم ، وهنا يسجل التاريخ صورة إلى جانب صورة ...

أما الأولى فهى صورة محمد يوم فتح مكة ، ومكنه الله من رقاب قريش ، وعلى رأسهم أبو سفيان جد يزيد هذا ، إذ بعث الرسول من ينادى فيهم :

— من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . وأما الصورة الأخرى ، فهى صورة جيش يزيد هذا الذى جاء يغزو مكة ، فلما احتمى عبد الله بن الزبير ورجاله بحمى الله ، أخذت المجانيق ترمى هذا الحمى ومن يلوذون به بآلاف القذائف ، حتى احترقت الكعبة وتصدع بناؤها . على أن رب البيت لم يمهل هذا الطاغية ، كما لم يمهل من قبله أصحاب الفيل ، فلم تلبث مكة أن جاءها منعاه !

وعاد الجيش الأموى إلى الشام ، وعادت مكة تتطلع إلى البيت العتيق فى حسرة وإشفاق ، وهو فى حالته تلك من التصدع والاحتراق حتى ليوشك أن تتناثر حجارته من وقع الحمام !!

ووجدها ابن الزبير فرصة لإعادة بناء الكعبة على أساس إبراهيم ،

وبالصورة التى همّ الرسول أن تكون عليها لولا أن خشى الفتنة يومذاك لقرب عهد الناس بالجاهلية ، وحداثة عهدهم بالإسلام .

على أن هذا البناء الجديد الذى أقامه ابن الزبير لم يلبث إلا عشر سنوات ثم تجدد الصراع بين بنى أمية وعبدالله بن الزبير ، وحاصر الحجاج ابن الزبير فى مكة وقتله ، ثم نقص مازاده ابن الزبير فى بناء الكعبة وسد بابها الغربى ، وأعادها على الصورة التى كانت عليها فى الجاهلية . . .

وظل بناء الكعبة هذا مشكلة من المشكلات السياسية والدينية طوال العهد الأموى ومطلع العهد العباسى : هل يبقى البناء على صورته هذه التى ردها الحجاج إلى ما كانت عليه فى الجاهلية ، أم يعاد إلى الصورة التى ردها ابن الزبير إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم ؟ !

واستشار هارون الرشيد الإمام مالكا فى أن يعيدها إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم . ولكن الإمام مالكا نظر إلى الأمر نظرة أبعد مما يتصل بالتحقيق التاريخى لطراز الكعبة ، إنه نظر إلى حرمة البيت العتيق وقداسته ، وأراد أن يوصد ذلك الباب الذى تنفذ منه أهواء السياسة للعبث بهذه الحرمة وتلك القداسة . فقال لهارون الرشيد :

ـــ يا أمير المؤمنين ، لاتجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لايشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها ! !

وظلت الكعبة على حالها تلك ألف عام . . .

ثم عدا عليها السيل فصدع بنيانها . وهب العالم الإسلامى لإعادة

عمارتها قوية مدعمة ، مع المحافظة على كثير من أحجارها السليمة ، واقتضى ذلك ترميم الحجر الأسود وتقوية أجزائه فى أطار من الفضة . وكان نصيب مصر فى هذه العمارة هو النصيب الأوفى ، إذ قدمت عددا كبيرا من المهندسين والصناع ، وأمدتهم بكل ماتحتاج إليه العمارة من مواد ، وأنفقت فى ذلك نحو ستة عشر ألفا من الجنيهات . . .

ذلك هو بناء الكعبة القائم اليوم ! !

وقدم إلينا سادن الكعبة من آل الشيبى ، وهم بطن من قريش ، ظلوا يتوارثون السدانة من عهد الجاهلية إلى يومنا هذا . وكانت مفاتيح الكعبة عندما فتح الرسول مكة مع عثمان بن طلحة ، فأخذها منه الرسول وأراد أن يحجزها عنه ، فنزل عليه قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » .

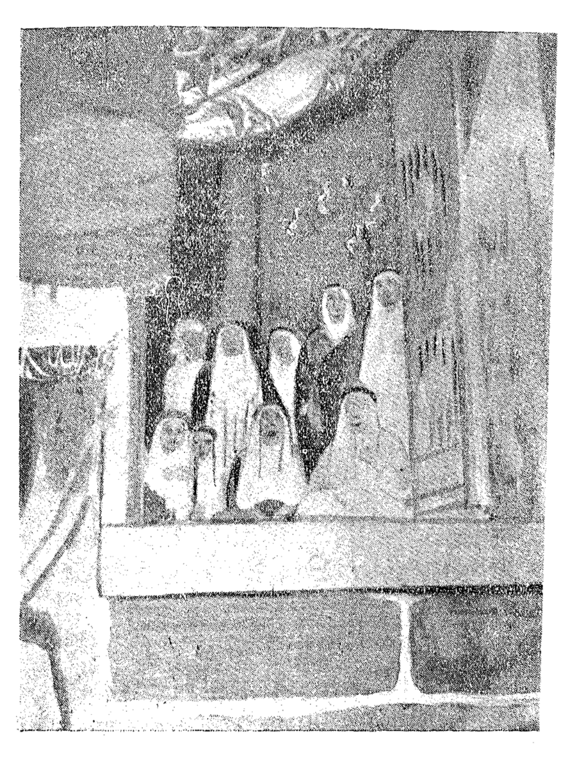
فردها الرسول إلى عثمان بن طلحة قائلا :

— ها كم خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم . . .

وصعدنا على مرقاة حتى بلغنا باب الكعبة ، وهو على ارتفاع غير قليل من الأرض . وقد أمر بصنع الباب الحالى الملك عبدالعزيز آل سعود ، وكان الباب الذى قبله مهدى للكعبة من السلطان مراد خان قبل ذلك التاريخ بنحو ١٢٥ سنة .

وفتح الشيبى الباب . . .

الله أكبر ، الله أكبر ! ! !



. . . وانفتح باب الكعبة !

لقد كنت منذ لحظات أملأ ناظرى وخاطرى بمشاهدة الكعبة ، فى بنائها الرهيب وأستارها السوداء ، وأطوف حولها فى خشوع وتجرد وابتهال ، وأطويها فى مشاعرى بكل ماتفيض به روعة الحاضر وذكريات الماضى البعيد . وهأنذا الآن أخطو إلى جوف الكعبة فتطوينى هى بين حناياها ، وإذا بروحى تمتد وقلبى يكبر حتى يملأ جوف الكعبة خافقاً بالتسبيح والدعاء ، وإذ بى أحس كأنى جزء حى فى ذلك البناء الخالد ، هو بمثابة القلب فى كائن ينبض بالحياة . . .

وصرفنى هذا الشعور لحظات لا أدرى مداها عن أن أتبين معالم الكعبة أو أصغى إلى مايتحدث به الدليل . . .

ثم أفقت من هذا الاستغراق الروحى ، وتقدمت إلى الجدار الذى يقابل الباب ، ووقفت تجاه علامتين إزاءه أقيم الصلاة ، إنه المكان الذى كان يصلى فيه محمد عليه الصلاة والسلام ! !

والكعبة عبارة عن بهو مربع الأضلاع ، مشطور الزاوية الشمالية إلى يمين الداخل ، وبهـــذه الشطرة باب صغير يؤدى إلى سلم يصل إلى السطح . و يعتمد سقفها على أعمدة ثلاثة من خشب العود ، امتنعت على البلى من عهد عبد الله بن الزبير حتى الآن ، إلا ما أصاب قواعدها من التآكل فى العهد الأخير فشدت هذه القواعد بأطواق من الخشب لدعمها وحمايتها . وتكسو جدران الكعبة أستار من الحرير مطرزة بالآيات القرآنية وغيرها . وقد تنافس الملوك والأثرياء فى تقديم الهدايا النفيسة وتزيين جوف الكعبة بالقناديل الذهبية والستائر الثمينة فى مختلف العصور . ولكن هذه النفائس كانت عرضة للنهب والسلب . وأشهر ما يذكره

التاريخ من ذلك ، حين أغار القرامطة على مكة سنة ٣١٧هـ فجردوا الكعبة مما فى خزانتها من الجواهر ، وانتزعوا ما كان بها من صفائح الذهب ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه وعادوا به إلى « هَجَر » وهى قرية من أعمال البحرين كان قد بنى بها أبو طاهر القرمطى بيتاً أراد أن يصرف المسلمين عن الكعبة بالحج إليه . . .

قيل : وقد سار أبو طاهر هذا فى زحفه على مكة فى عسكر كثيف ، وكان المسلمون وقتئذ فى موسم الحج ، فبغتهم ورجاله بالسيوف تحتز أعناقهم وتسفك دماءهم فى الشهر الحرام والبلد الحرام ، حتى صرع منهم ثلاثين ألفاً أو يزيدون !!

على أن القرامطة فشلوا فى صرف الناس عن قبلتهم هذه ، إلى تلك القبلة التى أقاموها فى « هجر » واضطروا فيما بعد إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة ، وظل البيت — كما كان من عهد ابراهيم — مثابة للناس وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود . . .

٣

وعادت بى خواطرى إلى الماضى البعيد . . .

إلى ذلك اليوم الذى عاد فيه محمد من دار هجرته عزيز الجانب منصور اللواء ، وقد أظهره الله على قريش ، فدخل مكة فى عشرة آلاف تهدر بهم شعاب مكة وتخفق بهتافهم الأجواء . . .

إنه يقف على باب الكعبة هذا ، وقد مكنه الله من رقاب أعدائه ،

وهم فزعون واجفون ، تتطلع أبصارهم وتتعلق قلوبهم بالكلمة ينطق بها فمه ، فيتقرر بها مصيرهم الرهيب !!

ولكن محمدا لا يجد أبلغ فى شكر الله على هذه النعمة التى أفاءها عليه إلا أن يقول قولته الخالدة :

— يامعشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا فى ضراعة وندم ورجاء :

— خيراً . . أخ كريم وابن أخ كريم !

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم ها هو ذا يدخل الكعبة ، فإذا جدرانها مملوءة بالصور التى تمثل عقائد الجاهلية ، فيأمر بها فتمحى وتطمس معالمها ، ثم يطهر البيت من الأصنام وكانت عدتها ثلثمائة وستين .

وبذلك عادت الكعبة بيتاً للتوحيد كما أقامها إبراهيم ، وكما أرادها الله هدى للعالمين !

وطابت أنفس الأنصار بهذا الفتح المبين ، أكثر مما طابت أنفس المهاجرين الذين كانوا مستضعفين فى الأرض يتخطفهم الموت من كل مكان ، ثم أظهرهم الله على أعدائهم وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

طابت أنفس الأنصار أن قام على أيديهم بناء هذا الدين وحمايته وغلبته . ولكن خالط شعورهم هذا ما رأوه من استسلام قريش ، وعفو محمد الشامل عن جرائمهم ، ثم دخولهم فى دين الله أفواجاً ، واغتباط

الرسول بإســلام قـومه ، وقال بعضهم لبعض :

— أترون رسول الله اذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟

وبلغت هذه المقالة محمدا فقال للأنصار :

— معاذ الله ... المحيا محياكم والممات مماتـكم .. ولم يلبث بمـكة إلا خمسة عشر يوما عفى فيها على آثار الجاهلية ، وأقام دعائم التوحيد ، ثم انصرف عائدأ إلى مهجره الحبيب ...

٤

قلت لصديق :

— فلنتابع تحقيقنا التاريخى لمعالم الحرم ، وزيارة بعض المشاهد والآثار ... ونظرت إلى أستار الـكعبة السوداء ، فبدا لى أن أسأل :

— لماذا اتخذت هذه الستائر ذلك اللون الأسود ، وإلى أى عهد يرجع اتخاذ هذا الشعار ؟

قال : أما كسوة الـكعبة فترجع إلى عهود بعيدة ، وقد قيل إن أول من كساها أحد ملوك « حمير » فى أواخر القرن الثالث قبل الهجرة وفى ذلك يقول :

فـكَسَوْنا البيتَ الذى حرَّم اللهُ مُـلاءً مُـمْتعضَّباً وبُروداً .

ثم ظلت الـكعبة تـكسى بالجلد والقباطى — وهو قماش مصرى — وكساها الرسول ثياباً يمانية ، وكانت الأستار يوضع بعضها فوق بعض

حتى أثقلت بناء الكعبة . فأمر الخليفة المهدى العباسى بالاقتصار على كسوة واحدة من الحرير الأسود ، وكان السواد شعار العباسيين ...

ومن الموافقات اللطيفة ، أن هذه الستائر كانت تصنع فى مدينة مصرية اسمها « تنيس » بالقرب من دمياط ، وفى بعض البلاد المصرية الأخرى ، إلى أواخر عهد العباسيين . ثم استأثرت مصر فيما بعد بالأمر كله ، فصارت هى التى تتولى كسوة الكعبة على نفقتها ومن صنع أبنائها حتى اليوم ...

قال صاحبي :

أما المسجد الحرام فلم يكن على عهد الرسول يتعدى حدود المطاف ، وهو الفضاء المرصوف الذى يحيط بالكعبة . وكانت تحيط به الدور ، ومن بينها دار الندوة التى كانت برلمان قريش فى الجاهلية ، والتى شهدت أخطر اجتماع بعد البعثة المحمدية ...

إن قريشا قد هالها أن ينفذ محمد من ذلك النطاق الحديدى الذى ضربوه عليه وعلى دعوته ، فيتصل بأهل يثرب ثم يبايعوه على الهجرة اليهم ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأولادهم .

إن هذا الأسد الحبيس يوشك أن ينطلق من إساره ، ثم لا يلبث أن يرتد اليهم وقد انتفضت الجزيرة العربية عن آسادها تنساب بهم شعاب مكة وهم من ورائه يزأرون ويثأرون .

واجتمع فى دار الندوة يومئذ نحو مائة من زعمائهم ، يديرون الرأى

فيما ينبغي أن يكون للقضاء على هذه الفتنة قبل أن يستفحل خطرها .

فقال أحدهم :

احبسوا محمداً فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله ...

فقيل : ماهذا برأى ، والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ماهذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره فتشاوروا عليه ...

فقال آخر : نخرج محمداً من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فلا نبالى أين ذهب !!

قيل : لا والله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا إلى حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به . والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا آخر غير هذا ...

فقال ثالث : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً نسيباً وسيطاً فينا ،

ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالدية بلا قصاص !!

وأقر المؤتمرون هذا الرأى الأخير ، وأعدوا له عدته ...

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»

معالم وذكريات ...

١

قلت لصاحبي :

فلندع حديث الحرم وعمارته ، ولنمض مع القصة إلى معالمها الأخرى ...

لندع زمزم ومقام إبراهيم ، وحجر إسماعيل والحطيم ، وما أحدثه الخلفاء والملوك والولاة فى عمارة المسجد الحرام من توسعة وتجديد ، حتى صار إلى ماهو عليه الآن ، ولنعش فى جو تلك القصة الإنسانية الخالدة ، فما أحب أن ننفلت من هذا الجو التاريخى الرائع إلى سواه ، قبل أن تبلغ مشاعرنا مداه ! !

قال : إذن ، إلى جبل ثور ...

...وأوحى الله إلى محمد بنبأ هذه المؤامرة الكبرى ، وأذن له فى الفرار بحياته ودينه ، وأسر محمد بالنبأ إلى صديقه أبى بكر ، فانطلقا تحت جنح الظلام فى الطريق إلى اليمن ... تضليلا للطلب ، فى الليلة التى حددتها قريش لتنفيذ المؤامرة ! !

ووقف محمد يلقى على مكة نظرة الوداع ، وهو مفطور القلب موجع النفس وقال :

— والله إنك لأحب أرض الله إلىَّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله . ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت منك ! !

وحملتنا السيارة إلى جبل ثور ، جنوبى مكة . وأغفت عينى حين استيقظت مشاعرى فإذا بى ألمح شبحين قد تدثرا بالظلام ، يتخلف أحدهما فيسير من وراء مرة ، ثم يسرع فيسير من أمام مرة أخرى ...

ثم إذا بى أسمع همس الشبح الآخر وهو يسأل صاحبه عن أمره ذاك ، فيقول له :

— يا رسول الله .. أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ! !

فيشرق وجه الرسول بابتسامة جميلة ، ثم يقول :

— يا أبا بكر ، لو كان شىء أحببت أم يكون بك دونى ؟

فيجيبه أبو بكر فى حرارة دافقة :

— نعم ، والذى بعثك بالحق ! !

... وبلغنا قمة الجبل بعد جهد ، ثم وقفنا أمام الغار الذى احتضن الدعوة الإسلامية وهى وليد طريد ، وحمى صاحب الدعوة وصفيه من كيد المشركين ...



ثم عادت بي مشاعري إلى أعماق الماضي البعيد . . .

وانبثقت من جوف الغار المظلم أضواء ذلك الماضي ، فإذا أبو بكر يسبق محمداً في الدخول إلى الغار ، فيستبرئه مما عساه أن يكون فيه . ثم ها هما يصليان في جوف الغار شكراً لله الذي هيأ لهما هذا الحمى الأمين ...

وطلعت شمس ذلك اليوم فكانت أظلم على قريش من قطع الليل الأسود ! !

إن محمداً قد فر من مكة ، وإن هـــذا الذي كان ينام على فراشه ويتربصون به الموت ، ليس إلا عليا بن أبي طالب ! !

إذن فقد أفلت الأسد الحبيس من إساره ، ولم يبق إلا أن يرتد إليهم بعد قليل وقد انتفضت الجزيرة العربية عن آسادها ، تنساب بهم شعاب مكة وهم من ورائه يزأرون ويثأرون ! !

وجن جنون القوم ، فانطلقت خيلهم تركض فى كل سبيل ، وتعدو فى كل اتجاه . وانطلق قصاصو الأثر يستنطقون ذرات الرمال ومسارب الجبال ، وبلغ بعض فتيانهم جبل ثور ، ثم خطر لهم أن يصعدوا فيه فينظروا لعل محمداً وصاحبه قد أويا إلى غاره . . .

وأحس الرجلان وقع أقدام وهمهمة حديث تقترب منهما رويداً رويداً ، ووجم أبو بكر لحظات ، وكان كلما اقترب الصوت ألصق جسمه بمحمد يستره ويحميه وقد استبد به الحزن حتى تندت عيناه بالدموع . . .

ووقف أحد الفتيان على باب الغار يجيل بصره فلا يرى شيئاً . . .

وهمس أبو بكر فى أذن صاحبه يقول :

ــ لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا ! !

فيجيبه محمد فى طمأنينة وعزاء :

ــ يا أبا بكر ، ما ظنك فى رجلين الله ثالثهما . . . لا تحزن إن الله معنا !

« إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

٢

ثم قفلنا راجعين إلى مكة . وتواعدت مع صاحبي على أن نقصد فى صباح اليوم التالى لزيارة غار حراء . . :

وقال صاحبي وهو يودعنى :

أخشى أن تكون قد أصابتك عدوى كثير من الحجاج، الذين يعتبرون زيارة هذه المشاهد من مناسك الحج ، ويسرفون فيما يذهبون من ذلك أيما إسراف . . .

قلت: معاذ الله أن أكون من الجاهلين !! بل إنى فى نظرتى إلى هذه المشاهد أكاد أن أكون من غلاة « الإخوان » من أهل نجد ، فلم تكن هذه المشاهد مزارا فى عهد الرسول وأصحابه . وإنى لا أنكر على أولئك الإخوان كثيراً مما فعلوا لمحاربة العقائد الفاسدة التى طغت على كثير من المسلمين فى عصور الجهل والانحلال ، والتى رسبت فى أعماقهم من آثار الوثنيات الأولى فى مصر وفارس والهند وغيرها من البلاد ، وآثار السموم الاسرائيلية التى سرت فى كثير من كتب الدين ، وما حرص عليه كثير من الولاة لتوطيد سلطانهم وتوهين القوى الواعية الرشيدة فى شعوبهم ، من طريق اشاعة الخرافات والأساطير ، واحتضان المذاهب الفاسدة والشعائر الباطلة ...

وإنى لأومن أن الوثنية والانحراف عن التفكير السليم فى ملكوت السموات والأرض ، إنما تصيب العقول ـ أول ما تصيب ـ عن طريق الترخص فى تقدير قيم أمثال هذه المشاهد ، والانسياق فى تيار ما تخلعه على العاكفين عليها من تصورات تجعلها آخر الأمر موضع العبادة

والتقديس ، وهل كانت دعوى العرب فى الجاهلية عن أصنامهم إلا أن قالوا :

ـ « مَا نَعبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى » ؟

وهل يقول بغير ذلك — مع اختلاف فى العبارة ـ أولئك القبوريون الذين تعج بهم الأضرحة والمشاهد ، ولو كانوا مخلصين حقيقة لمن تضمهم هذه القبور من الشهداء والصالحين عن بصيرة وإيمان، لابتغوا إلى الله الوسيلة بمثل ما كان عليه أولئك الشهداء والصالحون ، من حفاظ على دين الله وجهاد فى سبيله ؟

ثم ألا ترى معى فى هذا المبدأ الخطير ، مبدأ الوساطة بين الانسان وربه، أساساً من أسس الفساد الدينى والسياسى ، الذى استغله ـ وما زال يستغله ـ من يسمون أنفسهم رجال الدين ، وكثير من الحكام ، فى القضاء على الحرية الذاتية والكرامة البشرية للإنسان، تحقيقا لمطامعهم الخاصة ، وتمكيناً لسلطانهم الزائف ؟

أما أنا ياصديقى ، فأعوذ بالله أن تصيبنى هذه الفتنة ، وأبرأ إليه من أن أتصور هذه المشاهد والمعالم على غير صورتها التى فطرها الله عليها . وما كان لى أن أقصدها التماسا للبركة بالتمسح والمناجاة ، وإنما أقصدها لأستنطقها ما انطوت عليه من عبر التاريخ ، كما أقرأ ذلك فى صحيفة أو أتدبره فى كتاب ! !

وأقلتنا السيارة فجر اليوم التالى فى الطريق الذاهب إلى منى . وهنالك

على مسيرة بضعة كيلو مترات ، يقوم جبل النور شاهقاً منفرداً بين الجبال ، يروى للانسانية منذ أربعة عشر قرنا الى أن تقوم الساعة ، تلك الآية الخالدة التى انبثقت أنوارها فى قلب محمد بن عبد الله ، وهو يتحنث فى غار حراء ! !

ورقينا الجبل حتى بلغنا قمته ، ثم انحدرنا قرابة خمسين متراً فإذا نحن أمام الغار ، حيث كان محمد يقضى الليالى ذوات العدد فى رياضة روحية ، يستغرقه التأمل فى ملكوت السموات ؛ والتطهر من نوازع البشرية وهموم الحياة ، إذ كانت العناية الإلهية تعده لتلقى الرسالة الكبرى التى أضاء بنورها الخافقان .

وأشهد أنى فى مقامى هذا من غار حراء ، قد أحسست تبدلا فى مشاعرى وتحولا فى نظرتى إلى الحياة ، ولم يمض على وقوفى به إلا لحظات قصار ، فلا عجب أن يكون محمد — وهو صفوة الله من خلقه — قد أصاب فى مقامه ذاك من مراتب القرب والجلاء ، ما جعله قبيل مبعثه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

واستغرقنى التأمل والاعتبار فاذا أنا روح يحوم حول قمة الجبل ثم يحلق على باب الغار ، وإذا أضواء ساطعة تنبعث من جوف الغار فتأخذ بالقلوب والأبصار ، وإذا بى أكاد أسمع صوتاً رقيقاً يقول : اقرأ . . .

فيجاوبه صوت آخر فيه دهشة وصدق : ما أنا بقارئ !



وأكاد أسمع صوت غطة شديدة بين جسمين، يتكرر بعدها الأمر والجواب. حدث ذلك ثلاث مرات، كأن قد سمعت بعدها ذلك الصوت الرفيق يقول:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ؛ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»

٣

قال صاحبي :

ـــ حسبك . . والآن إلى أين تريد أن تذهب ؟

قلت : إلى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد . . تلك الزوج الرءوم التي انصرف إليها محمد وقد أخذته حمى الوحي ، فاذا هو يرجف من خشية وإشفاق ، ثم يدخل عليها وهو يقول :

ـــ زملوني . . . زملوني !

فتتلقاه حانية مواسية مشجعة .

فيقول : لقد خشيت على نفسي .

فتقول : كلا . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتكرم الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

رضي الله عنك أم المؤمنين . ولله قلبك الكبير وما أفاض على رسوله من بر وعزم وإيمان ، وما وهب البشرية من مآثر خالدة على وجه الزمان .

قال صاحبي : إذن إلى مقبرة المعلاة .

وتقع هذه المقبرة عند مدخل مكة من جهة « الحجون » ذلك الجبل الذي ذكره عمرو بن الحارث الجرهمي في قصيدته المشهورة التي قالها وقد وقف يبكي مجد قومه « جرهم » إذ كانت لهم السيادة على البلد الحرام فأدالتهم عنها « خزاعة » وأجلتهم إلى اليمن .

وقف عمرو الجرهمي يقول من قصيدته ، وقد حيل بينه وبين دخول مكة :

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ سَكْبٌ مُبَادِرٌ

وَقَدْ شَرِقَتْ بِالدَّمْعِ مِنْهَا الْمَحَاجِرُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا

أَنِيسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

فَقُلْتُ لَهَا ، وَالْقَلْبُ مِنِّي كَأَنَّمَا

يُلَجْلِجُهُ بَيْنَ الْجَنَاحَيْنِ طَائِرُ

بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا

صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

وكانت مقبرة المعلاة وما تزال ، مثوى لموتى أهل مكة منذ الجاهلية حتى الآن . فهذا قبر عبد المطلب جد الرسول ، وهذا قبر أبي طالب عمه ، الذى حماه ونصره حين أفتقد الحماية والنصر ، وكأنى أسمعه فى دفاعه عن محمد ، ومناشدته قومه — وهو فى أخريات أيامه — أن يؤيدوه ويتبعوا النور الذى أنزل معه ، وهو يقول :

« يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب . فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع . وأعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا الا أحرزتموه ، ولا شرفا الا

أدركتموه . فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليكم الوسيلة .
وانى أوصيكم بمحمد خيرا ، فانه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب .
وقد جاءنا بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن . وأيم الله
كأنى أنظر الى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين من
الناس ؛قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم
غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها
خرابا ، وضعفاؤها أربابا . وإذا بأعظمهم عليه أحوجهم اليه ، وأبعدهم
منه أحظاهم عنده . قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ،
وأعطته قيادها . . .

يامعشر قريش : كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة . والله لايسلك أحد
سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ،
ولأجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ، ولدفعت عنه الدواهى » .

لقد كان أبو طالب فى مقاله هذا ـ بعد ما أسلف من مواقف
خالدة ـ يصدر عن مشاعر عدة : عن إيمانه العميق بصدق محمد ، وغيرته
الأبوية على ابن أخيه ، وحرصه الشديد على ألا يفوت قومه شرف
تأييد هذه الدعوة . . .

أى قلب كبير هذا الذى يجمع كل هذه المعانى القوية ، وأى نظر
ثاقب هذا الذى نظر من وراء الغيب الى مستقبل محمد والاسلام ! !

* * *

. . . وهذا قبر خديجة بنت خويلد ، التى فقدها الرسول وفقد عمه
أبا طالب فى عام واحد ، سماه عام الحزن !

وهذا قبر أسماء بنت أبي بكر . تلك التي كان لها في تاريخ الهجرة - وهي جويرية صغيرة - شأن لا يغفل ، وذكر لا ينسى . . .

أليست هي التي كانت تخرج في جنح الظلام كل يوم ، تحمل الطعام الى أبيها والى الرسول في مخبئهما بغار ثور ؟

ثم أليست هي التي سألها أبو جهل ، وهو مغيظ محنق ، عن أبيها أين ذهب ، فلما أجابته : لا أدرى ... لطمها على وجهها لطمة أطارت قرطها وأسالت من أذنها الدماء ؟

بلى ، وإن لها في تاريخ الاسلام والبطولة العربية شأنا لا يغفل ، وذكرا لا ينسى ...

أليست هي التي دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير ، والحرب مستعرة بينه وبين بني أمية ، يتعرف صبرها على فقده فيقول :

— يا أمه ، خذلني الناس حتى أهلي وولدى ، ولم يبق معي الا قليل . وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا ، فماذا ترين ؟

فتجيبه في غير ما تردد :

— أرى أن تخرج الى القتال ما دمت تعتقد أنك على الحق ، فوالله لضربة بسيف في عز ، أحب الى من ضربة بسوط في ذل !

فيقول : ولكني أخشى أن يمثلوا بي بعد موتي ...

فتقول : إن الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ !

... بلى ، وهذا قبر عبد الله بن الزبير !

٤

قال صاحبي :

ـــ هل لك فى زيارة دار الأرقم ؟ فلست أرى من الأمانة ـ وقد عرفت مبلغ حرصك على زيارة المشاهد التاريخية ، وأطمأننت الى سلامة قصدك من هذه الزيارة ـ الا أن أصحبك الى هذه الدار ، التى آوت المسلمين فى فجر الدعوة قبل أن يستعلنوا بها ، وإنها الى ذلك أثبت الدور التاريخية نسبا فى وقتنا الحاضر . . .

قلت : شكر الله حسن ظنك ، وجميل صنعك .

وانطلقنا فى طريقنا الى الصفا ، ثم عرجنا من حارة الباب ، فاذا نحن أمام دار تعرف باسم دار الخيزران ، نسبة الى أم الخليفة هارون الرشيد إذ قيل إنها جددت بناء هذه الدار ، على أن المتفق عليه أن هذه الدار تقوم فى المكان ذاته الذى كانت تقوم فيه دار الأرقم منذ أربعة عشر قرنا . وهذه الدار كانت تشغلها الى ما قبل مشروع توسعة الحرم مدرسة لدراسة الحديث النبوى .

ويقترن تاريخ هـــذه الدار بحادث له خطره فى تطور الدعوة الاسلامية من السر الى العلن ، ومن الضعف الى القوة ، فهذا عمر بن الخطاب قد اعتزم أمرا ينهى به ذلك الصراع المستعر بين محمد وقريش ، إنه يحمل سيفه ويغدو على محمد فى دار الأرقم ليقتله ، ويريح قريشا

منه ومن دعوته تلك التى يلحد بها فى دينهم ، ويعيب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم . . .

ثم هاهو ذا يلقى نعيم بن عبد الله ، فيطلعه على وجهته ، فيقول له نعيم :

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر !! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك وتقيم أمرهم !!

— وعلم عمر من صاحبه بالقارعة !!

إن أخته فاطمة ، وزوجها سعيد بن زيد قد آمنا بمحمد !!

وانقلب عمر راجعا وصدره يغلى ثورة وغضبا على أخته وزوجها ، وترامى الى سمعه وهو يخطو نحو الباب صوت قارئ يقرأ القرآن . . .

فلما أحسوا وقع قدميه ، اختفى القارئ ، وأخفت فاطمة الصحيفة .

وقال عمر غاضبا والشرر يتطاير من عينيه :

— ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

لقد علمت أنكما تابعتما محمدا على دينه !!

ثم بطش بسعيد وشج أخته ، فثارا به وقالا فى تحد وإصرار :

— « نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك . . . »

وثاب عمر قليلا ، ثم طلب من أخته الصحيفة فأبتها عليه ، ثم أعطتها له بعد إلحاح ، وقرأ عمر ما فيها فاذا هو مأخوذ بما تضمنته من روعة وجـــلال !!

وتبدلت نفس عمر ونظراته شيئا آخر ، ثم لم يلبث أن غادر الدار وقد اعتزم أمرا آخر غير ذلك الأمر الذى كان قد اعتزمه منذ قليل .

هاهو ذا يبلغ دار الأرقم فيطرق بابها ، فيقوم رجل فينظر من خلل الباب ثم يعود فى فزع واضطراب وهو يقول :

ـــ هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف !!!

قال حمزة بن عبد المطلب يخاطب الرسول :

ـــ فأذن له ! فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه . . .

وأذن الرسول ففتح الباب ، وها هو الرسول يأخذ عمر بمجمع ردائه ويجبذه بقوة وهو يقول :

ـــ ما جاء بك ياابن الخطاب ؟

والله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! !

ولكن عمر الجلد القوى يخشع فى يد الرسول ويقول :

يارسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله !!

٥

قال صاحبى :

إنك قد زرت كثيراً من المشاهد التاريخية ، مما لا يتصل بشعائر الحج فى كثير ولا قليل ، ومع ذلك أراك قصرت فى أداء إحدى سنن الحج ، وكان أجدر بك ألا تفعل . . .

قلت : وما ذاك ؟

قال : تقبيل الحجر الأسود . . .

قلت : إنى لم أقصر فى أداء هذه السنة ، فقد كنت أشير إلى الحجر الأسود بيدى مكبراً حين أحاذيه فى الطواف .

قال : ولماذا لا تقبله أسوة بالرسول ؟

قلت : أولا ترى هذا التزاحم الشديد على تقبيله ، وهذا الشرطى القائم على سور الكعبة بمقرعته ، يصد ذلك التيار المتدفق ويحاول تنظيم موجاته المتدافعة فلا يكاد ! !

قال : فلتحاول حين تهدأ موجة الطواف . . .

قلت : نعم ، ورحم الله ابن الخطاب إذ يقول : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك ! !

قال : ولكن ألا تدرى الحكمة من تقبيل الحجر الأسود ؟

قلت : إن الحكمة فى كثير من الأمور « التعبدية » قد لا تكون واضحة المعنى ، محدودة المعالم . وحسبها أن فيها معنى الخضوع والامتثال لما أمر الله به ، أو التأسى بما فعله الرسول الذى لا ينطق عن الهوى . . .

قال : إنه لكذلك ، وإن للأستاذ محمد رشيد رضا صاحب « المنار » رأيا فى ذلك هو أدنى إلى العقل لمن أراد أن يزن الأمر بميزانه ، إنه يرى قيمة الحجر الأسود فى أنه العلامة الظاهرة المميزة بلونها المغاير للبناء ، والتى يبدأ منها الطواف حول الكعبة . كما يرى أن هذا الحجر هو الأثر

الوحيد فى بناء الكعبة الذى يمكن القطع بأنه الأثر الباقى من عهد إبراهيم ، لم يدركه البلى أو تتبدله يد العمارة على اختلاف الأحداث والعصور . . .

ثم هو على وذاك جدير بالاحترام لأنه من بيت الله ، والشاهد الأوحد الذى يهتدى به الحجاج فى أداء شعيرة الطواف . . .

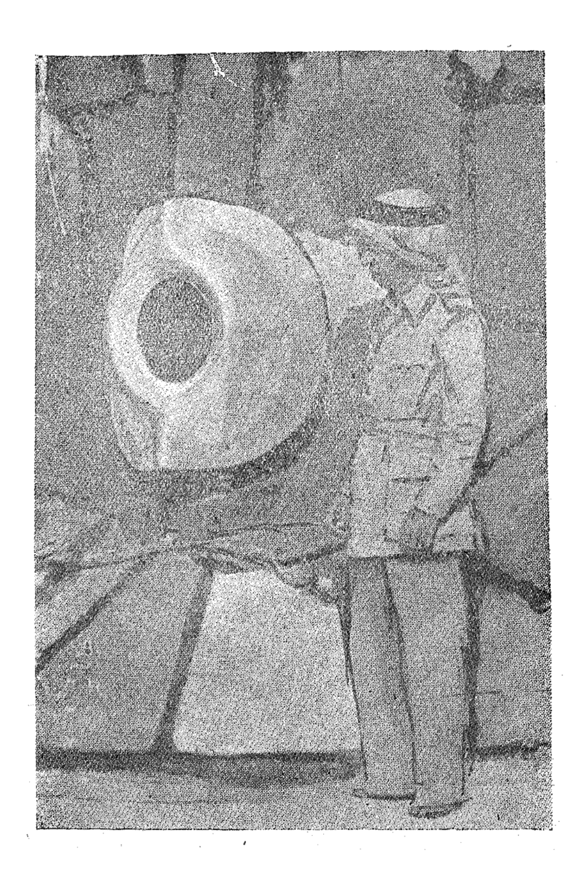
. . . وانتظرت حتى هدأت موجة الطواف فى الهزيع الأخير من الليل ، ثم أقحمت نفسى فى صف متدافع من الحجاج حتى بلغت الحجر الأسود ، فأدخلت رأسى فى طاقته التى برتها قبلات الملايين بعد الملايين على مر السنين والأحقاب ، وقبلته وأنا أردد قول ابن الخطاب !

وتدافع من ورائى جماعة فدفع أحدهم رأس صاحبه بعنف فى هذه الطاقة وهو يصيح فى نشوة ولهفة : حج ! احج ! !

ونظرت فاذا رجل يسيل وجهه بالدماء ، وهو فى غمرة البهجة والسرور . . . وكذلك فعل أصحابه واحداً بعد الآخر . . .

إن الحج عند هؤلاء لا تتم مناسكه ، ولا يكون مقبولا عند الله ، إلا إذا أريقت هذه الدماء الزكية على الحجر الأسود ! !

وحمدت الله أن لم يكن موضعى فى تقبيل الحجر الأسود بين جماعة من هؤلاء . . وتمنيت لو أن عمر بن الخطاب هو ذلك القائم على سور الكعبة ، لا يضرب بدرته هذه الرءوس ولكن يضرب بسيفه الأعناق !!



٦

وانتظرت بالمسجد حتى أديت صلاة الفجر، ثم عدت إلى الفندق لأستريح وأتأهب لصلاة الجمعة، فقد كان ينبغى أن أعود إلى المسجد قبل موعد الصلاة بساعات، حتى أستطيع أن أدرك مكاناً فى الظل آوى إليه . . .

ولكن هيهات، فقد عدت إلى المسجد قبل موعد الصلاة بثلاث ساعات، فاذا جميع الأماكن المظللة غاصة بالناس، واستطعت بعد جهد أن أجد مكاناً على الحصباء بين الظل والحرور . . .

وأخذت أتلو فى كتاب الله، وأنا أحس الصفوف المظللة تمتلىء وتنتفخ جنباتها بجسم يوشك أن تتحطم أضلاعه، إن أحداً لا يستطيع أن يتقدم خطوة فيلمس قدمه فناء المسجد الكبير لشدة وقدة الحصباء، فضلا عن أن يجلس هناك تحت الشمس المحرقة ساعات فى انتظار موعد الصلاة . . .

ولا تسل عما حدث وقتئذ من ضيق وتبرم بين المصلين، ولا أقول من تدافع وتنابز وملاحاة . .

ولكن هذه الصورة المؤذية من سوء الخلق عند البعض، كانت تقابلها صورة جميلة من البعض الآخر، لا تقتصر على التعاون والايثار والحلم وأدب الخطاب، بل إن منهم من كان يقوم بين المصلين فيروّح عليهم بمروحته أو طرف ردائه، فيرد عليهم أنفاسهم المختنقة، ويرفه عنهم بعض ما يعانون من وطأة الحر والزحام.

وكنت فى ذلك اليوم قد أخذت زينتى، وارتديت جلبابا أبيض جميلا، افتن فى نظافته وتسويته الكواء، ولهذا كنت ضيق الصدر

بما أصابني في هذا الزحام وأصاب جلبابي من إيذاء وتشويه ...

انها بقية من شعور المدني الأنيق ، يخالطها شعور بما يجب أن يكون عليه المصلون من آداب الجماعة التي حرص القرآن على أن يبثها في النفوس إذ يقول :

— « يَابَنِى آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسجِد »

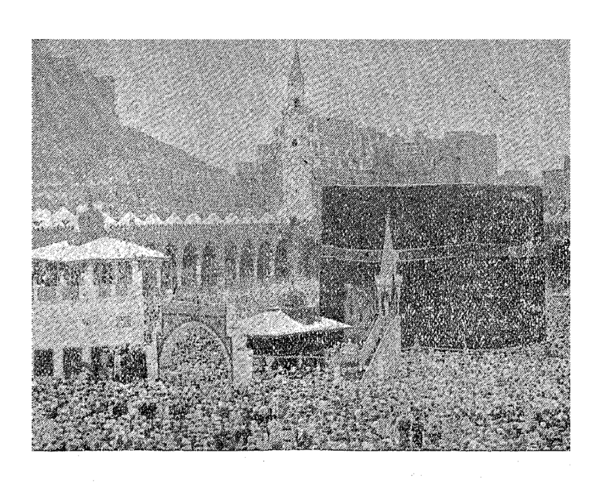
والتي كره الرسول من أجلها أن يؤدي الرجل صلاة الجمعة في ثوب عمله الملوث بأدران العمل ، أو يدخل الصلاة وقد أكل من الطعام ما لا تطيب رائحته ..

وزاد في شعوري بالضيق والأذى ، أن انحشر إلى جانب أعرابي ينضح جسمه بالعرق ، وقد تكأكأ عليّ فدمغ جلبابي الأبيض بألوان شتى من عرقه المختلط بالأقذار !!

وثارت نفسي ، وضاق صـــدري أيما ضيق ، وشغلت عن تلاوة القرآن والاستغراق في العبادة ، بهواجس شتى كادت تفسد على ما كنت فيه من عبادة ونجوى ، وما أنا مقبل عليه من صلاة ، وأطلت من عيني نظرات السخط واللعنة على هذا الأعرابي الجلف الذي أكرثني بجواره الكريه ...

ولكن سرعان ما انتفضت نفسي من هذه الهواجس الثائرة وتلك الوساوس الحمقاء ، حين تذكرت قول الرسول — عليه الصلاة والسلام :

— « رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ عَلَى الله لأَبرَّه »



. . . وكان كلما قرب موعد الصلاة ، واشتد ضغط الوافدين . امتدت الصفوف نحو الكعبة على الحصباء الملتهبة وتحت أشعة الشمس التي تصهر الحديد ، حتى قامت الصلاة .

أي إيمان هذا الذي يدفع بالمصلين إلى موقفهم هذا ، فيستهينون بلذع النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولايحسون إلا أنهم بين يد الله ، وفي بيته العتيق ، يؤدون صلاتهم الجامعة في طاعة وصبر واقبال ، ويضرعون إليه وهم في وقدة الحر الجامحة ، أن يجعلها كفارة للذنوب . . وأماناً من عذاب جهنم ونار السموم ! !

ولكن رحماك يارب !

لماذا كل هذا العناء والشقاء ؟ !

لماذا يرهق المصلون هذا العسر والبلاء ، وقد تقارف خواطرهم فى هذا الموقف ما يحبط الأجر ويفسد الوجدان ...

ولماذا لا يقام على المسجد الحرام ، وليكن عما يلى المطاف سُقف تتدلى منها المراوح الكهربية وقاية للمصلين من وقدة الشمس وحرها الشديد . .

على أن هذا السؤال لم يطل العهد به ، ولن يطـــول . . ذلك لأن مشروع توسعة الحرم الذى بدأ فى العام الماضى ، سوف يوفر للمصلين كل أسباب السعة والظل وتكييف الهواء .

٧

ثم تأهبنا لمغادرة مكة فطفت بالكعبة طواف الوداع .

يا للموقف الرائع الرهيب !

أشهد أنى لم أشعر باللوعة تلذع قلبي وتهز مشاعرى ، وأنا أودع أهلى وولدى فى إسنا وحلوان ، كما شعرت بهذه اللوعة الحارقة الطاغية وأنا فى موقفى هذا أودع الكعبة وأغادر المسجد الحرام . . .

لقد عشت تلك الأيام القليلة فى مهبط الوحى ، ومشرق النبوة ، ومسرح الذكريات الحية الخالدة ، ومشاعر التجرد والانطلاق فى تلك الأجواء الروحية الصافية ، فإذا أنا خلق آخر يدور فى فلك بعيد جذبته

أسراره ، وغمرته أنواره ؛ فلا يطيق الإفلات من أسر هذه الجاذبية الحبيبة ، ولا تطيب نفسه بالانسلاخ عن تلك الهالات والأنوار ...

ولقد تتهمنى بالمبالغة فى التصوير ، والإغراق فى الوصف ، وأنا أصور لك هذه الحقيقة الوجدانية وأصف تأثيرها على حواسى جميعاً ، ولكن دونك ما يحملك على أن تتهمنى بما هو أكبر من المبالغة والإغراق .

أقسم لقد سلختنى هذه الحقيقة الوجدانية التى عشت فيها ما أقمت بمكة ، عن أخص مشاعر البشرية ، فاذا أنا قد نسيت أهلى وولدى وكأن صورهم وذكرياتهم قد انمحت من عقلى وقلبى جميعاً ، فلا أكاد أذكر منهم أحداً إلا حين يجلس رفيق فيكتب رسالة إلى أهله .

وأقسم لقد كنت وأنا أجلس بجانبه أكتب مثل رسالته ، أحاول أن أستعيد فى مخيلتى صور أولئك الأهل والولد ، فلا أكاد أتبين ملامحهم إلا بعد جهد يعتصر الذهن والخيال !

حقيقة وجدانية واعية ، وليست اختلاطاً فى العقل أو مساً فى الشعور !

ودونك صورة أخرى قد تكون أقل من هذه الصورة غرابة وعجباً ؛ لأنى تبينت أنه يشاركنى فى الإحساس بها الكثيرون .

كنا حين نجلس لبعض الحديث أو السمر ، يعن لأحدنا أن يسأل :

— ما اليوم ؟

فيجيب أحدنا إنه الأحد . ويقول آخر : إنه الثلاثاء !

أو يسأل سائل : فى أى يوم نحن من سبتمبر ؟

فيقول أحدنا : إنه اليوم الخامس . ويقول آخر : بل اليوم العاشر !

ويختلف الرأى ويشتد النقاش ، فلا نكاد نتفق إلا حين يخرج أحدنا مفكرته فيخرجنا من هذا الخلط العجيب !

انسلاخ مطلق عن فلك هذه الحياة إلى ذلك الفلك البعيد ، الذى جذبتنا أسراره وغمرتنا أنواره . . .

وما حاجتنا هنالك إلى مواقيت الناس تلك التى ترتبط بها حياتهم الرتيبة المتراكبة ، ونحن لا نعيش إلا فى أيام معلومات هى اليوم التاسع من ذى الحجة أياً كان اسمه حيث الوقوف بعرفة ، وما يليه فى منى من أيام التشريق

وكيف نستطيع أن ندخل هذه الأيام الأربعة وما حولها فى حساب الزمن ومقاييسه ، وإن الدقائق فيها واللحظات لتمتد وتتسع وتعمق حتى لكأننا الأحياء السابحة فيما يشبه المحيط من المشاعر والأحاسيس !

قل ما شئت عن هذا التصوير لتلك الحقيقة الوجدانية . . .

قل إنه « شطحة » من شطحات التصوف . أو وثبة من وثبات الخيال البعيد . . .

أو لوثة من اختلاط العقل واضطراب الشعور . . .

أما أنا فأسجلها حقيقة وجدانية واعية ، لا أكلف نفسى تعليلها ولا يردنى عن الجهر بها ما قد تثيره من دهشة وإنكار . .

إلى دار الهجرة ..

١

وانطلقت بنا السيارة إلى جدة بعد الغروب ، وكأنها تحمل أجساداً انخلعت عن قلوبها وأرواحها المتعلقة هنالك بأستار الكعبة !

ولكن طائفاً من النشوة والسرور رد إلينا هذه القلوب المنخلعة وتلك الأرواح الهائمة ، فإذا هى تتواثب بنا فى غبطة واشتياق ، تكاد تستبق السيارة فى انطلاقها البعيد ...

ألسنا نغادر مكة فى طريقنا إلى مدينة الرسول ؟ !

وتناولنا العشاء فى فندق البساتين بجدة ، ثم تزودنا بشئ من الطعام والماء المثلج ، وبدأنا رحلتنا قبيل منتصف الليل ، وكان الجو منعشاً تغمره أنسام البحر الرطبة الباردة ، بساما تتراقص فيه أشعة القمر الفضية الحالمة . وقد بدت الصحراء عن يمين وشمال ، وعلى مد البصر البعيد ، طروبة مزهوة بتلك المواكب الراكبة والراجلة ، والتى تسرى فى دوربها آمنة مطمئنة ، يحدوها الشوق إلى زيارة مسجد النبى ومقامه الشريف ...

وتمثلت فى مسراى هذا قوافل الحجاج منذ عشرات السنين ،

وهى تنساب على ظهور الابل فتبدد وحشة الليل ورهبة الصحراء بالأهازيج والأغاريد ، إنها مواكب أفراح قدسية تغمر القلوب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر الجميلة ، وتعمر الصحراء بمشاهد الأنس والبهجة والانتشاء ...

وتمثلت إلى جانب هذه الصورة الباسمة الجميلة ، صوراً أخرى لما كان يخامر النفوس من القلق والحذر والإشفاق ، وما كان يصيبها من غوائل الغدر والعدوان . . .

قلت : لئن حرمنا العهد الجديد بمواكب السيارات المتدفقة في عجلة واندفاع لا تلوى على شيء ، الاستمتاع بتلك الصور الجميلة الخافقة بألوان النشوة وأصداء الأهازيج والأغاريد ، لقد عوضنا عن ذلك أمناً تغمر ظلاله الأرجاء ، وتسيطر روحه حتى على مفاوز الصحراء ، وإنك لتجد الرجل يدلج فى مسراه الموحش البعيد وحيداً أعزل ، لا يخشى إلا الله والذئب !

على أن السيارة لم تكد تمضى بنا فى طريقها البعيد ونحن نتمثل هذه الذكريات ، حتى أدرنا جهاز الإذاعة فإذا بنا نعيش فجأة فى جو تلك الأفراح القدسية التى تغمر القلب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر العلوية الجميلة ...

هذه أم كلثوم تحي ليلتنا هذه فى مطلع الرحلة المباركة ، بأنشودتها الروحية الخالدة :

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء !

لقد كانت تحية السماء تبارك بها خطواتنا المشوقة الهائمة ، أرسلتها على لهاة معجزة الفن أم كلثوم ، وأنطلقت ترددها معجزة العلم فى بطون الأودية ومعارج الجبال ...

وشتان بين ما تثيره هذه الأنشودة الرائعة من النشوة والطرب وأنت تستمع إليها فى النادى الحافل أو فى مخدعك الوثير ، وما تثيره فى أعماق روحك من هذه المشاعر وأنت فى مسراك المنطلق بين الأودية والوهاد ، إلى حيث يرقد الرسول فى مثواه الحبيب !!

وكنا نؤثر السير دائماً بالليل ، تجنبا لحرارة الشمس التى تلهب الاجسام وتكاد أن تصهر جهاز السيارة . ثم نأوى بالنهار إلى مقهى من تلك المقاهى المنتشرة على طول الطريق ، نفيء إلى الظل ، ونصيب قسطا من النوم والراحة ، ونلتمس شيئا من الطعام والشراب .

وقد أعدت فى هذه المقاهى مقاعد كبيرة ذات قوائم مرتفعة ، شدت بالليف أو الخوص ، يستخدمها الرواد للنوم والجلوس .

وفى أحد هذه المقاهى بالقرب من « رابغ » وهى البلدة التى تعتبر ميقات الإحرام لحجاج مصر وشمالى أفريقية ، شهدت منظراً آذى شعورى وأثار حنقى ، لأنه يصور الاستغلال على أبشع صورة وأحط أسلوب . . .

كان المقهى يضيق بالرواد الذين لاذوا بظله يستروحون ويبتردون ، وكان على مقربة منى شيخ تركى ما إن فرغ من شرابه ونقد الغلام الثمن ،

حتى طلب إليه الغلام فى غلظة وفظاظة أن يغادر المكان ..

وقال الشيخ فى عربية ركيكة تخالطها بعض الالفاظ التركية ما معناه :

ــ ألست قد طلبت شرابا وأديت الثمن ؟

قال الغلام وهو يجذب الشيخ من كتفه :

ــ بلى ، دفعت ثمن الشراب ، ولكنك لم تدفع ثمن الظل !!

أنه يريد أن يتقاضى الشيخ نصف ريال إذا أراد أن يبقى بعد اللحظة الاخيرة ، وإلا كان عليه أن يغادر الظل إلى جحيم الصحراء ...

وإنى أسجل هذه الصورة المثيرة ، التى يتعرض الحجاج وخاصة من غير البلاد العربية لكثير مثلها على ألوان أخرى ، لتأخذ الحكومة السعودية بالشدة والحزم أولئك الذين ماتت ضمائرهم وضريت نفوسهم فهم ينالون أضياف الله بالشراهة والأذى ، ويصدون بهذه الضراوة والشراسة عن بيته الحرام .

٢

وكان الطريق فى بدايته ممهداً مرصوفاً إلى مسافة لا تتجاوز الخمسين من الكيلومترات ، هى التى أتمت الشركة المختصة رصفها حتى ذلك الوقت ، فى مدة عام ونصف العام ، وكان مقرراً أن ينتهى رصف الطريق كله – ويبلغ طوله نحو أربعمائة كيلومتر ــ فى أربعة أعوام !!

ذلك لأن الشركة توقفت عن العمل بحجة ثمن ارتفاع القار من ثمانية جنيهات للطن الواحد إلى ثمانية وعشرين . ونظراً لتوقف استيراد هذه المادة من معامل الزيت فى إيران . . وقد وكلت الحكومة إتمام هـــذا المشروع إلى مديرية الإنشاء والتعمير فقامت به على خير وجه ، وأتمته فى فترة وجيزة ، وصار هذا الطريق كله مرصوفا تقطعه السيارة من جدة إلى المدينة فى نحو ست ساعات .

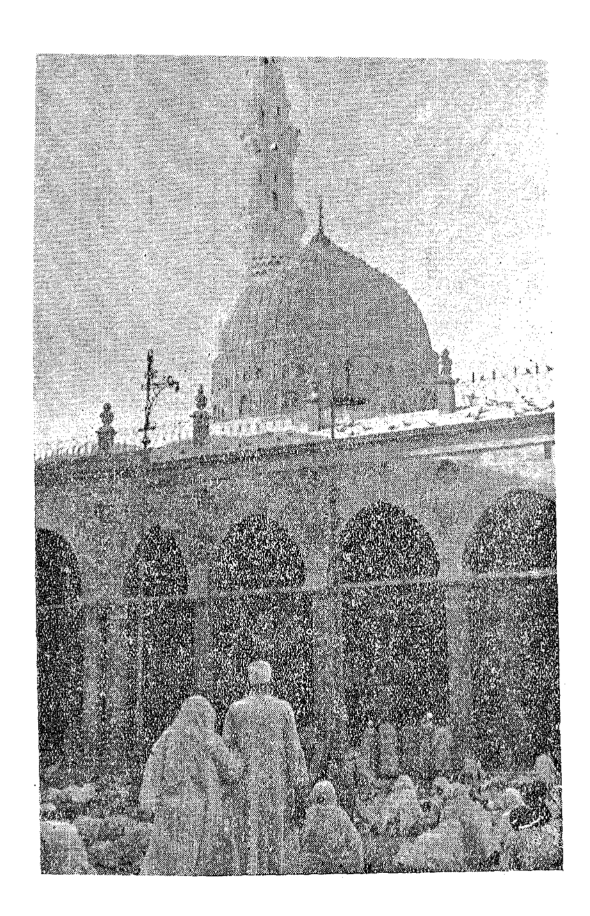
وتبسم الفجر من وراء الجبال الشاهقة فيما يلى قرية « مسيجيد » وهى إحدى المحاط القائمة على طريق المدينة ، وأوفرها استعداداً وراحة . وبينها وبين المدينة نحو خمسة وسبعين كيلو متراً وكلما أوغلت السيارة فى طريقها انفرج الوادى وأخذ ضوء الشمس يمتد فى الأفق ، ثم يغمر السهول الواسعة التى تراءت لنا خلالها أشجار النخيل والزروع والأعشاب

٣

ثم ها نحن أولاء على قاد أميال من مدينة الرسول تطالعنا ضواحيها باسمة ريانة ، وهاهى قلوبنا تخفق بالشوق والحنين ، ومآقينا تسيل بدموع الفرح والاشفاق ...

ثم ها هى المدينة المنورة تبدو من بعيد ، فتنطلق الألسنة بالصـلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين .

وتنطلق السيارة فترتقى بنا طريقا وعراً بين الصخور البركانية ، إنها « الحرة » التى تشرف على المدينة من الجنوب ، ثم تنحدر بنا فإذا نحن فى المدينة يغمرنا جوها الباسم وأنفاسها العطرة ، وقد تطلعت قلوبنا نحو منائر الحرم وقبته الخضراء .



وأحسسنا بكثير من الحرج والحياء ونحن نخترق بالسيارة طرقات المدينة فما كان ينبغي أن ندخلها إلا راجلين .

وتذكرت الامام مالكا وقد كان — رضى الله عنه — لا يركب بالمدينة دابة قط ، وكان يقول :

ـ أخشى أن يقع حافرها على محل مشى فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم !!

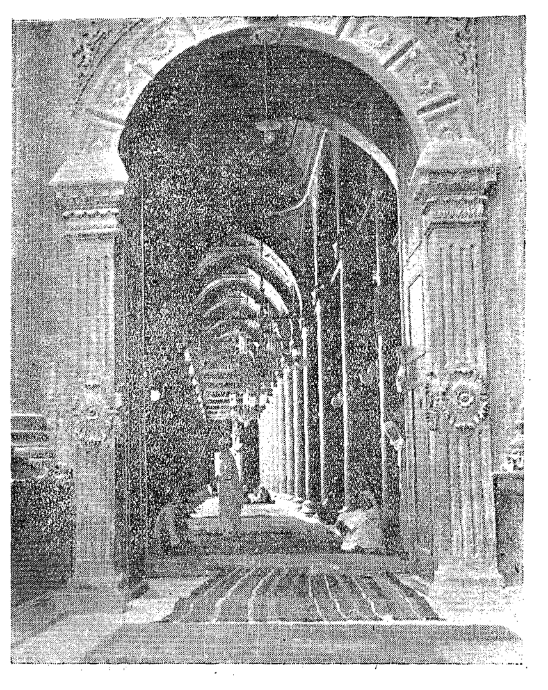
وقصدنا إلى فندق التيسير فحططنا رحالنا ، ثم أخذنا زينتنا تأهباً لزيارة المسجدالنبوى والتشرف بالسلام على صاحب الرسالة فى مقامه العظيم

وكانت خطواتنا إلى المسجد خفيفة الوطء خاشعة الحركة ، فعلى هذه الأرض سارت أقدام الرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار ، وإنى أكاد لأحس هذه الأرض تتشقق فتنبعث منها أطياف الذكريات البعيدة، فإذا « طيبة » فى يوم عيد بهيج وقد انتفضت عن رجالها ونسائها وأطفالها، فى مواكب تموج بقعقعة السلاح وأغاريد الفرح ونشوة النصر، وهى تحف بمحمد على ناقته « القصواء» وقد أردف خلفه أبا بكر وأرخى لناقته الزمام، فكان لا يمر بدار من دورها إلا صاح أهلها وهم يتعلقون بخطام الناقة :

ـ يارسول الله : هلم إلى القوة والمنعة، والعز والثروة ، والعدد والعدة

فيقول : خيراً ، بارك الله عليكم ، خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة .

وظللت أتابع خطاى فى طريقى إلى المسجد وأنا أقول : « بسم الله لا قوة إلا بالله ، رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج



باب السلام . . . فى الحرم النبوى

صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً . حسبى الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله » .

ذلك من آداب الزيارة ـ كما يقول الرسول ـ وإنى لأطمع إذ أتأسى به فى هذا المقام أن يتغمدنى الله بفضله فيكل بى سبعين ألف ملك يستغفرون لى . وأن يُقبل على ـ سبحانه ـ بوجهه الكريم .

حتى إذا ولجت باب المسجد النبوى ، وقفت أستجمع مشاعرى وأمسك أنفاسى وأنا أتأهب لمواجهة أنوار النبوة التى أضاء بها الخافقان ، منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام .

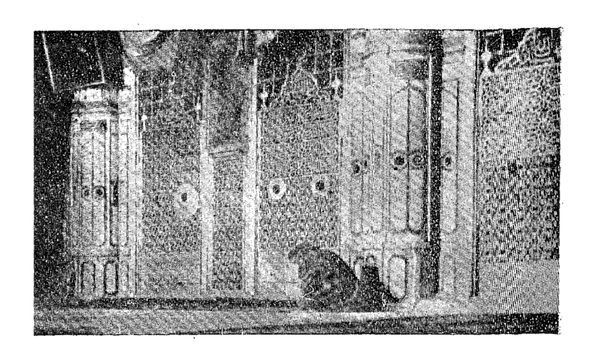
ودخلت المسجد فأديت الصلاة فى الروضة الشريفة ؛ وتذوقت فى صلاتى هذه بين يدى الحى القيوم الذى تعنو لعظمته الوجوه ، أسرار قوله صلى الله عليه وسلم :

— « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

ثم أقبلت على المقام فى شوق طاغ وقلب مشبوب ، إنه مقام الحب والرحمة والهداية والنور ، فما استفتحت بالسلام حتى عرتنى هزة عقدت لسانى عن القول وأطلقت مآقىّ بالدموع .

أى لسان يستطيع أن يفصح فى هذا المقام ، وأى بيان يستطيع أن يبين !

وعدت أستجمع مشاعرى وأمسك أنفاسى وأنا أواجه أنوار النبوة التى أضاء بها الخافقان ، منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام . . .



ثم توجهت اليه أحييه وأناجيه :

ـــ السلام عليك يانبى الله !!

السلام عليك يا حبيب الله !!

السلام عليك ياصفوة خلق الله . . .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه ، وأشهد أنك عبده ورسوله ، بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت فى سبيل الله . . .

ثم خطوت الى اليمين أواجه صاحبيه أبا بكر وعمر ، وهما ينعمان بجوار الرسول فى مثواه ، كما نعما بصحبته فى السراء والضراء فى دنياه ، فألقيت التحية ، وذكرت مواقفهما الخالدة فى تأييد دعوة الله ، وبلائهما

الصادق فى نصرة رسوله ، ثم دعوت لهما بماهما أهله من حسن المثوبة وعظيم الجزاء . . .

٤

وتقع الحجرة النبوية فى ركن المسجد الى الجنوب الشرقى منه ، ولم تكن بادئ الأمر فى نطاق المسجد ، وإنما أدخلت فيه أواخر القرن الأول للهجرة . وشتان ما بين المسجد النبوى فى عمارته الحالية وما كان عليه فى عهد الرسول . . .

حين قدم الرسول الى المدينة ، كان أول ما شغل به إقامة مسجده هذا ، وكان يعمل فيه بيده ، حثًّا لكبار أصحابه على المشاركة فى البناء . وفى هذا الميدان كانت تتوالى صور مختلفة ، بعضها يثير الاعجاب ، وبعضها يثير الاشفاق ، وبعضها يثير غير قليل من الضحك والفكاهة . .

فهاهم أولاء سواد المسلمين يتسابقون فى عجن الطين ، واعداد اللبن ، وحملها إلى البنائين . أما كبارهم فينظرون من بعيد ، وهم يتجافون نثار الطين وذرات الغبار !!

وهاهو ذا محمد يعمل مع أولئك السواد ، فينقل اللبن الى البناء ، فيعترضه أحدهم يريد أن يحمل عنه فيقول له الرسول :

— اذهب فخذ غيرها ، فلست بأفقر الى الله منى !

ويثير هذا المنظر كبار الصحابة ، فيهبون للمشاركة فى العمل وهم يرتجزون :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ

ذَاكَ إِذَنْ لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

ويتقدم عثمان بن عفان ، وهو الثرى الوجيه المترف وقد استحيا أن يأنف من عمل يؤديه الرسول ؛ فيحمل اللبنة إلى البناء ، ولكنه يجافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كمه وما يكون قد أصاب ثوبه من التراب . . .

وهذا على بن أبى طالب يعمل ويرتجز ، معرضاً بأولئك الذين لا تطيب نفوسهم بأن تغبر جسومهم وأثوابهم فى سبيل الله ، فيقول :

لَا يَسْتَوِى من يعمرُ المساجدَا

يَدْأَبُ فيها قائماً وقاعداً

ومن يُرى عن التراب حائدًا !

ثم هاهو عمار بن ياسر يدخل وقد أثقلوه باللبن ، فيقول :

— يارسول الله ، قتلونى ... يحملون علىّ ما لا يحملون !!

فينفض محمد عنه التراب بيديه وهو يقول :

« ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية (١) ...

---

(١) قتل عمار بن ياسر فى موقعة « صفين » التى كانت بين على ومعاوية . ويومئذ دخل عمرو بن العاص على معاوية فزعاً وهو يقول : قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ماقال !! فأجابه معاوية : اسكت أنحن قتلناه ؟ إنما قتله من أخرجه .

فيعود عمار إلى عمله طيب النفس ، وهو يردد تلك الأرجوزة التي يرددها علي بن أبي طالب :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيهـــا قائما وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

فيسمعه عثمان فيظن أنه يعرض به ، فينتفض غضبا ويقول وهو يلوح بعصاه :

ــ قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ، والله إنى لأرانى سأعرض هذه العصا لأنفك !!

وتبلغ هذه المقالة رسول الله فيغضب ويقول :

ــ « مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار !! »

٥

وقام المسجد إذ ذاك جدرانه من اللبن ، وأعمدته من جذوع النخل ، وسقفه من الجريد ...

ولكنه كان على بساطة تلك ، آية الآيات فى روحه وفيمن يضم من أئمة الهدى وأعلام الجهاد ...

كان داراً لعبادة الله ، أروع وأخلص ما تكون العبادة !!
وكان منارا للعلم والحكمة ، ومنبعاً للهدايا والنور . .

وكان مجمعاً للشورى فى سياسة الأمة واقامة دعائم الاسلام . .

وكان ملاذاً لأهل الصُّفة من العجزة والفقراء ، يجدون فيه الكفالة والرعاية التى فرضها الله .

وكان ثكنة لاعداد خطط الحرب ، ونفار كتائب الجهاد .

كان المسجد النبوى كذلك ، وأكثر من ذلك وهو فى بساطته تلك...

أما الآن ، فما أبعد الفرق بين الحالتين !

لقد تطورت عمارته فلم تعد جدرانه من اللبن ، وأعمدته من جذوع النخل ، وسقفه من الجريد ؛ وإنما صارت عمارة فخمة رائعة تبهر الأبصار بعمدها الرخامية الموشاة بالذهب ، وسقفها العالية التى تتدلى منها الثريات والمراوح الكهربية ، وجدرانها السامقة المحلاة بالنقوش وروائع الفنون ، وفرشها الثمينة من الطنافس والسجاجيد . .

ولكن أين هذا التطور فى العمارة ، مما صار إليه المسجد فى روحه ورسالته ، وأين أمسه الحافل بالماجدين والأمجاد من يومه ، وان الآلاف المؤلفة التى تفد عليه من الحجاج لاتقصده بالذات ، ولا تشد الرحال إليه باعتباره ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال ، وإنما تحضر إلى المدينة لزيارة قبر النبى الكريم ، ولو لم يكن القبر فى المسجد لتبدلت الوجهة ولتغير الحال ! !

وهذه حجرة النبى ، التى دفن فيها بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، فلم تكن إذ ذاك إلا قبراً مسوى بالأرض ، وكانت منفصلة عن المسجد

فلم تدخل فيه إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ها هى ذى صارت جزءاً من المسجد ، وقد أقيمت عليها المقاصير المنقوشة بماء الذهب ، وامتلأت فى وقت ما بالنفائس والجواهر والتحف ، ومن بينها القناديل الذهبية ، وعقود اللؤلؤ ، والأساور والأقراط . . .

نعم . . . وقد جاء فى كتاب الرحلة الحجازية ، أن هذه النفائس التى اشتملت عليها الحجرة النبوية ، والتى كان السلاطين والولاة يتنافسون فى اهدائها لمقام الرسول ، كانت تقدر بسبعة ملايين من الجنيهات . . .
ما أبعد الفرق بين ماضى المسجد النبوى وحاضره ! !

وما أبعد الفرق بين ماضى الحجرة النبوية وحاضرها . . .

إنه الفرق لا بين عمارة وعمارة ، ولكن بين عقلية وأخرى . . .

إنه الفرق بين الإسلام فى صورته الأولى ، البسيطة السمحة العملية؛ وبين الإسلام فيما انتهى إليه فى العصور المتأخرة ، فى صوره المتراكبة المموهة بالتهاويل والأوهام ...

أما تطور فن العمارة ، فأمر لا ينكره الدين ، لأن التطور سنة من سنن الخالق فى جميع الكائنات ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولكن الذى ينكره الدين ، وتأباه سنة الله ، هو أن يكون فن العمارة فى مسجد الرسول وقبره ، فناً دخيلا على طبيعة الإسلام ، وأنه يمثل عقليات انحرفت عن حقيقة هذا الدين ، وتأثرت بمواريث فنية وشعورية دخيلة ، لا فناً يستمد عناصره من الفكرة الإسلامية ، ويمثل عقلية صافية سليمة ، لها ذاتيتها المتصلة بروح الإسلام وإلهامه ...

وليس أدل على هذا من أن معظم الذين أسرفوا فى عمارة المسجد والقبر النبوى على هــذا الطراز ، وتغالوا فى تقديم الهدايا إلى مقام الرسول ، ومن بينها القلائد والأساور والأقراط ، إنما هم من سلاطين الأمم غير العربية وولاتها وأثريائها ، أو بعض الأمم العربية التى ترسب فى أعماقها مشاعر دينية ووجدانية قديمة ، انبعثت من جديد فى عصور الضعف والانحلال .

ولا أستطيع أن أقتنع بأن مايسمونه الفن الإسلامى فى العمارة ، والذى يتمثل فى كثير من المساجد والأضرحة فى العواصم الإسلامية ، هو فن يصور طبيعة الإسلام ويدل عليه ، وإنما هو فن يصور طبيعة « العصور » الإسلامية التى نشأ فيها ؛ وشتان ما بين الفنين ، لأنه شتان ما بين النبعين . .

يصور هذا الفارق ماعبر عنه أبان بن عثمان ، وهو فى فطرته العربية السمحة النقية ، حين وقف بالمسجد النبوى بعد أن جدد الوليد بن عبد الملك عمارته عما كان عليه فى عهد عثمان ، واستقدم لذلك أهل الفن من بلاد الروم ، وأنفق فى تجميله وزخرفته ثمانين ألف دينار ...

وقف أبان بن عثمان مع الوليد ، وكان الوليد مزهوا بما أبدع فى المسجد والحجرة النبوية من فن وعمارة ، ثم نظر إلى أبان وقال :

ــ أين بناؤنا من بنائكم ؟ !

فأجابه أبان قائلا :

ـــ بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس[1] . . .

ثم يصور هذا الفارق فى تمثل روح الإسلام ، وإدراك معانى الهدى المحمدى ، ما كان من أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تجبى إليه الأموال فيجلس فى مسجده لايقوم إلا وقد فرغ من انفاقها على كل محتاج . ثم هو مع ذلك يقول :

ـــ ولقد أتت علىّ ثلاثون بين يوم وليلة ، مالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال . . .

وإنه لجالس ذات يوم ، فجاء إليه رجل يسأله فقال له :

ـــ اجلس سيرزقك الله . . .

ثم جاء ثان وثالث . . .

وجاء رجل ومعه أربع أواق فأعطاها إياه وقال :

ـــ يارسول الله ، إن هذه صدقة . . .

فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية . وبقيت الأوقية الرابعة فعرضها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وقد افترش عباءته ، وظل ساهراً لايطرق النوم جفنه ، فيقوم فيصلى ، ثم يرجع إلى فراشه فلا يستطيع النوم ، فيعود إلى صلاته ، فعل ذلك مرات عدة ، حتى ظنت به عائشة أمراً فقالت له :

ـــ يارسول الله ، هل بك شىء ؟

---

١ ـــ لهذا الحديث بقية عند الكلام على تجـــديد الحرم النبوى وتوسعته فى الرحلتين الثانية والثالثة .

قال : لا

قالت : فجاءك أمر من الله ؟

قال : لا

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله ...

فأخرج الأوقية وقال لها :

— « هذه التى فعلت بى ما ترين ... إنى خشيت أن يحدث أمر من أمر الله ولم أمضها !! »

هذه حال محمد فى ليلته تلك ، وقد أرق جفونه وأقض مضجعه أن يبيت وفى حجرته أوقية من الذهب أو الفضة ، دون أن يؤديها فى سبيل الله ...

فكيف به الآن ، ومنذ الأمس القريب أو البعيد ، وهذه حجرته قد تحولت الى متحف مملوء بالجواهر والنفائس ، التى قدر ثمنها بسبعة ملايين من الجنيهات ، وإن من بينها القلائد والأساور والأقراط !!

٦

... قال صاحبى :

— هل أتاك نبأ العمارة التى أحدثها نور الدين بن زنكى فى الحجرة النبوية ؟

قلت : نعم ، وخيرا ما فعل ...

ولهذه العمارة قصة تروى ، فقد كان نور الدين مشغولا بحرب الصليبيين فى أواسط القرن السادس للهجرة . وإنه لفى ذات ليلة إذ رأى

فى منامه رؤيا أفزعته ، رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - يشير الى رجلين أشقرين وهو يقول :

- أنجدنى ، أنقذنى من هذين !!

رأى هذه الرؤيا ثلاث مرات فى ليلته تلك ، فأرسل فى طلب وزيره جمال الدين الموصلى، وكان معروفا بالتقوى والصلاح ، وقص عليه رؤياه

فقال الوزير : وما قعودك ؛هذا أمر حدث فى مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس له غيرك ، فاخرج الآن إلى مدينة الرسول واكتم أمرك .

وما طلعت الشمس حتى كان نور الدين فى طريقه إلى المدينة هو ووزيره ومعهما ألف راحلة ، حتى إذا بلغها بعد مسيرة ستة عشر يوماً قصد إلى المسجد وصلى فى الروضة ثم جلس لايدرى ما ذا يفعل .

واستدعى أهل المدينة فوزع عليهم ماكانت تحمل القوافل من أموال وأرزاق .

ثم قال :

- أبقى أحد لم يأخذ حظه ؟

قالوا : لم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس صالحان غنيان ، لا يأخذان من أحد شيئاً ويكثران الصدقة على المحاويج .

قال : علىّ بهما .

وجىء بالرجلين فرأى فيهما شبهاً من ذينك اللذين رآهما فى المنام، ولكنهما

كانا فى حديثهما مثالا للتقوى والصلاح ، وإن أهل المدينة ليشهدون بأنهما يصومان الدهر ، ويلازمان الصلاة فى الروضة ، ويكثران من زيارة الحجرة النبوية والبقيع وبقية المشاهد الأخرى ، ولا يردان لسائل حاجة .

على أن ذلك كله لم يبدد ما وقر فى نفس نور الدين من وساوس وشكوك ، فقصد إلى دارهما فرأى فيهما مالا كثيراً ، وأخذ يجوس خلال الدار ثم رفع حصيراً فى إحدى غرفها فإذا تحته سرداب يتجه صوب الحجرة النبوية ! !

واضطربت المدينة حين بلغها النبأ ، والناس بين مصدق ومكذب ، ولكن الرجلين - وقد برح بهما الضرب - اعترفا لنور الدين بالسر الخطير...

لقد أوفدهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة ، وأمدوهما بأموال طائلة للاحتيال على سرقة جثمان الرسول !

فأمر نور الدين فضربت عنقاهما ، ثم عمد إلى الحجرة النبوية فحفر حولها خندق عظيم حتى بلغ منابع الماء ، ثم صب الرصاص حتى مــــلأ الخندق وصار منه سور متين لا تنفذ منه يد آثمة ، ولا تنـــال منه يد الزمان.

فى مسرح الذكريات ..

١

وسهرت ليلتى الأولى بالمدينة ، وكأن الوحى فيها لم ينقطع ونحن إلى جوار الرسول !

هذه أطياف الذكريات تخفق حولى صاعدة هابطة تصل ما بين الأرض والسماء ...

وهذه صور الماضى تتواثب أمامى حية نابضة ، فإذا أنا أعيش فى أعماق التاريخ البعيد ...

وهذا محمد وقد بركت ناقته حيث شاء الله لها أن تبرك ، فطابت بهذا المنزل نفسه وطابت نفوس الأنصار . وها هو ذا يقيم مسجده وداره ، ويلحق بهما مأوى لأهل « الصفة » من الضعفة والفقراء والمعوزين ...

وهاهم الأنصار من الأوس والخزرج يستبقون الحفاوة والإيثار على أروع صورة شهدتها الإنسانية ، فينزلون المهاجرين فى دورهم ، ويقاسمونهم أموالهم ، بل إن أحدهم تكون له أكثر من زوجة ، فيطلق أجملهن وآثرهن عنده ليزوجها من أخيه المهاجر فى سبيل الله ! !

وها هو ذا محمد يبارك هذه الرابطة الروحية التى صاغت للبشرية أروع نماذج الإخاء والتضحية والوفاء ، فيجعل من كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، أخوين لهما كل حقوق الأنساب والدماء . . .

ثم هاهى ذى « طيبة » تلك البلدة المغمورة الثاوية فى قلب الصحراء ، تشهد ميلاد الإنسانية فى تاريخها المشرق الرشيد ، وتتدفق منها موجات الهداية والنور والخير والجمال ، فتبدد غياهب الظلم والظلام ، وتطهر البشرية من أرجاس العبودية لغير الله ، وتشرع للمجتمع الإنسانى تقاليد خالدة من التكافل والتراحم والعدل والمساواة . . .

وانطلق أذان الفجر من مآذن الحرم يشق سكون الليل ويوقظ قلوبا لا تنام !

وتذكرت « بلالا » فى موقفه ذاك على سطح الحرم ، وقد ارتفع صوته الجميل بالتكبير والتهليل ، وما خفت هذا الصوت يوماً حتى وهو يعانى سكرات الموت على رمضاء مكة ، وقد شد وثاقه بالحبال ، وألقيت على صدره الخافق بالتوحيد قطع الجبال !

. . . وأقيمت الصلاة ، فكأنما كنا نصلى مؤتمين بالرسول ، فهو بيننا حاضر بجسمه الطاهر وإن روحه لتغمر المسجد وتعمر القلوب . وهل فى حضرة الرسول يتقدم غيره من إمام ؟ !

٢

ثم انصرفنا مع طلوع الشمس إلى الفندق ، ريثما نتناول بعض الطعام والشراب ونلتمس قسطاً من الراحة . وعدنا إلى منطقة الحرم

لزيارة بعض المعالم التى تحيط به ، والتى تحمل أرواحاً من تلك الذكريات البعيدة الخالدة . . .

فهذه دار أبى أيوب الأنصارى ، التى أقام بها الرسول لأول عهده بالمدينة حتى أتم بناء بيته فى المكان الذى يثوى فيه جثمانه الطاهر ، وهذا أبو أيوب الأنصارى يحدثنا عن ذكرياته فيقول :

— « لما نزل علىَّ رسول الله — ﷺ — فى بيتى ، نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو . فقلت له :

— يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل . . .

فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

قال أبو أيوب : فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن ، فلقد انكسر حب لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منه شىء فيؤذيه ! !

هذه هى دار أبى أيوب الأنصارى . . .

ثم ها هى ذى دار أبى بكر ، وها هى ذى دار عثمان !

نعم ، هذه دار عثمان التى شهدت أفجع صورة لمصرع هذا الإمام الشهيد ، والتي انبثقت منهـــا الشرارة الأولى التى أشعلت نار الفتنة الـكبرى فى تاريخ الإسلام والمسلمين . . .

ثم خرجنا إلى ظاهر المدينة لزيارة « البقيع » حيث قبور عشرة آلاف من الصحابة والشهداء والأئمة وأهل بيت النبوة . أولئك الذين سطروا بدمائهم وأرواحهم أروع آيات البطولة والاستشهاد فى سبيل الله ، وأقاموا بتضحياتهم الفذة وإيمانهم العميق دعائم الدين الحنيف . . .

وفى طريقنا إلى البقيع ، مررنا ببعض جوانب السور العظيم الذى كان يحيط بالمدينة ، فيحميها من عدوان البدو وهجماتهم المتكررة على أهلها للسلب والنهب . وكان أول من أقام سوراً حول المدينة الملك عضد الدولة ، ولكن هذا السور لم يبق له أثر الآن . وقام من بعده جمال الدين الجواد فبنى سوراً آخر . أما السور الحالى فقد أنشأه سليمان القانونى سنة ٩٤٨ هـ وكان يبلغ طوله أربعة آلاف ذراع ، وأنفق على إنشائه مائة ألف دينار ذهباً ، عدا ما استخدمه من مواد البنـــاء التى حملها من مصر ، وآلاف الأرادب من القمح والأرز والفول والشعير وغيرها من مواد التموين . وقد استغرق بناء هذا السور ثمانية أعوام .

ثم طالعنا البقيع خارج المدينة ، فدخلنا إليه فى هيبة وخشوع ، وقد تذكرت وأنا أخطو فى أرضه الطاهرة خطواتى الأولى ، محمداً وهو يودع يوماً بعد يوم من يستشهد من أصحابه وأنصاره ، ثم وهو يتردد على هذا المكان بين الفينة والفينة للذكرى والترحم على ساكنيه .

وأذكره حين بدأ به وجعه الذى مات فيه ، يخرج إلى البقيع فى جوف الليل ومعه غلامه أبو مويهبة ، فيقول له :

— « يا أبا مويهبة ، إنى قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع .

حتى إذا وقف بين أظهرهم قال :

— السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى !

ثم يقول لغلامه : يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . . .

قال الغلام : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة !

قال : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة !

ها نحن أولاء فى جنة البقيع . . .

على أنك لا تستطيع أن تتبين قبر واحـــد من أولئك الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت ، إلا إذا صحبك الدليل أو « المزوِّر » كما يقولون . . .

ذلك لأن جميع هذه القبور قد سويت مبانيها ومعالمها بالأرض كما سويت قبور « المعلاة » فى مكة . وهو ماعيب على الحكومة السعودية .

وليس فى الأمر ما يعيب ، وقد نهى الرسول عن إقامة الأضرحة

والتهاويل فوق القبور ، ولكن كان يجدر أن يظل على كل قبر شاهد يحمل اسم صاحبه للذكرى ، فليس فى نشدان الذكرى والترحم على الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت وغيرهم ، مايتنافى مع ما أوصى به الرسول وشرعه فى زيارة القبور . . .

إن محمداً حين دفن ولده ابراهيم ، هنا فى البقيع ، سوّى على قبره بيده ثم أعلم عليه بعلامة وقال :

— «انها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه»

فما كان أحرى غلاة «الإخوان» الذين هدموا معالم البقيع ، كما هدموا معالم المعلاة ، أن يقيموا على قبورها علامات كتلك التى أقامها محمد على قبر ابراهيم ، وألا يدعوا هذه القبور التى تضم بين صفائحها الكثيرين من أهل الجنة ، مجهلة لا يهتدى إليها الزائر إلا أن يصحبه «المزور» أو الدليل !

. . . وهنا يرقد ذو النورين عثمان بن عفان !

ذلك الخليفة الشهيد ، وأول مهاجر فى الإسلام ، والذى جهز جيش العسرة بألف دينار ، فجعل رسول الله يقلب هـــذه الدنانير فى حجره ويقول :

— اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض . ماضرّ عثمان ماعمل بعد اليوم !

نعم ، ولقد أصاب الناس فى عهد أبى بكر قحط شديد ، فذهبوا إليه وقالوا :

— ياخليفة رسول الله ، إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك . . . فماذا تصنع ؟ .

قال : انصرفوا واصبروا ، فإني أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم ...

فلما كان آخر النهار ، وردت الأنباء بأن عيراً لعثمان بن عفان قدمت من الشام وتصبح فى المدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا ، فأناخت عند باب عثمان ، فلما جعل أحمالها فى داره جاء التجار فقال لهم :

— ماتريدون ؟

قالوا : إنك لتعلم مانريد . . . بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم حاجة الناس إليه .

فقال عثمان : حبا وكرامة ! كم تربحوننى على شرائى ؟

قالوا : الدرهم درهمين ! !

قال : أعطيت زيادة على هذا . . .

قالوا : أربعة دراهم . . .

قال : أعطيت أكثر ! !

قالوا : نربحك خمسة . . .

قال : أعطيت أكثر ! !

فقالوا : مافى المدينة تجار غيرنا ، وماسبقنا أحد إليك ، فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا ؟

قال : إن الله قد أعطانى بكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟ !

قالوا : لا . . .

قال : فإنى أشهد الله أنى جعلت ماحملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين ...

نعم ، وإنه لهو الذى وحد المسلمين على القرآن يتلونه بلسان قريش، فلا تتبلبل ألسنتهم ويختلف كتابهم ...

والذى امتدت فى عهده موجات الدعوه الإسلامية ، فشملت بحر الروم وشمالى إفريقية غربا ، وغمرت أواسط أوربا وآسيا شمالا ، ثم بلغت حدود الهند شرقا ، فى فترة قصيرة من الزمان ..

ولكن هذه المآثر المتصلة فى حياة عثمان ، وتلك المفاخر التى قال الرسول فى إحداها ماقال ، لم تشفع لعثمان فيما أُخذ عليه من إيثار بعض ذوى قرباه بولاية الأمصار ، فاضطغنت عليه القلوب ولم تزل بها بقية من سَورة الجاهلية ، فنالته سيوفهم غيلة وهو يتلو كتاب الله !!

ثم هاهو قبر الحسن بن على ، الذى أصلح الله به بين فئتين ، واتقى به المسلمون اطراد الفتنة فى عهد معاوية ، وبذلك وهب الدولة الإسلامية فترة استقرار ، تنصرف فيها إلى نشر دعوتها فى الآفاق ...

وهنا يرقد زين العابدين بن الحسين ، الذى شهد وهو فتى صغير مأساة كربلاء الدامية ، وعاش فى جوها الراعب الرهيب ، إنه ليقبل على أبيه وقد علم أنهم مخيرون بين التسليم والموت فيقول :

— ألسنا على الحق ؟

فيجيبه الحسين : بلى ، والذى يرجع إليه العباد ...

فيقول الفتى قولته الخالدة :

ـــ يا أبه ، فإذن لانبالى ! !

وهذا قبر العباس بن عبدالمطلب ، وقد عرفنا موقفه من الأنصار الذين قدموا يدعون محمدا إلى الهجرة ، ولم يكن العباس يومئذ قد أسلم ، ولكنه أراد أن يستوثق لابن أخيه فيما هو مقبل عليه ، وأن يطمئن إلى صدق هؤلاء الأنصار فى دعوته وحمايته . . .

نعم ، وهو صاحب الفضل والشرف فى الجاهلية والإسلام ، أليس صاحب « السقاية » لضيف الله من حجاج بيته الحرام ! ؟

وهذا قبر الإمام مالك رائد الشريعة الإسلامية . وهنا وهناك قبور جماعة من أهل الفقه والرواية ، منهم عبدالله بن مسعود ، وأبو سعيد الخدرى ، وهذا جدث عبدالرحمن بن عوف الذى استخلفه عمر فى الصلاة بالناس على إثر اغتياله . وذاك جدث سعد بن أبى وقاص الذى دان له النصر فى كل ميدان . . .

حقا ما أحفل البقيع بأولئك الأئمة الأعلام ، الذين يندر أن يجتمع مثلهم من الأئمة والشهداء فى غير هذا المكان . ولقد أصاب المستشرق الحاج عبدالله برخارت حين قال فى كتابه عن جولاته فى بلاد العرب :

ـــ لقد بلغت المدينة من الغنى برفات القديسين العظماء ما كاد أن يفقد معه كلٌّ من هؤلاء جلال العناية بذاته ، على حين تكفى بقية من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة ! !

٣

وحملتنا السيارة صباح اليوم التالى إلى أُحُـــد ، شمالى المدينة بعدة أميال . . .

ذلك الجبل الذى شهد أول رجفة فى الإسلام ، تلك الرجفة التى زلزلت القلوب والأقدام ، واصطرعت فيها قوى الإيمان تقذف بها قلوب المسلمين ، وما تغلى به قلوب المشركين من سورة الحقد والثأر والانتقام . . .

أى ملحمة هذه التى احتشد لها الفريقان ، وأبلى فيها الجمعان أروع البلاء ، وتسابق فى إذكاء نارها وتفجير دمائها حتى الحرائر من النساء !!

هاهم المسلمون قد دارت عليهم الدائرة بعد غلبة وانتصار ، فتهاوت أعناقهم ، وسالت دماؤهم ، وتفرقت صفوفهم ، حتى انكشف الرسول للعدو فنالته قذائفهم حتى سقط على الأرض تنزف منه الدماء . . .

وها هى أم عمارة الأنصارية تلقى ما كان بيدها من السقاء ، وتستل سيفا فتقف به إلى جانب الأبطال ، تنافح عن رسول الله وقد تصايح القوم يطلبون رأسه ، وتثير بموقفهما هذا الرائع حمية المنهزمين من الرجال ! !

وفى الجانب الآخر نرى «هندا» زوج أبى سفيان ، تندب قتلى بدر وتلهب مشاعر قومها بنار الحقد والثأر . فيشتدون فى التقتيل والتمثيل . ولا تطيب نفسها إلا أن تجدع الأنوف والآذان فتتخذ منها القلائد والأقراط . ثم هاهى ذى تبحث عن جثة حمزة بن عبدالمطلب قاتل أبيها فى بدر ، فتأبى إلا أن تبقر بطنه وتنتزع كبده فتلوكها بين أنيابها فى وحشية حمراء ! !

وهاهى الموقعة تنجلى عن سبعين من الشهداء ومئات من الجرحى ، قد تناثرت أجسادهم المضرجة بالدماء على سفح أحد وفى بطن الوادى .

وهاهو محمد يقف على جثمان عمه حمزة وقد مثل به القوم شر تمثيل ، فيحولق ويسترجع فى لوعة طاغية وهو يقول :

ــ لن أصاب بمثلك أبدا ، وماوقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا !! والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ! »

لقد غلب الحزن على رسول الله ، حتى استبدت به المشاعر البشرية وثارت به حمية الدم فقال ماقال ، حتى إذا نزل عليه قوله تعالى :

ــ « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ »

عندئذ تطامنت نفسه ، وهدأت ثائرته ، واستوت على أقطار روحه مشاعر النبوة العلوية الصافية . . .

وها نحن أولاء نقف على قبر حمزة سيد الشهداء ، فى بطن الوادى من جانب أحد ، نسترجع تلك الصور المضرجة بأزكى الدماء ، المشرقة بنور الإيمان والتضحية والفداء .

٤

ثم عادت بنا السيارة تشق طريقها بين المراعى والبساتين الى مسجد القبلتين . . . وكان الرسول الى ما بعد مقامه بالمدينة سبعة عشر شهرا ،

يؤدى الصلاة مستقبلا بيت المقدس . وأراد اليهود أن يمكروا به ليخرجوه من المدينة ، بعد أن حبطت دسائسهم التى حاكوها منذ أول يوم قدم فيه فقالوا له ...

— إن من سبقك من الرسل ذهبوا الى بيت المقدس ، وبه كان مقامهم ، فان تكن رسولا حقا فاصنع مثل ما صنعوا ، ولتكن المدينة مقاما وسطا فى هجرتك بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . .

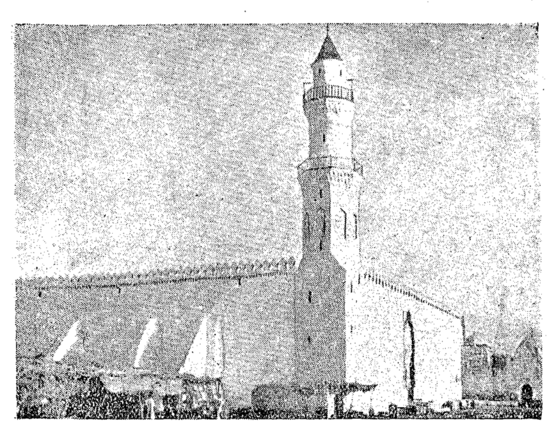
وضاق الرسول بمكرهم هذا ، وظل موزع القلب حائر الفؤاد ، حتى اذا كان قائما يصلى فى هــــذا المسجد بظاهر المدينة مستقبلا بيت المقدس ، نزل عليه الوحى بهذه الآية :

— « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَـــوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

فتحول الرسول وهو قائم فى صلاته تلك من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام !!

. . . ثم انطلقت بنا السيارة الى قباء ، تلك القرية التى استقبلت الرسول قبيل وصوله الى المدينة ، فأقام بها هو وصاحبه أبو بكر أربعة أيام ، وبنى بها أول مسجد فى الاسلام . . .

وها نحن أولاء نؤدى الصلاة فى مسجد قباء !



مسجد قباء ... أول مسجد فى الإسلام

٥

وأتممنا فى المدينة أياما أربعة ، وددنا لو أنها طالت فكانت الشهور والأعوام !

كنا نقبل على المسجد النبوى فنكثر فيه من الصلاة ، وإنها لتعدل فى أجرها ألف صلاة فى غيره من المساجد الا المسجد الحرام ، لما تفيضه من مشاعر التجرد والخشوع والإقبال على الله ، وما تثيره من جلال الذكرى وروعة المقام ...

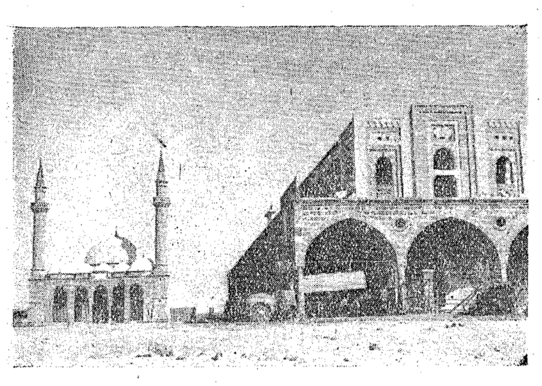
ثم ننفلت من صلواتنا فنعود الى المدينة نرتاد معالمها الأثرية ،

ونستطلع مظاهر الحياة فيها بعد ذلك التاريخ الحافل المشهود ، فتنتكس رءوسنا من حسرة واشفاق . . .

هذه مدينة الرسول التى عاشت دهرا وهى محور التاريخ الإسلامى وقطب رحاه ، ومصدر الاشعاع النبوى المنطلق فى كل اتجاه ، والقلب الذى تتدفق شرايينه فى مختلف الأقطار والأمصار ، فتحيي موات الانسانية وتجدد شباب الحياة . . .

هذه المدينة الخالدة ما خطبها اليوم وأين هى من ذلك الماضى المجيد وأبناه ، لقد تعرضت هـــذه المدينة منذ التاريخ البعيد حتى الحرب العالمية الأولى لكثير من المحن والأرزاء ؛ بسبب الفتن والاضطرابات السياسية التى عانتها فى تاريخها الطويل .

وقد آن للمدينة المنورة أن تسترد مكانتها منذ اتجهت العناية لتنفيذ كثير من المشروعات العمرانية والاجتماعية ، ومنذ تمت توسعة الحرم النبوى ، وبدأ العمل على اعادة الخط الحديدى بين المدينة والشام . . .



محطة سكة حديد الحجاز ... بالمدينة المنورة

في طريق العودة

١

وأنشد صديق ونحن نأخذ أهبتنا لمغادرة المدينة قول الشاعر :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ
وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ !!

نعم ، ما أروع تلك اللحظات التي استقبلنا فيها مقام الرسول نلقى عليه تحية الوداع ! !

. . . وانطلقت بنا السيارة إلى جدة بعد الغروب ، وكأنها تحمل أجساداً قد انخلعت عن قلوبها وأرواحها تلك الهائمة حول القبة الخضراء . . .

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فَمُذْ خَفِيَتْ
عَنِّي الرُّسُومُ تَلَفَّتَ القَلْبُ !

ثم بلغنا جدة بعد أربع وعشرين ساعة ، فقد كان السائق مشوقا إلى أهله وبذورته[1] . . . وكان لا يشتد به الشوق إلا حين تشتد حرارة

(١) البذورة — في لغة أهل مكة — الأولاد . . .

الشمس ، فيأبى إلا السير فى حمارّة القيظ . ولسائق السيارات هنالك سيطرة وسلطان !!

وكانت السيارة وهى تنطلق بنا كأنها قذيفة من الجحيم ، تغمرنا أنفاسها المحترقة ويلفح وجوهنا حرور الصحراء الملتهب ، فقلت للسائق :

ــ على رسلك ياابراهيم ، فما أظنك إلا من حفدة سويد اليشكرى الذى يقول :

كَمْ قَطَعْنَا دُونَ سَلْمَى مَهْمَهاً
نَازِحَ الغَوْرِ إِذَا الآلُ[1] لَمَعْ
فِى حَرُورٍ يَنْضَجُ اللَّحْمُ بِهِ
يَأْخُذُ السَّائِرَ فِيهِ بِالصَّقَعْ[2]

وفى هذا الوصف الشعرى الدقيق ، الذى لايجيده إلا ابن الصحراء ، تتمثل لك على أروع صورة مايعانيه المضطرون للرحلة فى هذه الدروب والمفاوز فى وقدة الشمس وقيظ الصيف ، من شدة الحرارة التى تنضج اللحم وتشوى الوجوه وتحرق الأكباد . وإن السائر فيها لتذوب رأسه حقيقة لا مجازا وهو مايصيب بعض الحجاج من ضربة الشمس !!

على أن إبراهيم كان فى شغل عنا وعما نعانيه ، وعن اليشكرى وشعره ، فقد كان يهزج بأغانيه البدوية الرقيقة ، يناجى بها « سلماه » تلك المقيمة فى شعاب مكة « ترعى » « البذورة » والأغنام . .

---

(١) الآل ، السراب . . .

(٢) الصقع ، أى الصعق : وهو ما يذيب الرأس من شدة الحر . . .

وحين بلغنا طرف الجزء المرصوف من الطريق ، بدأت نسائم الأصيل تهب علينا ندية ببخار البحر ، ثم لم تلبث أن لاحت لنا جدة مع الغروب ، تستقبلنا مجلوة فى زينتها من عمارة وأضواء . .

وأنك لتشعر بالانتقال المفاجىء من حياة الصحراء الموحشة القاسية إلى صميم الحضارة المترفة الناعمة ، وأنت تحط رحالك معنا فى فندق البساتين بجدة ، وتبيت ليلتك فى مسكن منفرد أنيق ، مزود بالثلاجة الكهربائية وتكييف الهواء ! !

٢

ومدينة جدة هى الثغر الأول للمملكة العربية السعودية ، أنشأها عثمان بن عفان ، وبلغت شأوا بعيداً من العمارة والتجديد فى عهد الملك عبد العزيز ثم فى عهد الملك سعود . وكان بها مقر وزارة الخارجية والسفارات الأجنبية . وهى مركز النشاط التجارى والاقتصادى ، وحلقة الاتصال بين المملكة وأقطار العالم .

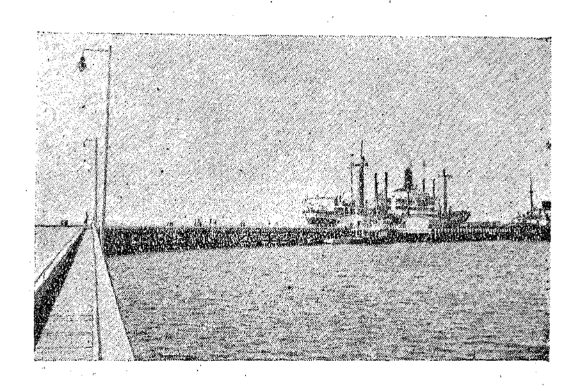
وقد امتد العمران فى هذه المدينة إلى الشرق فى طريق مكة ، وإلى الشمال فى طريق المدينة ، حتى نشأت أحياء جديدة متعددة ، تكاد تؤلف مدائن أخرى على أحدث طراز ...

وكان أشد ما يلقاه أهل جدة والحجاج الوافدون عليها من العناء ، بسبب قلة المياه الصالحة للشرب ؛ إذ كانوا يعتمدون على مياه الأمطار التى يختزنونها فى أحواض كبيرة ، ولم يكن فى طاقة الغالبية العظمى

منهم أن يحصلوا على ماء البحر المقطر لكثرة تكاليفه وقلة انتاجه .
ولهذا كان مشروع إمداد جدة بالمياه العذبة النقية ، وهو المشروع الذى بلغت تكاليفه مليونا من الجنيهات ، من أجل المشروعات الإنسانية والعمرانية التى تمت فى تلك البلاد .

وقد حفز نجاح فكرة مدينة الحجاج فى جدة إلى وضع مشروع لاقامة عدة مدن أخرى بالقرب من الميناء ، تخصص كل منها لحجاج كل قطر من الأقطار الاسلامية .

وقد زرت ميناء جدة ، وكنت أسمع من الحجاج الذين كانوا ينزلون به منذ سنوات أن البواخر لم تكن تستطيع أن ترسو على الميناء،



وأنها كانت تقف بعيداً فى عرض البحر ، ثم ينزل الحجاج منها إلى زوارق بخارية أو شراعية تنقلهم إلى الساحل . وتروى فى ذلك بما كان يعانيه آلاف الحجاج ألوان من الشدة والفزع والاضطراب ...

أما الآن فقد أقيم الميناء الجديد الذى بلغت تكاليفه اثنى عشر مليوناً من الدولارات ، بحيث يستقبل باخرتين كبيرتين من عابرات المحيط زنة كل منهما عشرة آلاف طن ، تفرغان حمولتهما من الركاب والمتاع فى وقت واحد .

على أنى شهدت فى الميناء أفواجاً من الحجاج العائدين إلى بلادهم ، وهم فى حالة من الكرب والبـــلاء تثير الألم والرثاء ...

إنهم بعد أن حجزوا أماكنهم فى إحدى البواخر ، وانتقلوا من مدينة الحجاج إلى الميناء استعداداً للابحار إلى بلادهم ، إذا بهم يفاجأون بالباخرة وقد شغلت جميع أماكنها ولا أمل لهم فى السفر ، ولا سبيل إلى مأوى يعودون إليه وقد تقطعت بهم الأسباب ...

وتحريت الأمر فإذا صورة من الاستغلال والعبث بحقوق الحجاج وعواطفهم ، ذكرتنى بتلك القصة التى مثلها أحد مكاتب السياحة فى القاهرة ، إذ تقاضى من بعض الحجاج نفقات السفر فلما ذهبوا إليه بعد أيام يتسلمون تذاكرهم ، لم يجدوا المكتب ولا الكتاب !

إنها ناحية هامة ينبغى أن تخضع لرقابة شديدة وضمانات كافية ، واشراف دقيق على التنفيذ .

٣

قال صاحبي :

ـــ إنك رجل عاق ، لا تعرف للأمومة حقها .

قلت منزعجاً : كيف ، وما أدراك ؟ ! لقد كانت أولى القربات التي تقدمت بها إلى الله بين يدى فريضة الحج ، هي أن أقطع عشرات المئات من الأميال بين يوم وليلة لأؤدى حق الأمومة وواجب البنوة ، نحو تلك السيدة المقيمة في موطن الأسرة بأقصى الصعيد .

قال : لقد أبعدت ، فلست أعنى إلا أمك الثاوية هنا في جدة !

قلت : أوَ تهزل ياصاحبي ، ثم لاتجد مادة للهزل إلاالأمومة والأم !

قال : عفواً ، إنها أمك وأمي حواء !

قلت : وهل أمنا حواء تثوى هنا في جدة ؟

قال : نعم . وإن لها مزاراً يحج إليه كثيرون من أبنائها البررة الأوفياء

قلت : أما أنها تثوى هنا في جدة فأمر لا أطمئن إلى صحته . وما أظن من البر بأمنا حواء أن نزور مايتوهم هؤلاء الكثيرون أنه قبرها ، ولكن البر كل البر بهذه الأم الكبرى هو أن يبر كل منا بأمه الصغرى حفيدة حواء ، والتي يتمثل فيها معنى الأمومة المتجددة الخالدة .

ثم وافقت صاحبي على أن نزور هذا الذى يسمونه قبر حواء ، لأضيف إلى مشاهداتي لوناً من ألوان المشاهد والآثار .

وهنالك في ظاهر جدة بالقرب من المطار ، آثار هذا القبر الذى يبلغ طوله ١٠٥ أمتار ، وكانت تقوم عليه قباب وأبنيـــة ، ومن طريف

ما ذكره البتنونى فى « الرحلة الحجازية » أن الشريف عون الرفيق أمير مكة حينما أراد هدم تلك القباب ، تعرض له قناصل تلك الدول الأجنبية فى جدة ، باعتبار أن « حواء » أم البشر جميعا وليست أم المسلمين وحدهم !

٤

وفى يوم السبت غرة المحرم قصدنا إلى قصر الملك فى جدة نستأذن الملك سعود فى السفر ، واجتمعنا هناك بالأستاذ عبد الله بلخير الوزير المفوض وسكرتير الملك . وهو شاب ممتلئ حيوية ولباقة ، متنوع الثقافة والتجربة ، أتم دراسته العالية فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، واكتسب ثقافته العملية فى قصر الملك وبين مضارب البادية . وهو فى مكتبه يستقبل أخلاطا من الزوار الأجانب وزعماء العشائر ، فإذا هو مع هؤلاء رجل المدنية والدبلوماسية ، ومع أولئك ربيب البادية وفتى الصحراء .

وتفضل الملك سعود فدعانا لتناول طعام العشاء قبل أن يأذن لنا فى السفر . وعدنا إلى القصر بعد الغروب ، فإذا رحاب القصر قد تحولت إلى مسجد كبير يقوم فيه الجند والخدم بأداء الصلاة .

وفى الطابق العلوى من القصر ، التقينا بالمستشرق الانجليزى جون فلبى أو الحاج عبد الله فلبى فى لباسه البدوى . . تلك الأسطورة الحية التى عاشت فى صحراء الجزيرة العربية منذ ربع قرن من الزمان !

وخفّ الرجل مسرعا إلى الشرفة يتطلع نحو الأفق البعيد .

إنه يرصد هلال المحرم الوليد . . .

اندماج مطلق فى حياة البادية ، استغرق هذا الأوربى ربيب المدنية

والحضارة ، فأحاله بدوياً قحا فى مظهره ومخبره ، وفى تأثره بتقاليد البادية وحياة الصحراء .

وقال صديقى مخاطباً الحاج عبد الله فلبى :

ــ أعلم أن لك مكانتك فى هذه البلاد بما شاركت من رأى وعمل أكثر من ربع قرن من الزمان ، ولكنك فى نظر الكثيرين أسطورة غامضة تنطوى على كثير من الخفايا والأسرار .

قال : أفصح . . .

قال صاحبى : أى أنك حلقة جديدة فى سلسلة الجاسوسية البريطانية يا خليفة لورنس العظيم !

ولم يغضب الرجل لهذه المصارحة القاسية ، ولم تستطع حرارة الشمس وحمية البادية التى عاش فيها ربع قرن من الزمان ، أن تغير من طبيعته الانجليزية « الباردة » .

ولكنه أجاب فى سخرية لاذعة :

ــ الحق يا صديقى أن الانجليز ليسوا فى حاجة الى بث الجواسيس من أبناء جلدتهم فى البلاد التى يستعمرونها أو التى تمتد اليها مطامعهم ، لأنهم يجدون دائما من أبناء هذه البلاد وتلك من يقوم لهم بأداء هذه المهمة خير قيام . . .

وغص صاحبى بريقه فلم يعقب . . .

وانبريت أتلقف الكرة ثم أقذف بها اليه فقلت :

— ولكن الانجليز هم المسئولون عن إفساد هذه الضمائر ، وان جرائمهم فى حكم هذه البلاد والقضاء على مظاهر القوة وعناصر التقدم ، واشاعة الفقر والجهل والانحلال ، واثارة الفتن والخلافات . . . كل ذلك لا تستطيع أن تنكره يا خليفة لورنس العظيم ! !

فأجاب فى برود الانجليزى وصراحة البدوى :

— لا أنكر ذلك ولست فى حاجة الى انكاره . ولكن قل لى — ورب الكعبة :

— على يد من كان الانجليز ينفذون هذه السياسة الرقطاء ؟

أليس على يد الرؤساء والزعماء من رجالكم بلا مراء ؟ !

وغصصت بريقى فلم أستطع جوابا ، ولم يستطع صاحبى . . وماذا عسانا أن نقول ؟ !

وأنقذنا من هـــذا الموقف صوت الملك سعود يدعونا للعشاء . . .

كان ذلك منذ أربعة أعوام . . .

وكانت هـذه السياسة البريطانية الرقطاء التى صورها فلبى فى برود الانجليزى وصراحة البدوى ، قـــد ولدت فى وجدان الأمة العربية براكين من الثورة آن لها أن تنفجر ، وأن تقذف حممها المدمر على تلك الأوضاع الفاسدة التى أقامها الاستعمار فى كثير من البلاد العربية ، وأن تحترق بلهيبها تلك الأصنام التى نصبها الاستعمار من صنائعه فى تلك البلاد . . .

فكانت ثورة مصر التحريرية ، وامتداد هذه الثورة فى شرايين

الأمة العربية فى كل مكان ... من شمال أفريقيا إلى الأردن ، وإمارات الخليج الفارسى ، وجنوب الجزيرة العربية .

ثم كانت الهزيمة الساحقة لصنائع الاستعمار ، الذين كان يتحدث عنهم ولبى فى خبث وشماتة ، وكانت النهاية المحتومة لمستر جون فلبى — خليفة لورنس العظيم — إذ طرده الملك سعود من المملكة العربية السعودية ، بعد أن انكشف عن وجهه قناع الزيف والخداع .

(٥)

وأبلغنا المطار موعد قيام الطائرة من فجر يوم غد ، فبتنا ليلتنا فى الفندق ساهرين .

وكانت تتنازعنا فى تلك الليلة مشاعر مختلفة ، فنحن إذ نشعر بالغبطة والطمأنينة والرضا بعد أن وفقنا الله لأداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوى والمقام الشريف ، يخالط هذا الشعور كثير من اللوعة لمغادرة هذه الأرض الطيبة التى وصلتنا فترة من العمر بالسماء ، وتمتزج بهذا الشعور وذاك أشواق الفرح بلقاء الأهل والولد بعد غيبة وانقطاع

وحلقت بنا « زمزم » قبيل الفجر فى سماء جدة ، ثم انطلقت تأخذ مجراها نحو الشمال الغربى ، حتى إذا لاح ضوء الفجر على أطراف الأفق البعيد ، أذن بيننا مؤذن أن حى على الصلاة !

موقف آخر من تلك المواقف الرائعة التى تملك العقل والقلب والوجدان ، ونحن نؤدى صلاة الفجر فوق مجارى السحاب ، ونستقبل الكعبة متعلقة بها قلوبنا وأبصارنا ، وكأننا نمارس تجربة روحية لا يزيدنا

فيها انطلاق الطائرة بعيداً بعيداً إلا قربا من الكعبة واندماجا فى جوها القدسى وتعلقاً بأستارها السوداء ... تجربة نفيد منها حين نغمرنا موجة الحياة الصاخبة ، وتتجاذبنا تياراتها العاتية من جديد .

وشهدنا مولد الشمس أول من شهده من الأحياء، وما زالت الأرض من تحتنا تظلل أوديتها سحابة رقيقة من الظلام .

وبعد قليل أحسسنا بالطائرة وهى تهبط بنا على غير توقع منا ولا انتظار ، فما زال بيننا وبين الطور أكثر من ساعة ، فانخلعت قلوبنا وأوجسنا شراً من وراء هذا الهبوط المفاجئ فى قلب الصحراء ... ولكن تبين لنا فيما بعد أنها محطة بالقرب من « الوجه » هبطت فيها الطائرة لتتزود من الوقود ...

وأقبل علينا من قرية الوجه القريبة من البحر بعض الغلمان يحملون أنواعاً من السمك والأحياء المائية مختلفة الأشكال والألوان ؛ أنواعا عجيبة ذات ألوان زاهية منمقة كأنها طيور الزينة ، وأخرى غنية بالمواد الحيوية يتهافت عليها الخبراء فى فن تجديد الشباب .

واستأنفت الطائرة سيرها حتى بلغنا الطور وقد غمرتنا فرحة الوصول إلى أرض مصر ، ثم حملتنا السيارات إلى « المحجر » الصحى فى مكانه المنعزل بالصحراء ، وهنالك فى ذلك المكان الذى كان مأوى للمعتقلين الأحرار من ضحايا العهود المظلمة السوداء ، وطرائد الظلم والاستبداد ؛ أقمنا أياما ثلاثة داخل الأسوار الشائكة فى مبان حديثة مزودة بالماء والنور ، وقد أعدت فى بعض أقسامها الأسرة والمقاعد لمن شاء من النزلاء

مقابل ثلاثة جنيهات فى الدرجة الأولى ، وجنيهين فى الدرجة الثانية ، أما الدرجة الثالثة فيفترش نزلاؤها مالديهم من فراش على ألواح خشبية بالمجان

ويتألف المحجر من عدة مجموعات من المبانى منفصل بعضها عن بعض ، وهى تتسع لنزول بضعة آلاف من الحجاج ، وفى كل مجموعة مقصف للطعام والشراب ، أظنه لم يتغير كثيراً عما كان عليه وقت أن كان المحجر معتقلا للمغضوب عليهم من الأحرار . . .

وبكل مجموعة مكتب يتولى إرسال البرقيات والمحادثات التليفونية ، أما البرقيات التى ترد إلى النزلاء فيحملها إليهم من المكتب الرئيسى بالطور سعاة يقفون من وراء الأسوار الشائكة ، وينفخ أحدهم فى مزماره فيجتمع الحجاج تجاهه يتسمعون لما يلقى عليهم من أسماء .

وكانت إقامتنا فى الطور رتيبة مملة ، لا سيما فى تلك العزلة المضروبة علينا فيما وراء الأسوار ، وقد أنشأت هذه العزلة شيئاً من التآلف والتعارف بين النزلاء ، فكنا نقضى الوقت فى التزاور وتبادل الأحاديث والأسمار ... وودت لو أمكنتنى الفرصة من زيارة « جبل موسى » فى ذلك الوادى المقدس طوى ، حيث وقف موسى يناجى ربه ويقول :

— رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ...

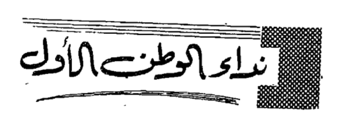
قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً !!

وأُذن لنا أن نغادر المحجر ... ولا تسل عن الفرحة تهز المشاعر نحن نتخطى الأسلاك الشائكة ، وننطلق إلى المطار ، حيث تقطع بنا الطائرة آخر مرحلة فى تلك الرحلة المباركة .

وما هى إلا ساعة حتى كانت الطائرة تحوم بنا على سماء مصر الجديدة ، ثم تدور عدة دورات وهى تهبط رويداً رويداً ، وكأنها تنهنه أشواقنا الخافقة المتدفقة نحو أرض الوطن الحبيب .

الرحلة الثانية



استجابة...

هأنذا أعود إلى الأرض الطيبة[1] والعود أحمد إن شاء الله ...

منذ عامين ونصف ، قدمت إلى هذا البلد الأمين استجابة لدعوة ابراهيم من وراء الغيب البعيد ، فقضيت شهراً فى حساب الزمن ولكنه كان عمراً لاحدود لأبعاده الزمنية، عشت فيه بروحى ووجدانى فى التاريخ الحى المتجدد ، منذ منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، إلى عهد الاشراق المحمدى الذى أضاء بنوره الخافقان ، وما زلت أنتقل فى عوالم الذكرى حتى انتهى بي المطاف إلى عهد البعث العربي الذى انبثق من قلب الجزيرة ، على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود . . .

(١) ديسمبر ١٩٥٤ .

ثم ها أنذا أعود إلى الأرض الطيبة ، مهد العروبة ، ومنزل الوحى ، ومشرق النبوة ، وقبلة الإسلام . .

أعود إليها فى هذه المرة استجابة لدعوة أخرى ، هى دعوة الملك سعود التى وجهها على إثر ولايته العرش إلى أبناء الجزيرة فى مختلف البلاد ، ليسهموا فى بناء العهد الجديد ، عهد النهضة والارتقاء ، بعد عهد التأسيس والبناء

هذه الدعوة التى وعيتها بمعناها الواسع العميق ، دعوة الوطن العربي الأول ، الذى تدافعت موجاته منذ ثلاثة عشر قرناً ، تحمل رسالة العروبة والاسلام إلى مختلف الآفاق ، توجه الآن من جديد إلى أحفاد أولئك الرواد العرب فى مختلف الأقطار . . .

إن لهذا البلد الأمين حقاً على كل عربي ، وكل مسلم . هو حق الأبوة التى تجرى فى دماء العرب حيثما كانوا على تعاقب العصور والأجيال ، وحق العقيدة التى تنبض بها قلوب المسلمين فى شتى بقاع الأرض ...

وهذا الحق هو الذى اقتضاني أن ألبي تلك الدعوة فى غبطة وسرور ، وأن أعود إلى المملكة العربية السعودية لأسهم فى بناء النهضة الصحفية فى هذه البلاد ...

في ميدان الصّحافة

١

قال لى السيد أحمد عبيد المؤسس والمدير العام لمؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة ، وهو يودعنى بمكتب الاستاذ أحمد قاسم جودة فى القاهرة ، ليلة سفرى إلى المملكة العربية السعودية :

— إن رئيس تحرير مجلة الرياض فى انتظارك ...

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى ، وإن لم أفهم مغزاها الا يوم وصلت الى جدة ، وقصدت الى دار مجلة الرياض ...



الأستاذ أحمد قاسم جودة
رئيس تحرير جريدة الجمهورية
كان مديراً لمكتب المؤسسة بالقاهرة



السيد أحمد عبيد

رائد الطباعة والصحافة والنشر



السيد مدنى بن حمد

رئيس تحرير مجلة الرياض

فمنذ اللحظات الأولى من وصولى ألفيت نفسى فجأة فى دوامة عنيفة، مصدرها هذا الإعصار الذى يجتذب فى دوامته ويلف فى محيطه كل من يعمل معه . . .

ولم ألبث الا فترة يسيرة ، ثم استأذنت ، وأحرمت بالعمرة ، وفزعت الى بيت الله ألوذ به من هذه الدوامة الرهيبة ، وأستعين رب البيت على حمل العبء فى هذا الميدان الخطير . . .

لقد عشت عشرين عاما فى محيط الصحافة ، مهنة البحث عن المتاعب كما يقولون ، وشهدت نماذج لاحصر لها من الصحفيين الذين يحرقون أعصابهم ويذيبون شبابهم فى البحث عن المتاعب ، ولكنى اكتشفت هنا نموذجا جديدا لا يكتفى بالبحث عن المتاعب فحسب ، بل إنه يتعب هذه المتاعب حين تقع فى قبضته !

ووواجهنى طوفان من العمل . . .

إخراج العدد الجديد من مجلة الرياض ، دراسة حلقات جريئة من سلسلة المشروعات التى تعدها مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، تنفيذ تصميمات معينة لمشروعات أخرى . . .

كل ذلك ورسائل البرق والتليفون والبريد تستنجز صدور العدد الجديد من المجلة ، بعد أن تأخر صدوره عن موعده المحدود . . .

وقلت للأستاذ مدنى بن حمد رئيس التحرير :

— أمرى الى الله . . . لا حيلة لى فى الهروب من « أخطبوط » العمل الذى فرضته على نفسك ، وعلى من يعملون معك . فأنا بين يديك بياض النهار وسواد الليل ، أضرب معك فى كل ميدان ، ولكنى أرجو — للتوفيق بين جميع الاعتبارات — أن نعمل على إصدار العدد الجديد من الرياض فى عشرين صفحة . . .

ولكنه أجاب فى عناد :

— بل عدد ممتاز فى ٥٢ صفحة !

ودارت بى الأرض ... إن مثل هذا العدد يحتاج اعداده واخراجه الى جهود مضنية فيما لا يقل عن خمسة عشر يوما ، فكيف بنا نصدره على هذه الصورة فى بضعة أيام ؟

وكان ما لا بد أن يكون . . .

إن مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر عامة ، وقسم الصحافة خاصة ،

انقلب ذلك كله الى ما يشبه خلايا النحل فى الحركة الدائبة وفى الطنين أيضا . . . وتبارت الأقسام المختلفة : التحرير والادارة ، والتصوير والحفر ، والجمع والتوضيب ، والطبع والتجليد ، فى انجاز هذا العدد الممتاز . . .

تحولت كل هذه الأقسام الى أعصاب مرهفة لاخراج هذا العدد ، فى الوقت الذى تقوم فيه بأعمال أخرى هامة ، تتصل بالمشروعات الكبيرة التى رسمت المؤسسة خطوطها وأوشكت أن تفاجىء بها القراء . . .

وبدور الجهاز الكبير ، ولا أكاد أضع السماعة لأبدأ فى إعداد ملزمة من ملازم المجلة ، حتى أرفع السماعة لأسمع من رئيس التحرير أمرا باعداد الملزمة التى تليها ، ولما يمض على أمره الأول لحظات . . .

وما إن أضع السماعة ، حتى يدخل على الساعى وفى يده مظروف ضخم وعليه اشارة من رئيس التحرير بعمل « ماكيت » لهذا المواد وارسالها الى المطبعة فوراً . . .

وتدور بى الأرض كلما دق جرس التليفون أو دخل مكتبى ساعى رئيس التحرير !

ويجلس معى فى الغرفة زميلى المترجم العتيد الأستاذ كامل صموئيل مسيحة ؛ إنه « دينامو » لا يهدأ عن الترجمة ، ولكنه يثير أعصابى أضعاف ما يثيرها رئيس التحرير . . .

أطلب منه أن يترجم للعدد مختارات من المجلات الإفرنجية ، وبعد عشر دقائق يقدم لى مائة صفحة من حجم الفولسكاب ، فأتلقفها منه



الأستاذ كامل صموئيل مسيحة
مترجم ذرى !!

الأخ سلامة حسين حمودة
عامل فدائي ...

مبهورا بهذا النشاط الذرى . . . ولكنى أكاد أصعق حين أقرأ عنوان الصفحات المائة . . . إنها ترجمة كتاب عن مدينة جدة !

ويدخل الأخ سلامة والدم ينزف من يده اليمنى . . .

إنه العامل الذى يقوم بالجمع على آلة « اللينوتيب » وقد أصابه جرح خطير أثناء العمل . . .

وبقدر ما تألمت لهذا الحادث ، فقد شعرت بالارتياح !

إنها فرصة أعاود فيها مراجعة رئيس التحرير فى عدد صفحات المجلة . . .

ولكن رئيس التحرير يبتسم فى هدوء وهو يقول :

ــ إلى أن يتم شفاء الأخ سلامة ، فإن قسم الصف يستطيع أن يمدنا بإنشاء من الصفحات . . .

وقبل أن أغص بريق ، ينبرى الأخ سلامة فى احتجاج مهذب قائلا :

ــ لا والله . . . لئن أصيبت يدى اليمنى ، فلسوف أعمل بيدى اليسرى حتى يخرج العدد ممتازا كما تريدون ويريد القراء !

سلمت يمينك يا سلامة . . .

هذا الروح الفدائية التى تسيطر على جميع أسرة « الرياض » وأعضاء المؤسسة ، كانت تحية طيبة إستقبلت بها العمل فى مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، التى تعتبر صرحا قويا للنهضة الصحفية والثقافية فى المملكة العربية السعودية ، ومركزا للإشعاع الفكرى فى هذه البلاد .

وبهذه الروح الفدائية ، والجهود المخلصة الصادقة ، صدر العدد الممتاز من مجلة الرياض . . .

وواصلت المؤسسة جهادها فى دعم النهضة الصحفية والثقافية على صورة سابقت بها الزمن ، ووصلت بمجلة الرياض إلى مستوى رفيع لا يقل عن مستويات الصحافة الحديثة فى أرقى البلاد العربية . . .

٢

وللصحافة فى هذه البلاد تاريخ يرجع إلى نحو ٧٦ عاما . . .

فقد صدرت أول صحيفة بمكة سنة ١٣٠١ هـ وهى صحيفة رسمية كانت تصدر باللغتين التركية والعربية باسم « الحجاز » ثم توقفت عن الصدور سنة ١٣٢٧ عند قيام جمعية الاتحاد والترقى .

وصدرت بعدها بمكة صحيفة « شمس الحقيقة » باللغة العربية .

ثم صدرت صحيفتان بجدة هما « الإصلاح والصفا » ولكنهما احتجبتا بعد بضعة أشهر ، وكان ذلك فى العهد العثمانى ...

فلما قام العهد الهاشمى صدرت فى سنة ١٣٣٤ جريدة « القبلة » وبعد بضع سنوات جريدة « الفلاح » ثم « المجلة الزراعية » .

ولما انتهى عهد الملك حسين فى الحجاز ، وتولى ابنه الملك علىّ حكم البلاد وانتقل إلى جدة ، أصدر بها جريدة « بريد الحجاز » وظلت تصدر حتى تنازل الملك على عن العرش فى سنة ١٣٤٣ ...

ومن ثم بدأ العهد السعودى فأصدر جريدة « أم القرى » وهى الجريدة الرسمية للمملكة العربية السعودية وأقدم الصحف التى تصدر الآن ... وكان يقوم على تحريرها وتوجيه سياستها معالى الشيخ يوسف ياسين ، ثم تولاها على التوالى الأساتذة رشدى ملحس ، ومحمد سعيد عبد المقصود وعبد القدوس الأنصارى ، وفؤاد شاكر ، والطيب الساسى .

وقد أعدت مديرية الإذاعة والصحافة والنشر التى أنشئت أخيراً برياسة معالى الشيخ عبد الله بلخير ، مشروعاً لإصدار هذه الجريدة يومية بدلا من صدورها أسبوعية .

وفى سنة ١٣٤٧ صدرت مجلة « الاصلاح » وكانت خاصة بالشئون الدينية ، وتولى إدارتها وتحريرها الشيخ حامد الفقى .

ثم صدرت فى سنة ١٣٥٠ جريدة « صوت الحجاز » وكان صاحب امتيازها الشيخ صالح نصيف ، ثم انتقل امتيازها سنة ١٣٥٤ إلى شركة

تألفت برياسة معالى الشيخ محمد سرور الصبـــان وهى « شركة الطبع والنشر » وتعاقب على رياسة تحرير هذه الجريدة عبد الوهاب آشى ، ومحمد حسن فق ، ومحمد حسن عواد ، وسعيد العامودى ، وأحمد ابراهيم الغزاوى ، ومحمد حسن كتبي ، وأحمد خليفة ، ومحمد على رضا ، وحسين عرب ، وحسين خازندار ، وأحمد السباعى ، وأحمد قنديل . ومحمد على مغربى ، وفؤاد شاكر ، وعبد الله عريف ، وظلت هذه الجريدة تصدر حتى قيام الحرب العالمية الثانية حيث توقفت عن الصدور .

وهؤلاء الذين تولوا أمر جريدة أم القرى ، وجريدة صوت الحجاز هم رواد الصحافة فى المملكة العربية السعودية ، وما زال بعضهم يعمل فى ميدان الصحافة ، واتجه الكثيرون منهم إلى ميدان السياسة والأدب والاقتصاد ، فصاروا من أعلام هذه الميادين ...

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عادت جريدة « صوت الحجاز » إلى الصدور باسم آخر هو « البلاد السعودية » صدرت آنئذ أسبوعية ثم مرتين فثلاث مرات فى الأسبوع . وفى سنة ١٣٧٣ صدرت يومية وهى الجريدة اليومية الوحيدة التى تصدر فى هذه البلاد ، ويرأس تحريرها الآن الأستاذ فؤاد شاكر .

ومن الصحف التى تصدر الآن وتمثل التطور الصحفى فى المملكة العربية السعودية مجلة « المنهل » لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ عبد القدوس الأنصارى ، وقد مضى على صدور هذه المجلة أكثر من عشرين عاما ، وهى مجلة شهرية تعنى بالعلوم والفنون والآداب ، وتبلغ مستوى رفيعاً فى التحرير والإخراج ...

وأنشأت الإدارة العامة للحج فى سنة ١٣٦٦ مجلة «الحج»، وكان يرأس تحريرها الأستاذ هاشم يوسف زواوى، ويشرف عليها الآن الأستاذ سعيد العامودى، وهى تعنى بالشئون الدينية والتاريخية، وبكل ما يتصل بشئون الحج من مباحث وقرارات.

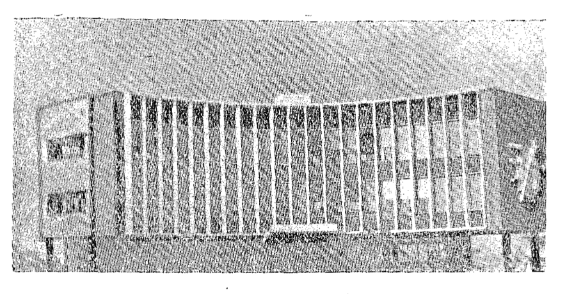
وكانت تصدر بالمدينة المنورة فى العهد التركى صحيفة باللغتين التركية والعربية، وكانت تطبع على «البالوظة». أما الآن فتصدر بها مجلة أسبوعية باسم «المدينة المنورة» لصاحبيها الأستاذين على حافظ وعثمان حافظ، وهى الصحيفة الوحيدة التى تصدر بالمدينة وتؤدى فى ميدانها جهوداً طيبة.

وصدرت فى الرياض سنة ١٣٧٢ أول صحيفة هى مجلة «اليمامة» لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ حمد الجاسر، وقد أنشأ لها داراً للطباعة وسد بها فراغاً فى ميدان الصحافة الأدبية والاجتماعية.

وهناك مجلة «أخبار الظهران» ومجلة «قافلة الزيت» وهما تصدران فى المنطقة الشرقية، وتكملان الشبكة الصحفية التى تمتد فى جميع أنحاء البلاد

وكان أهم حدث فى تاريخ الصحافة بالمملكة العربية السعودية هو إنشاء مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر.

كانت فكرة نبتت فى جو النهضة المنطلقة التى شهدتها المملكة العربية السعودية فى عهد الملك سعود، هذه النهضة التى شملت مختلف الميادين وكان لابد أن تشمل ميدان الصحافة، لتسهم بالصحافة فى تدعيم هذه النهضة وإطلاق الأنوار الكاشفة إلى الآفاق البعيدة التى تنطلق إليها الجهود والأفكار.



وذات يوم من أيام رمضان سنة ١٣٧٠ ولدت هذه الفكرة فى خاطر السيد احمد عبيد المدير العام للزراعة وقتئذ ، فعرضها على الملك سعود فباركها وأيدها . واجتمع صفوة من الأمراء ورجالات المملكة العربية السعودية فأعلنوا فى أعقاب عيد الفطر المبارك ميلاد هذا المشروع الجليل

وقام السيد احمد عبيد برحلات عدة إلى أوربا وإلى مصر لاستيراد الآلات ، والتعاقد مع وكالات الأنباء ، والاستعانة بالخبراء والمستشارين.

وفى يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ إفتتح الملك سعود مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة ، وانطلق فى الجو هدير تسع وأربعين آلة من أحدث آلات الطباعة ، ومن ورائها مائة وستون من العمال والمهندسين والخبراء .

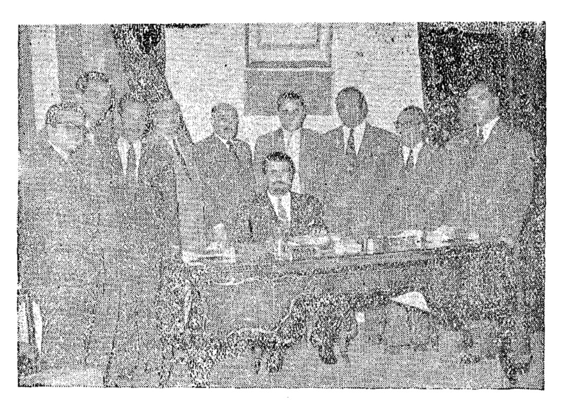
وأنشئت مكاتب للمؤسسة فى كثير من العواصم ، وكان أول إنتاجها صدور مجلة « الرياض » ووضع للمؤسسة برنامج ينفذ فى خمس سنوات يتضمن المشروعات الآتية :

جريدة يومية باللغة العربية .
جريدة يومية باللغة الانجليزية يقرؤها الأجانب المقيمون بالمملكة
مجلة أسبوعية للشئون العربية والاسلامية .
مجلة أسبوعية للشئون الاقتصادية .
مجلات شهرية للعلوم والفنون والآداب والتربية والتعليم .
سلسلة كتب شهرية فى مختلف نواحى المعرفة .
دائرة معارف عربية إسلامية .
مصحف يصدر من منزل الوحى .
نشر التراث القديم الذى تزخر به مكتبات الحرمين .
طبع الكتب المدرسية والمطبوعات الحكومية والأهلية .

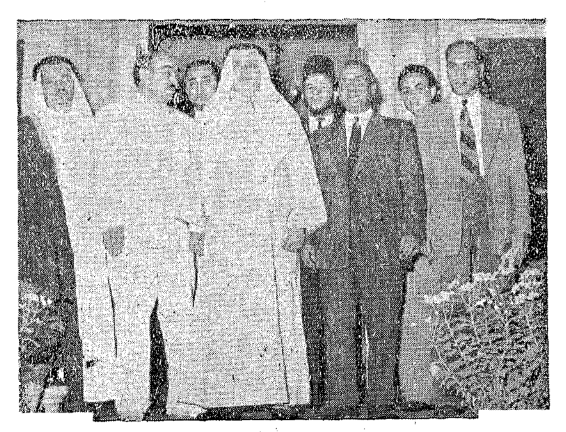
هذا هو مشروع السنوات الخمس الذى وضعته المؤسسة لإحداث أعظم نهضة صحفية وثقافية فى المملكة العربية السعودية ، تواكب بها النهضة العمرانية والاقتصادية التى قطعت أشواطاً بعيدة فى العهد الأخير.

ومضت المؤسسة فى طريقها فأقامت داراً فخمة عند الكيلو الخامس فى طريق مكة ، وظلت مطابعها تواصل العمل ليل نهار . ونجحت مجلة الرياض فى أداء رسالتها فكانت صورة مشرقة للفن الصحفى ولليقظة الواعية فى هذه البلاد ، ومعرضاً لإنتاج الكتاب والشعراء والإخصائيين من أبناء الجزيرة وغيرها من البلاد العربية والإسلامية .

ولكن لم تلبث أن تعرضت المؤسسة لمحنة أصابت أول ما أصابت مجلة الرياض فتوقفت فجأة عن الصدور ، وعدت أدراجى بعد خمسة أشهر إلى القاهرة ، حيث دعانى السيد أحمد عبيد لأعمل معه مديراً لتحرير مجلة « صرخة العرب » التى أصدرها بالقاهرة .



الأمير محمد بن عبد العزيز فى زيارته لدار مجلة صرخة العرب



اسرة صرخة العرب فى السفارة السعودية يوم عيد الجلوس

٤



وفى الوقت الذى تعثر فيه مشروع مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، كانت الدولة تعد مشروعا آخر فى هذا الميدان، إذ أصدر جلالة الملك سعود فى ١٦ شوال سنة ١٣٧٤ مرسوماً بإنشاء مديرية عامة للاذاعة والصحافة والنشر، يشرف عليها سكرتير جلالته الوزير المفوض معالى الشيخ عبد الله بلخير.

ومهمة هذه المديرية — كما جاء فى المرسوم الملكى — هى التنظيم والتنسيق والإشراف على وسائل النشر فى المملكة، ونشر الحقائق والمعلومات عن سير حركة الإصلاح فيها والدفاع عن سمعتها، كما تشمل شئون الصحافة والإذاعة والمطبوعات.

وقد قام معالى الشيخ عبد الله بلخير بزيارات عدة إلى العواصم العربية لدراسة أساليب الإعلام واقتباس أصلح ما يقوم عليه هذا الجهاز من أنظمة وبرامج، ولإنشاء فروع للمديرية العامة بهذه العواصم.

ثم عاد فبدأ يتكوين هذا الجهاز الذى يشمل عدة أقسام: للإذاعة والصحافة والمطبوعات والنشر.

وقد زرت المديرية العامة فى رحلتى الأخيرة وشهدت مظاهر العمل الدائب الذى تقوم به مختلف الأقسام ، ومن ورائها الوزير الشاب يوجه الجهود ويرسم الأهداف ، ولن تمضى فترة طويلة هى فترة الإعداد التى تمر بها المديرية الآن ، حتى تبرز مشروعاتها الصحفية والإذاعية والثقافية ، وتسهم فى نهضة البلاد بأوفر نصيب . .

وحبذا لو حرصت هذه المديرية على أن تشمل رسالتها إلى جانب ذلك ، إنقاذ مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر من المصير الذى انتهت إليه واحتضان هذا المشروع الذى يتصل برسالتها أوثق الصلة ، والذى لا يمكن أن ينهض به فرد على الوجه الذى يحقق أهدافه القومية .

وقد يكون من الخير أن تحتفظ تلك المؤسسة بكيانها المستقل ، وأن تكون مظهراً من مظاهر النشاط الشعبى فى هذا الميدان ، ولكن المصير الذى انتهت إليه يجعل ارتباطها بجهاز الدولة خيراً من تركها حرة فى وضعها الأخير ، وهو وضع وقف بها عن المضى فى سبيل تحقيق المشروعات الصحفية والثقافية الكبيرة التى أنشئت من أجلها ، وحصر جهودها فى أضيق الحدود .

هنا مكة المكرمة !

١

كان ذلك فى يوم الحج الأكبر ...

التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٦٨

ومئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام يقفون فى عرفات ، مكبرين مهللين مبتهلين ، ومئات الملايين فى العالم الإسلامى يتجهون بقلوبهم إلى ذلك الموقف العظيم . . . حين انطلق صوت الإذاعة لأول مرة من البلد الحرام هاتفا : باسم الله ، هنا مكة المكرمة !

وترددت أصداء هذا الصوت الحبيب ، يجاوبها هتاف مئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام ، ومئات الملايين من مسلمى الأرض ...

وكانت أول كلمة تذاع ، هى الكلمة التى أعدها المغفور له الملك عبد العزيز وألقاها نيابة عنه الأمير فيصل حيث قال :ـ

« أحمد الله الذى جعل من هذا البلد الحرام مثابة للناس وأمنا .. أحمده وأشكره والشكر من نعمائه ، أن يسر للناس حج بيته العتيق ، وجعل قلوبهم تهفو اليه ، ليشهدوا منافع لهم ، وتتآلف قلوبهم بذكر

الله ، فى هذه البقاع الطاهرة التى كانت منزلا للوحى لهدى الناس أجمعين .
وأصلى على رسول الله الذى بعثه بالهدى ودين الحق . . .

وبعد ، فإنه ليسرنا أن نخاطب إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، من هذا البلد الحرام فى هذا اليوم المبارك ، ونتناصح ونتواصى بالبر والتقوى ، وندعو الجميع للتمسك بكتاب الله وإخلاص العبادة له ، كما امرنا ربنا « إياك نعبد وإياك نستعين » ندعو حجيج بيت الله الحرام لنبذ كل ما يخالف أمر الله واتباع ما أمر الله به ، كما ندعو كل المسلمين لأن يجمعوا قلوبهم على كلمة الإخلاص ، وأن يزيلوا ما بينهم من خلافات ، وأن يعتصموا بحبل الله .

هذه دعوتنا لإخواننا المسلمين عامة ولإخواننا العرب خاصة . وإننا لنرجو الله مخلصين ، أن يتقبل من إخواننا حجاج بيت الله الحرام حجهم ، وأن يستجيب دعاءهم ، وأن يعيدهم إلى أهليهم فائزين غانمين بغفرانه ورضوانه ، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل » .

والاذاعة العربية السعودية كانت فكرة فى خاطر « الأمير » سعود ولى العهد ، كاشف بها والده جلالة الملك عبد العزيز ، وأيد جلالته هذه الفكرة وأمر بتنفيذها ، ثم عهد إلى الأمير فيصل بالإشراف على شئون الإذاعة فى مراحلها الأولى ليكفل لها كل أسباب الرعاية والنجاح ، حتى اذا ما استقرت دعائمها ورسخت تقاليدها تولى الإشراف عليها معالى الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية والاقتصاد الآن ، وقام بادارة شئونها

الأستاذ إبراهيم فودة الذى سار بها فى طريق التطور خطوات واسعة ، ثم الحقت أخيرا بالمديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر .

وقامت الإذاعة العربية السعودية أول الأمر على قمة جبل هندى بمكة المكرمة ، ثم اتسعت مرافقها فشغلت داراً أخرى بمكة وأنشىء لها « استديو » بجدة ، ثم أقيمت فى جدة محطة إرسال قوتها ٥٠ كيلوات

وقد افتتح الملك سعود هذه المحطة مساء يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٣٧٧ الموافق ٣ سبتمبر ١٩٥٧ .

وتذيع دار الإذاعة العربية السعودية برامجها الآن على موجة متوسطة طولها ٤١٣ متراً بذبذبة قدرها ٧٢٥ كيلو سيكل فى الثانية ، وتوجهها على خمس موجات قصار اتجاهاتها وأطوالها كما يلى :

١ ـــ الرياض ومنطقة البحر العربى ٣١٫٣ متراً نهارا و٧٥ متراً ليلا

٢ ـــ المدينة المنورة واليمن والسودان ٧٦٫٩ متراً .

٣ ـــ جمهورية مصر ٢٥٫٢ متراً نهاراً و٤٨٫٤ متراً ليلا .

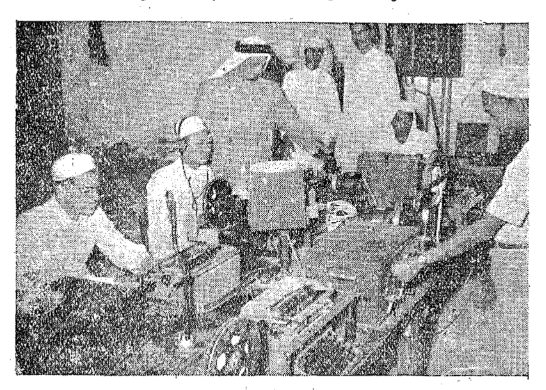
٤ ـــ سوريا ولبنان ٢٥٫٥ متراً نهاراً و٥٠٫٩ متراً ليلا .

٥ ـــ العراق والمملكة الأردنية الهاشمية ٢٥٫٦ متراً نهاراً و٤٩٫٣ متراً ليلا .

وهناك موجة قصيرة طولها ٥٠٫٢ مترا يذاع عليها من الحرم مساء كل يوم القرآن الكريم وأذان العشاء . وتتضمن برامج الإذاعة القرآن الكريم ، والأحاديث الدينية والاجتماعية والثقافية ،



الدكتور طه حسين فى زيارة دار الإذاعة السعودية



أجهزة الاستقبال فى محطة الإذاعة السعودية

والتمثيليات ، والموسيقى ، والتعليقات السياسية ، والأخبار العالمية والمحلية ، والأركان المتنوعة ، والتسجيلات الخارجية لصور النشاط الاجتماعى والاقتصادى فى البلاد . ويشترك فى هذه البرامج كثير من أعلام الفكر والثقافة والفنون فى العالم العربى والإسلامى . . .

كما تذيع من الحرم خطبة الجمعة والصلاة ، وأذان المغرب فى شهر رمضان ، ومواقف الحج من مناسكه المختلفة كل عام .

وللاذاعة برامج خارجية تذيعها باللغتين الاوردية والاندونيسية ، يستمع إليها ملايين المسلمين فى اندونيسيا والهند وباكستان ، كما يستمع إليها أبناء تلك البلاد المقيمون بالمملكة العربية السعودية . . .

وتصدر الإذاعة مجلة شهرية تسهم فى النشاط الثقافى والإذاعى ، وتنشر برامج الإذاعة باللغة العربية والأوردية والأندونيسية . وقد سدت حيزاً كبيراً من الفراغ الذى أحدثه توقف مجلة الرياض عن الصدور .



في موكب العلم والثقافة

١

شهدت المملكة العربية السعودية في النصف الثاني من شهر يناير سنة ١٩٥٥ مهرجاناً رائعاً للعلوم والفنون والآداب ، إذ كانت مقراً لاجتماع اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية في دورتها التاسعة .

وأعتقد أن اللجنة الثقافية لم تلق دورة من دوراتها من الاحتفال بأمرها وتركيز الأضواء عليها ، كما لقيت تلك الدورة ، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين : أما أولهما فهو مكان انعقاد اللجنة ، وأما الآخر فهو شخصية رئيس اللجنة ...

إن عقد هذه الدورة في المملكة العربية السعودية ، وفي هذا الوطن العربي الأول ، مهد العروبة والاسلام ، قد جاء على ميعاد مع اليقظة التي بدت مظاهرها تتألق في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية ؛ هذه اليقظة التي نرجو أن تكون موصولة الأعماق بماضي هذا الوطن العزيز على كل عربي وكل مسلم ، وأن تكون امتداداً للرسالة التي حملها السلف فجعلوا من هذه الأرض منارة يهتدي بنورها

العالم ، حملوها فى هذا الوطن ثم انطلقوا بها ينشرونها فى مختلف أرجاء الأرض ..

فليس يكفى أن يكون هذا البلد الأمين الذى اشرق منه نور النبوة وانبثقت منه رسالة الإسلام ؛ قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة فحسب ، ولكن ينبغى أن يعود هذا البلد الأمين — كما كان — مصدراً للاشعاع القوى الذى يهتدى بنوره العالم ، وقبلة تتوحد حولها العقول والافهام كما توحدت القلوب والأرواح ...

ولا شك أن بين هذا البلد الكريم وبلوغ هذه الغاية أشواطاً بعيدة ، وأن هذا البعد الذى تخلف بمهد العروبة والاسلام عن مقامه الأول فى ميدان الحياة ، إنما تقع التبعة فيه على العرب والمسلمين جميعا منذ آماد بعيدة ، شغل فيها العرب بنشر الاسلام وتوطيد أركانه فى أقطار كثيرة ، وعلى مدى السنين والأحقاب كانت الحضارة العربية الاسلامية تزدهر فى هذه الأقطار ، بينما ظل هذا البلد الأمين يجتر ذكريات أمجاده الأولى ، ولا حظَّ له فيما أثمرت رسالته فى مختلف الأقطار من ثمرات تلك الحضارة .

ومن العجيب أن يكون مبلغ ايمان العرب والمسلمين بحق هذا البلد الأمين عليهم ، هو أنهم كانوا يتبارون فيما مضى من الزمان فى إهداء التحف والنفائس إلى الكعبة وإلى المقام النبوى ، وأن تتنافس الدول العربية والاسلامية فى المواكب التى تحمل ستائر البيت العتيق ، وأن يتبرع الأثرياء بالأموال صدقة على جيرة بيت الله ..

وقد كان خليقا بهذا البلد الأمين أن يكون له النصيب الأوفى فيما أثمرت رسالته فى تلك البقاع من عزة وعلم وحضارة ، وألا ينسى أولئك المسلمون بعد أن مكن الله لهم فى الأرض واستخلفهم فى كثير من أقطارها ... مافى أعناقهم من دين لهذا البلد الأمين ، وما يقتضيه هذا الدين من الوفاء والاخلاص — لا على تلك الصور الهزيلة الذليلة ، وانما على الصور الكريمة العزيزة التى تليق بمكانة هذا البلد الأمين وفضله على الإنسانية جمعاء ...

كان لابد إذن من أن يعلم العرب والمسلمون هذا الحق على وجهه الصحيح ، وأن يؤدوا هذا الدين على صورته الكريمة ... علما وحضارة وانطلاقا فى ميدان الحياة ، إن لم يكفل له القيادة كما بدأ أول مرة ، فلا أقل من أن يكفل له المساواة بالبلاد العربية والاسلامية التى قامت أمجادها وبلغت أهدافها على أساس دعوته وهدى رسالته ...

وقد أذن الله لهذا البلد الأمين أن يبعث من جديد ، منذ استقرت فيه دعائم الوحدة والأمن والعدل ، بعد أن كان ممزق الأوصال تستشرى فيه الفتن وتخترم الحرمات ، ثم منذ تفجرت فيه ينابيع الثروة المعدنية فلم يعد عالة على الحجيج والهبات ... فما إن توافرت فيه هذه المقومات حتى انطلق من عقاله يركض ركضاً فى ميدان الحياة ويطوى أشواطه غير وانٍ ولا متريث ، كأنما يحاول أن يستدرك مافات وأن يلحق بركب الحضارة من أخصر طريق ، وليس ذلك على الطبيعة العربية بجديد ؛ فقد استطاع العرب فى صدر الإسلام أن يؤدوا رسالتهم وأن يقيموا

حضارتهم فى أقصر مدة عرفها تاريخ الحضارات الانسانية ...

وفى هذا الوقت الذى تنبعث فيه النهضة العربية الاسلامية فى هذا البلد الأمين ، تتخذ اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية من هذا البلد مقراً لعقد دورتها التـــاسعة ، فتلقى من الاحتفال بشأنها وتركيز الأضواء عليها مالم تلقه دورة من دوراتها السابقة فى أى بلد من البلاد ...

ذلك لأن هذا الاحتفال وتلك الأضواء ، انما ينبعث كلاهما من معنى واحد تجمع فيه الوفاء ببعض ما لهذا البلد الأمين على العرب والمسلمين من حق ، والأمل فيما ستحققه النهضة القائمة فيه من أهداف ..

هذا هو أحد العاملَين اللذين ركزا على اجتماع اللجنة الثقافية فى المملكة العربية السعودية الاهتمام والأضواء .

أما العامل الآخر ، فهو شخصية رئيس اللجنة ...

أنه الدكتور طه حسين ...

فمنذ أعلنت الصحف والإذاعة نبأ اعتزامه الحضور إلى المملكة العربية السعودية رئيساً للدورة التاسعة ، سرت فى المجتمع العربى السعودى هزة عنيفة ، تختلف بواعثها ومظاهرها أشد الاختلاف ...

أما فى محيط الشباب المثقف ، فقد كانت هزة النشوة والسرور ، بقدوم عميد الأدب العربى ورائد النهضة الفكرية والثقافية ، إلى مهد العروبة والمسرح الأول لتاريخها المجيد ...



المؤلف مع الدكتور طه حسين عقب وصوله إلى جدة ./. .

وأما فى محيط رجال الدين ، فقد كانت هزة الإنكار والازورار ..
إذ كيف يدخل البلد الحرام رجل كانت له مذاهب وآراء سحبت عليه فى وقت ما ظلالا مريبة نكراء ؟!

وأما فى محيط الشيوخ من أهل العلم والأدب ، فقد كانت هزة يشوبها الاشفاق بما سيكون عليه موقف الدكتور طه حسين بين أولئك وهؤلاء ...

٢

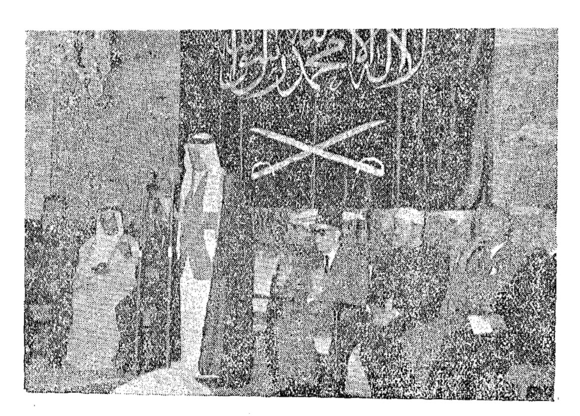
وحرصت على أن أختلى بالدكتور طه حسين فى فندق الكندرة فور وصوله إلى جدة ، ثم ألقيت إليه فى صراحة مقنعة بكل هذا الذى أثاره أمر زيارته للمملكة العربية السعودية ...

وعقدت اللجنة الثقافية يوم ١٥ يناير أول جلسة لها بفندق قصر الكندرة ، وافتتح الدورة سمو الأمير فهد وزير المعارف بكلمة قيمة ، ثم وقف الدكتور طه حسين ليلقى كلمته ...

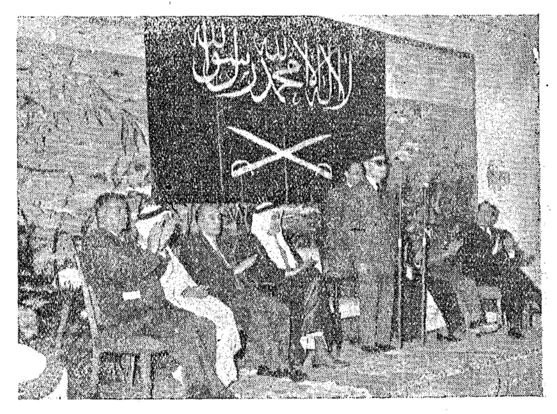
وأرهف الجميع آذانهم وقلوبهم لما عساه أن يقول ...

واستفتح محيا جلالة الملك سعود ، ثم بدأ بقوله :

— سادتى : كان الفرنسيون فى بعض أوقاتهم يتحدثون عن انتشار ثقافتهم فى الأرض فيقول قائلهم : أن لكل مثقف وطنين ، أما أولهما فوطنه الذى ولد ونشأ فيه ، وأما الآخر ففرنسا التى تثقف فيها أو تلقى الثقافة عنها ...



الأمير فهد يفتتح الدورة التاسعة للجنة الثقافية



الدكتور طه حسين يلقى كلمته فى حفل افتتاح الدورة

وهنا ظهرت على الوجوه آثار انفعالات شتى .. بعضها ينبئ عن الترصد ، وبعضها ينبئ عن الإشفاق !!

ولكنه حين استطرد فقال :

ـــ ... وكنا نسمع هذا الكلام ، وكنا نرى فيه شيئا من حق وكثيرا من سرف ؛ ولكن الذى أريد أن أقوله الآن هو الحق كل الحق ، لا نصيب للسرف فيه من قريب أو بعيد ، فلكل مسلم وطنان لا يستطيع أحد أن يشك فى ذلك شكا قويا أو ضعيفا ... وطنه الذى نشأ فيه ، وهذا الوطن المقدس الذى هداه إلى الهدى ، والذى يسره للخير ، والذى عرفه نفسه وجعله عضوا صالحا مصلحا فى هذا العالم الذى نعيش فيه ...

عند ما قال الدكتور طه حسين هذا القول ، تبدلت آثار الانفعالات على الوجوه ... فقدتنفس المثقفون الصعداء ، ومسح المتربصون على عيونهم يتأملون هذا الواقف على المنصة يلقى هذا الكلام .. هل هو حقيقة الدكتور طه حسين ؟ !

ومضى الرجل فى خطابه المتدفق الساحر حتى قال :

ـــ .. وثقوا أننا لا نغلو ولا نتكثر ولا نفاخر بالباطل ، اذا قلنا إن الغرب الأوربى والأمريكى الآن على تفوقه ، إنما هو مدين بتفوقه كله لهذه الأصول الخصبة الدائمة التى نقلها العرب إلى أوربا فى القرون الوسطى ، ولا ينبغى مطلقا أن نتحرج من أن نطالب الأوربيين ـــ وقد طالبتهم كثيرا ـــ بأن يردوا إلى الشرق بعض دينه عندهم ،

وألا يكونوا ملتوين بما عليهم من الدّين ... لا أن يسرفوا فى العزة بالإثم ، ولا أن يبغوا على الذين أحسنوا اليهم ، والذين علموهم كيف يكون الإحسان !

ثم يتحدث الدكتور طه حسين عن واجب العرب الآن نحو أنفسهم، ونحو الأمانة التى ورثوها عن أسلافهم ، ويمضى فى حديثه فيقول :

ـــ ... وواجب آخر يفرضه علينا الدين الذى أوحى إلى الإنسانية فى هذه الأرض المقدسة ، وتفرضه العروبة التى نقلت هذا الدين من هذه البيئة المقدسة إلى أقطار الأرض ، وهذا الواجب لا سبيل اليه الا بالعلم والثقافة . . . هذا الواجب هو أن نكون هداة ، وقد أمرنا الله أن نكون هداة ؛ وقد ائتمننا على دينه ننشره ما وجدنا إلى نشره سبيلا ، وأمرنا أن نكون دعاة إلى الخير ، آمرين بالمعروف ، مسارعين إلى الخير ، نصنع هذا كله لا لشيء الا لنكون جديرين بهذا الدين الذى حمله العرب فحملوا أمانته .

واختتم الدكتور طه حسين خطابه الرائع بقوله :

ـــ أما بعد ، فانى أسعد الناس وأعظمهم غبطة بأن أشعر الآن بأنى أتحدث فى بلاد العرب التى عاش فيها محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأصحابه ، وفى البلاد التى مر عليها وقت كان أهلها يقولون فيه : ما أشد قرب السماء إلى الأرض ... ثم مر عليها وقت بعد وفاة النبى كان بعضهم يبكى لا لأن شخص محمد قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ـــ بل لأن خبر السماء قد انقطع عن هذه البلاد !!

ودوت القاعة بالتصفيق . . .

تصفيق الايدى والقلوب !!!

وكانت هزة عنيفة ، لم تختلف بواعثها ومظاهرها هذه المرة فى جميع الأوساط ، هزة الغبطة والتقدير فى محيط الشباب المثقف ، وشيوخ العلم والأدب ، ورجال الدين . . . على السواء !!!

ثم اذن للاذاعة التى سجلت هذا الخطاب ، بأن تذيعه على الملأ فى المملكة العربية السعودية وفى مختلف الآفاق . . .

٣

ثم كانت الصورة الرائعة يوم أحرم الدكتور طه حسين لأداء العمرة . . .

وهناك فى المسجد الحرام طاف الدكتور طه حسين بالكعبة المشرفة ، والتقت شفتاه بالحجر الأسود فى قبلة عميقة خاشعة !!

وعاد الرجل يستأنف عمله فى اللجنة الثقافية . . .

وفى الحفل الذى أقامته مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر لتكريم أعضاء اللجنة الثقافية ، كان الأستاذ عبد الله عريف رئيس تحرير جريدة « البلاد السعودية » وقتئذ ، يهمس فى أذن الدكتور طه قائلا :

ـــ بماذا دعوت الله وأنت تطوف ببيته العتيق ؟ !

فأجاب الدكتور طه باسماً :



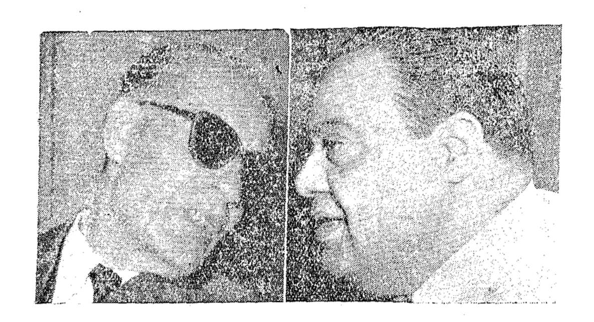
ـــ ما أجرأكم أيها الصحفيون . . . إنكم لا تكتفون بأن تحاولوا أن تدخلوا بين المرء وقلبه ، ولكنكم تحاولون أن تدخلوا بين المرء وربه !

على أن الدكتور طه حسين أجاب على هذا السؤال عندما عاد إلى مصر وسأله الأستاذ كامل الشناوى فى حديث له بمجلة آخر ساعة :

ـــ كيف كان شعورك وأنت فى هذه الأماكن المقدسة ؟

أجاب يقول :

ـــ لقد سألونى هناك مثل هذا السؤال . . . وقلت لهم : ما بالكم تقحمون أنفسكم بين المرء وربه ؟ !



قال الشناوى :

إننى بهذا السؤال لا أقحم نفسى بينك وبين ربك ، ولا بينك وبين قلبك . . ولكن أحاول أن أقحم معلوماتى عن المفكر الثائر ، طه حسين .

لقد عرفتك لا تبالى ما يقول الناس عنك ، وما أكثر ما صنعوا . . لقد اتهموك بالكفر . . . ووصل الأمر إلى النيابة العامة ، وخرجت من الاتهام بريئاً نقيا . . . كان لذلك منذ ربع قرن أو أكثر ، عندما ألفت كتاباً عن « الشعر الجاهلى » .

. . . لقد عرفتُ الشائعات ، فمن حق إذن أعرف الحقائق ! !

وأطرق الدكتور طه حسين ، ومسح جبينه بيده ، كأنما يحاول أن ينفض عن رأسه غبار بعض الذكريات ، وقال :

ــ لقد سبق أن عشت بفكرى وقلبي فى هذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاماً ، منذ بدأت أكتب « على هامش السيرة » حتى الآن .

ولما زرت مكة والمدينة أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبي وجسدى جميعاً ، عشت بعقلى الباطن ، وعقلى والواعى . استعدت كل ذكرياتى القديمة ، ومنها ماهو من صميم التاريخ ، ومنها ما هو من صميم العقيدة . وكانت الذكريات تختلط بواقعى فيبدو حقائق حينا ورموزاً حينا . . وكان الشعور بها يغمرنى ويملأ جوانب نفسى . .

قال الشناوى :

ــ هل أخرجك هذا الشعور عن المألوف ؟

فابتسم الدكتور طه وقال :

ــ على أى حال لم أصل إلى درجة انجذاب . . كنت دائما فى كامل وعي . أخذتنى الرهبة والخشية والخشوع كل مأخذ عندما كنت وحدى ! !

فسأله :

ــ هل زرت الأماكن المقدسة مرتين ؟

فأجاب :

ــ لا . . . بل زرتها مرة واحدة ، وكنت فى هذه المرة الواحدة مع الناس ومع نفسى فى وقت معا ! !

قال الشناوى :

ــ هذا كلام يحتاج إلى إيضاح . . .

فقال الدكتور طه حسين :

. . . اليك هذا الإيضاح . لقد جرت العادة عندما يصل المرء إلى الكعبة ، أو المسجد النبوى ، أن يتسلمه طائفة من الناس يسمون فى مكة « بالمطوفين » أى الذين يقومون باجراءات الطواف بالكعبة ، ويسمون فى المدينة « بالمزورين » أى الذين يقومون باجراءات الزيارة لقبر الرسول عليه السلام . وقد حاولت جهدى أن أتخلص من المطوفين والمزورين ، ولكن محاولاتى ذهبت هباء ، ووجدتنى بين أيديهم أردد بلا وعى ما يقولونه . . ووجدتنى فى الوقت نفسه وحدى وإن كنت فى صحبتهم . . . كنت شخصيتين : شخصية واعية بلا كلام ، وشخصية متكلمة بلا وعى ! !

كانت الشخصية المتكلمة بلا وعى تردد كلام المطوفين والمزورين ، وكانت الشخصية الواعية بلا كلام تناجى ربها فى صدق وصمت وخشوع . . .

قال الشناوى :

ــ وبماذا ناجيت ربك فى صمت وخشوع . . ؟!

فأجاب الدكتور طه :

ــ قلت له ، سبحانه : اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن . . . أنت الحق ، ووعدك الحق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق . . .



اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت .. فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . . . أنت الهى ، لا إله إلا أنت !! »

٤

وكان اجتماع اللجنة الثقافية فى الأرض المقدسة ، مهرجانه ثقافيا تجاوز نطاق اللجنة فشمل المجتمع كله ، وأعاد إلى الأذهان صورة أسواق العرب الأدبية فى الجاهلية .. عكاظ ، وذى المجنة ، وذى المجاز ... إذ أقيمت فى كل مكان الحفلات الحافلة ، يتحدث فيها أعضاء اللجنة الثقافية من مختلف الدول العربية ، وعلى رأسهم الدكتور طه

حسين ، ويتجاوب معهم فى بلاغة المنطق وأصالة الشعور أدباء المملكة العربية السعودية ، تجاوبا بهر القلوب والأسماع ، وكشف عن عناصر مبدعة قادرة فى ميادين الفكر وفنون الأدب . . .

وفى غمار هـذا الموسم الثقافى الرائع ، تلقيت رسالة من ابنى عبد الرحمن ، و هو طالب صغير أولع بالشعر نظما ورواية ، يسألنى فيها :

— هل فى الجزيرة العربية شعراء معاصرون ؟

واذا كان ثمة شعراء ، فهو يطلب منى أن أبعث اليه بمختارات من شعرهم ، ليذمى فى نفسه موهبة الشعر . . .

ووقفت طويلا عند هذه الرسالة ، واسترجعت الصور القوية الرائعة التى فتن بها شعراء الجزيرة فى الجاهلية والإسلام ، قلوب العرب والمسلمين وعقولهم ، وغير العرب والمسلمين ، وهزت مشاعرهم على تعاقب العصور والأجيال . . .

هذه الصور القوية الخالدة التى افتتن بها الكبار فى دراساتهم الأدبية ، والتى جعلت من الصغار — فى حدود ما يقرءون وما يسمعون — من يتطلع بذوقه الأدبى إلى تلك المرائى اللامعة التى انعكست منها هذه الصور الرائعة . . إلى تلك البيئة العربية الخالصة التى ألهمت أولئك الشعراء فنون شعرهم القوى الجميل .

وليس هذا التساؤل عن الشعر المعاصر فى المملكة العربية السعودية وعن الشعراء المعاصرين . . . عما يدور فى خلد هذا الصبى وأمثاله فحسب ، ولكنه يدور كذلك فى أخلاد كثير من الأدباء والمثقفين فى البـــلاد

العربية ، ولا أستثنى أولئك الذين يعنيهم أمر الأدب ويحرصون على رصد معالمه وخصائصه واتجاهاته فى مختلف البلاد العربية .

وقد سمع الدكتور طه حسين فى رحلته هذه كثيراً من الشعر الحديث ، فلم يملك إلا أن يبدى إعجابه بما سمع ، وأن يعلن عجبه إذ يسمع لأول مرة هذا اللون من الشعر القوى البديع ، وعتبه على أولئك الشعراء أنهم لم ينشروا شعرهم هذا على الناس ليعرفوه ويقدروه .

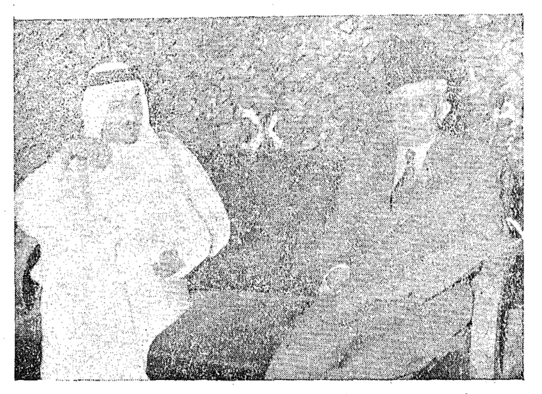
فى هذه البلاد إذن شعر وشعراء ، وأدب وأدباء ... ومن هؤلاء من يقتعد الصف الاول بين أعلام الشعر والأدب فى العالم العربى ، ولكن مكانه هذا قد يخفى على الكثيرين ؛ لأن وسائل النشر والإذاعة لم تبلغ بشعرهم وأدبهم الآفاق التى ينبغى أن يحلق فيها وتتردد فيها أنغامه وأصداؤه ...

إن شاعراً واحداً فحسب ، هو الذى استطاع شعره أن يطير فى الآفاق وأن يتردد صداه فى البلاد العربية ، ذلك هو الامير عبد الله الفيصل ، وإن شعره لجدير بذلك ، ولكن من الحق أن نقول إن مكانة الأمير هى التى مكنت شعره من أن يجتاز الحدود ، وأن يطوف فى الآفاق .

ولهذا كان على الأمير الشاعر واجباً مفروضاً نحو الشعر والشعراء فى هذه البلاد ، هو أن يقيم دولة الشعر ، ويؤدى حق أولئك الشعراء فى أن يبلغ شعرهم ما بلغ ديوان « محروم » من تألق فى سماء الأدب وانطلاق فيما وراء الحدود .



الدكتور طه حسين مع الوفد السعودى فى اللجنة الثقافية



الشاعر المحروم . . . والأخطل الصغير

وليس هذا مقام الحديث عن رواد الشعر وأعلامه فى المملكة العربية السعودية وعرض نماذج من شعرهم القوى الرائع . ولكن حسبى أن أشير إلى بعض الأسماء ... محمد حسن عواد ، وفؤاد شاكر ، وأحمد ابراهيم الغزاوى ، وابراهيم أمين فودة ، وخير الدين الزركلى ، وحسن عبد الله القرشى ، ومحمد بن على السنوسى ، وطاهر زمخشرى . وحسبى الآن هذه الإشارة الموجزة العجلى ، إلى لقـــاء آخر أوفى فيه حق أولئك وغيرهم من شيوخ الأدب وشبابه .

٥

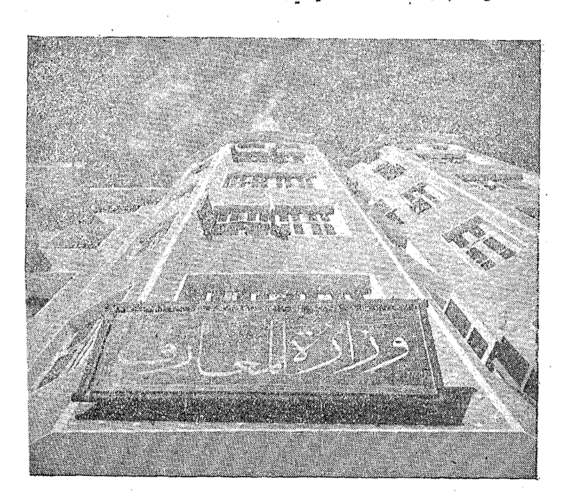
ويمكن أن نحدد التاريخ الحديث لليقظة العقلية والثقافية فى هذه البلاد ، بقيام دعوة التوحيد فى عهد الإمام محمد بن عبد الوهاب باعتبارها انتفاضة قوية كان لها أثرها فى محاربة الخرافات وتحرير العقول من العقائد الباطلة ، وتحديد الصلة بمنابع الدين الصافية .

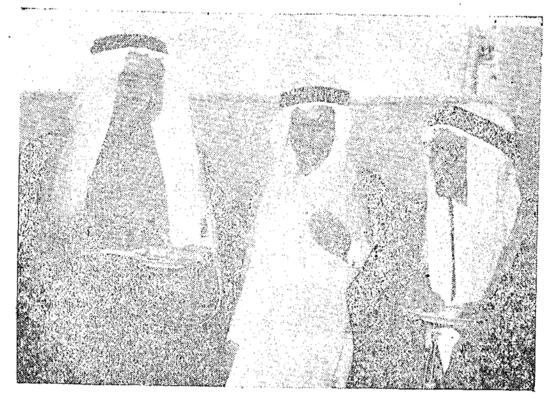
وكانت حلقات الدروس فى الحرمين تؤدى رسالتها على صورة محدودة ، ثم برزت جهود طيبة للنهوض بالثقافة الدينية والمدنية على أيدى بعض الرواد الأوائل أمثال الشيخ رحمة الله الهنـدى ، والشيخ محمد على زينل ، وأسرة السيد احمد الفيض أبادى ...

فقد أنشئت معاهد العلوم الشرعية فى المدينة ، والصولتية والفلاح فى مكة وجدة ، وفى هذه المعاهد تخرج طائفة كبيرة من القضاة والمدرسين والعلماء والأدباء ، الذين ينهض بعضهم الآن بكثير من تبعات الحكم والإدارة والإنتاج فى مختلف الميادين العامة .

أما النهضة التي قامت بها الدولة في ميدان الثقافة ، فترجع إلى نحو ثلاثين عاماً ، إذ أنشيء المعهد العلمي السعودي في الرياض لتخريج طائفة من الشباب يتولون مهمة التعليم في المدارس الأولية والابتدائية. ثم أنشئت بعد ذلك عدة معاهد ابتدائية وثانوية ودينية في مكة والمدينة وجدة والطائف على نطاق محدود ...

وتطورت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بعد انبثاق موارد الزيت ، فكان لابد أن يصحب هذا التطور انطلاق في ميدان التعليم والثقافة ، يهيء أبناء هذه البلاد لاستيعاب الحياة الجديدة والاسهام في حمل أعبائها في مختلف الميادين ...





ومن ثم شهدت المملكة العربية السعودية فى العهد الأخير ما يشبه الطفرة فى نشر التعليم والأخذ بجميع أسبابه ، كما يصورها هذا الاحصاء المقارن :

السنة	عدد المدارس	عدد الطلاب	عدد المدرسين
١٩٥١	٢٠٨	٣٤٨٧٧	١٠٥٣
١٩٥٥	٤٩٧	٥٣٤٣٤	٢١٨٨

وهكذا نجد النهضة التعليمية قد حققت فى مدى خمس سنوات ، تقدما بلغت نسبته مائة فى المائة ، وارتفعت ميزانية التعليم فى خلال هذه المدة من مليون جنية إلى خمسة ملايين ؛ الأمر الذى يدل —

لا على زيادة عدد المدارس فحسب – بل يدل كذلك على تنوعها وارتفاع مستواها بما اقتضى زيادة ميزانية التعليم إلى خمسة أمثالها فى هذه الفترة الوجيزة . . .

ولبيان ذلك نورد هنا الإحصاء التفصيلى لهذه المدارس وأنواعها وعدد من فيها من الطلاب والمدرسين .

أنواع المدارس	عددها	عدد الطلاب	عدد المدرسين
مدارس ابتدائية	٤٧٤	١٩٥٧	٥٠٩٩٢
« ثانوية	١٢	١٣٥	١٣٥٥
معاهد علمية	٣	٥٨	٦٧٧
« إعداد المعلمين	٣	١٢	١٣٩
مدارس مهنية	٣٠	١٦	١٧٤
كليات عالية	٢	٢٠	٩٧
المجموع	٤٩٧	٢١٨٨	٥٣٤٣٤

وقد استقدمت وزارة المعارف السعودية عدداً كبيراً من الأساتذة المصريين ، من رجال وزارة التربية والتعليم والأزهر وغيرهم للتدريس فى معاهدها المختلفة . ويبلغ عدد هؤلاء نحو ستمائة مدرس .

كما أوفدت إلى الجامعات فى مصر ولبنان وأوربا وأمريكا بعوثاً كثيرة ممن أتموا الدراسة الثانوية ، وهى تكفل لهم نفقات التعليم والمعيشة عن سعة ، ويبلغ عدد أعضاء هذه البعثات الآن نحو ألف طالب .



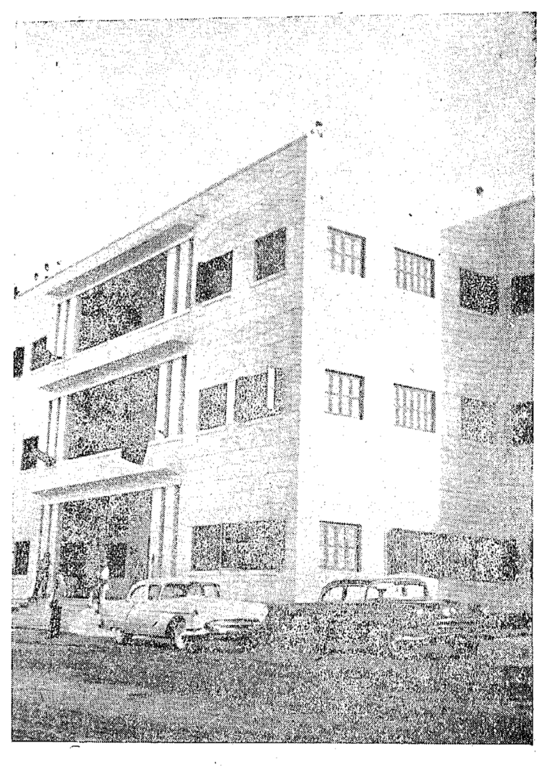
الشيخ عبد العزيز الشيخ



ناصر المنقور

وقد عاد إلى المملكة عدد كبير من الخريجين الذين يشغلون الآن عدداً كبيراً من المناصب الهامة فى الدولة ، ويسهمون فى النهوض بمختلف مرافقها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ثم لم يكتفوا بأداء مهامهم الرسمية ، بل قاموا بإنشاء مؤسسة للثقافة الشعبية لنشر الوعى الثقافى بين المواطنين ، وإتاحة الفرصة للذين لم يستكملوا دراساتهم من الموظفين وغيرهم ؛ لكى يستدركوا ما فاتهم ويحصلوا على إجازات دراسية تهيئ للكثيرين منهم مجال الترقية فى أعمالهم ومتابعة الشوط حتى نهايته بالانخراط فى سلك الجامعات .

وهنالك نوع من التعليم يتبع دار الإفتاء ، هو التعليم الدينى الذى تبلغ معاهده الثلاثين . وقد بلغت ميزانيتها فى العام الماضى نحو مليون جنيه .

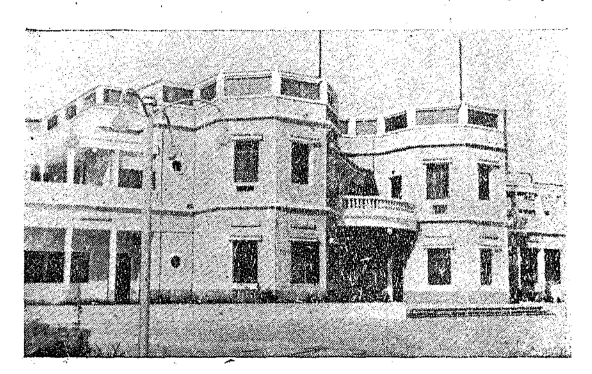


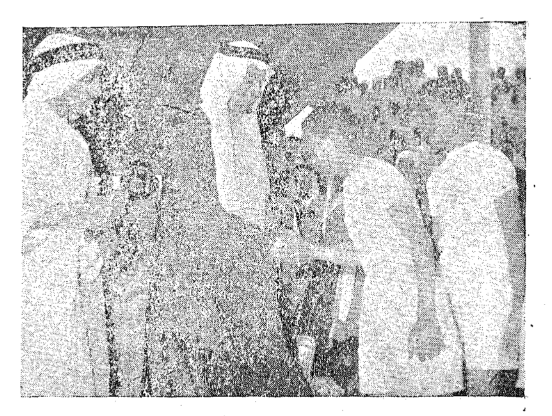
... وساهم الشعب في إنشاء المدارس . وأهدى آل الزاهد إلى وزارة المعارف هذا المبنى الذي تشغله مدرسة الفلاح الثانوية .

والتعليم فى مختلف مراحله وأنواعه بالمجان . بل إن المملكة العربية السعودية تنفرد دون بلاد العالم بأنها تدفع لجميع طلبتها رواتب ثابتة تصل فى بعض الأحيـــان إلى ١٥ جنيهاً فى الشهر ، عدا ما تتكفل به نحو الكثيرين منهم من تدبير الإقامة والغذاء والكساء !

وحين تقرر منذ عامين استقدام جميع التلاميذ الذين يدرسون فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الخارج ، وإلحاقهم بمدارس المملكة لينشأوا فيها نشأة قومية خالصة ؛ واجهت المسئولين عقبة الأماكن التى تواجه هذا العدد الوفير من التلاميذ ، وتتناسب مع مستوى المدارس التى يتعلمون فيها بالبلاد الأخرى .

وعندئذ تبرع الملك سعود بعشرة من قصوره فى جدة ، تحولت إلى مدينة علمية على مستوى رفيع ، تشغلها الآن عدة مدارس نموذجية . . . ابتدائية وثانوية ، وكلية المعلمين ، ومعهد للصناعات ، وأقسام داخلية لبعض الطلاب .





الأمير فهد يوزع الجوائز على الطلبة فى أحد المباريات

وتتخذ التدابير الآن لإنشاء جامعة « الرياض » وقد اختير الدكتور عبد الوهاب عزام مديراً لهذه الجامعة ، واختيرت لها مجموعة ممتازة من الأساتذة .

شيء واحد يعيب النهضة الثقافية فى هذه البلاد ، هو أنه لا مجال فيها لتعليم البنات اللهم إلا فى مدارس منزلية خاصة ، وفى أضيق الحدود .. على أنى أعتقد أن موجة التطور سوف تجتاح العقبات القائمة الآن فى سبيل تعليم البنات ، فإن البلد الذى أنبت عائشة التى قال فيها الرسول ﷺ

« خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ... وأنبت سكينة بنت الحسين التى كان يدور فى فلكها الشعراء والأدباء ، وغير هذه وتلك من ربات الفقه والأدب فى الجاهلية والاسلام ...

إن البلد الذى أنبت هؤلاء النساء نجوما لامعة فى سماء العلم والأدب ، لا يمكن أن يتخلف طويلا عن مقامه فى هذا الميدان .

٦

وثمة ناحية أخرى تتصل بالحياة العقلية والثقافية فى هذه البلاد ...

إن ذخائر المعرفة تملأ صدور الكثيرين من شيوخ المملكة العربية السعودية وشبابها ، وإن لهم رصيداً زاخراً وقدرة قادرة على الانتاج فى مختلف فنون العلم والأدب ، ولكن تقف فى طريقهم عقبات شتى تكاد تئد فى صـــدورهم هذه الذخائر ، وتضعف عزائمهم عن الانطلاق فى هذا الميدان ...

وليس من هذه العقبات ضعف وسائل الطباعة والنشر فى هذه البلاد ؛ وإن كان لذلك أثره قبل إنشاء مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر .

ولكن هذه العقبات تكاد تنحصر فى شىء واحد ، هو الوصاية المفروضة على المطبوعات ، والتى يتولاها فريق من رجال الدين ، لا تتوافر لديهم الأهلية الكافية لمثل هذه المهمة الخطيرة ...

ولهذا تظل أصول الكتاب تحت النظر والمراجعة شهوراً ، وقد تمتد إلى بضعة سنين .. حتى يصدر الإذن بطبع الكتاب ، هذا إذا قدر لهذا الإذن أن يصدر !!

وترتب على هذا الأسلوب في رقابة الكتب أن خمدت حركة التأليف وفترت همة المؤلفين . . . اللهم إلا من تمكنهم ظروفهم من طبع مؤلفاتهم فى مصر أو لبنان ! !

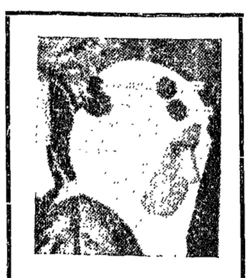
والعجيب فى الأمر أن هذه الوصاية لاتفرض إلا على الكتب التى يراد طبعها داخل المملكة ، أما الكتب المطبوعة التى تصل إليها من الخارج وتغرق أسواقها من كل لون وفى كل فن مباح أو محظور . . فلا تصل إليها هذه الأيدى التى تبطش بحركة التأليف والنشر داخل البلاد ! !

وهذا أمر لايدعو إلى العجب بقدر ما يدعو إلى الأمل فى أن تنحسر هذه الوصاية عن ميدان النشر المحلى حتى لاتظل هذه المفارقة قائمة ، وحتى تزدهر حركة التأليف والنشر ثم لا يكون انتاجها قاصراً على النشر داخل البلاد ، بل يمتد إلى غزو الأسواق الثقافية فى جميع البلاد العربية؛ فإن من هذا الإنتاج الموءود مالو أتيح له النشر لنافس كثيراً من الانتاج الرفيع فى تلك البلاد .

٧

ومما يستحق التسجيل فى ميدان الثقافة ، وفرة المكتبات العامة فى هذه البلاد . وأهمها فى مكة المكرمة مكتبة الحرم المكى ، والمكتبة الماجدية ، ومكتبة معالى الشيخ محمد سرور الصبان ، ومكتبة الشيخ

عبد الوهاب دهلوى ، ومكتبة الأستاذ ابراهيم فودة ، ومكتبة مدرسة تحضير البعثات ، ومكتبة المعهد العلمى السعودى .


الأمير مساعد بن عبد الرحمن
.. مكتبة قيمة فى الرياض ..

وفى المدينة المنورة مكتبة الحرم النبوى ، ومكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ومكتبة السلطان محمود، ومكتبة السلطان عبد الحميد ،ومكتبة بشير أغا، ومكتبة البساطى . . .

وفى الرياض مكتبة جلالة الملك سعود ، ومكتبة عمه الأمير مساعد ابن عبد الرحمن.

وفى جدة مكتبه الشيخ محمد نصيف ، ومكتبة معالى الشيخ محمد سرور الصبان ، ومكتبة الشيخ أحمد عبد الرحمن باعشن ، ومكتبة الشيخ يوسف زينل ، ومكتبة الشيخ حسونة ، ومكتبة الشيخ محمد خليل عنانى [1]

(١) للعناني ندوة أدبية طالما جمعتنا أسمارها ، وطالما نعمنا فيها بفنون الرواية التى برع فيها الصديق الأستاذ مصطفى الصباحى السكرتير الصحفى لمعالى وزير المالية، وأفانين الأدب التى يتطارحها رواد هذه الندوة ، وكثيراً ما كانت تختم هذه الندوة بالانتقال إلى المائدة ، وهى مائدة فريدة تحوى مالذ وطاب ، ولكن أبرز أصنافها فيما أرى ، الفول المدمس والطعمية ... وناهيك بهذين الصنفين فى جدة من طعام شهى ، وإن كان للزميل الصحفى الشاعر الأستاذ محمد الحناوى المحرر بالأهرام ، الذى شهد ندوة العناني ومائدته ، رأى فى طعام العناني يخالف هذا الرأى ، وقد ضمنه قصائد لاذعة من شعره الجميل .



الشيخ يوسف زينل



الشيخ محمد نصيف

ن الظهران مكتبتان لشركة أرامكو ، إحداهما فى المركز الرئيسى ،
ى لعمال الشركة ..

ن الهفوف مكتبة آل مبارك ، ومكتبة الشيخ أبو العلا ملا ،
الشيخ أحمد ملا ، ومكتبة آل عبد اللطيف ، ومكتبة آل
قادر .

ن كثير من هذه المكتبات مخطوطات نادرة ، ومطبوعات
سخ فريدة ، فى مختلف الفنون العربية والاسلامية . ولهذا كان من
رى أن تعنى الدولة والقادرون من الأفراد بحماية هذا التراث
بتصوير المخطوطات النادرة ، ونشر الآثار القديمة ، والتعريف

بما تحتوى عليه هذه المكتبات من ذخائر علمية وأدبية . . .

وقد بذلت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية بعض الجهد فى سبيل ذلك ، ولكنه جهد ينبغى ألا يقتصر الأمر عليه ، وأن تحشد له جهود كبيرة يدعمها الفن والمال .

ومن الجهود المشكورة فى هذه الناحية ما أثمر عنه اجتماع اللجنة الثقافية فى جده ؛ إذ تبرع

السيد حسن الشربتلى

السيد حسن الشربتلى بهذه المناسبة بخمسين ألف جنيه لنشر بعض المعاجم العربية والمؤلفات القديمة ، وتصوير بعض المخطوطات الهامة مما تزخر به هذه المكتبات وغيرها فى الشرق والغرب . . .

الجيش العربى السعودى

١

... وتلقيت دعوة من وزارة الدفاع لحضور المهرجان الذى يقيمه الجيش العربى السعودى بالطائف بمناسبة زيارة الملك سعود لهذه المدينة .

وفى يوم الاثنين ٢٧ رجب سنة ١٣٧٤ حملتنى الطائرة من مطار جدة ، وبعد أربعين دقيقة كانت تهبط بنا فى مطار « الحويّة » على مقربة من الطائف . وصحبنى الأستاذ عبد الله بن صالح الفضل السكرتير الأول بالديوان الملكى فى سيارته إلى دار الضيافة ، حيث استرحت بها إلى ما بعد صلاة العصر .

وكنت أتوقع أن يقام المهرجان فى مكان عام ولكنى شهدت فى هذا اليوم عجباً ، فقد كان المهرجان من نوع جديد ...

بدأ موكب الملك سعود سيره إلى مقر أول وحدة من وحدات الجيش خارج المدينة ، وهناك انضم إلى الموكب رتل كبير من السيارات تحمل المدعوين ، واخترق الموكب شوارع المعسكر وقد امتلأت بالجنود فى صفوفها المنتظمة وأهبتها الكاملة ، وظل الموكب يطوف

بأنحاء المعسكر يحي البطولة العربية المدرعة وتحييه ، وتمتلىء المشاعر ثقة بهذا الجيش الفتى ، وفخراً بنهضته الجبارة . . .

ثم لا ينتهى الاحتفال عند هذا الاستعراض الرائع ، بل ينطلق الموكب بين الوديان ويصعد هضبة عالية ماإن يشرف على قمتها حتى يطالعنا معسكر آخر رابض فى القاع الفسيح . . .

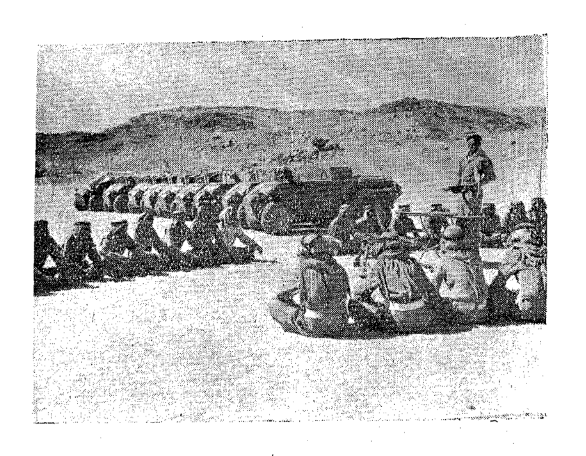
وهناك شاهدنا نوعاً آخر من أسلحة الجيش العربى السعودى، إنها وحدة ميكانيكية تملك أحدث الأسلحة والأجهزة والعتاد .

ثم ينطلق الموكب مرة أخرى . . .

ويسير فى طريق جبلية لاتوحى بأن وراءها مكانا يزار . .

ولكن فجأة ينكشف أمامنا سهل مترامى الأطراف يحتضنه جبل شاهق ، وفى هذا السهل الفسيح معسكر ثالث لوحدة أخرى من وحدات الجيش العربى السعودى الباسل . .





وهكذا ظللنا نحو ثلاث ساعات ، تنطلق بنا السيارات فى جولة طويلة بين المعسكرات العديدة المنبثة فى معاقلها بين الأودية والجبال ، نشهد فيها صورا رائعة لأسلحة الجيش المختلفة ، وقد توافر لرجالها إلى جانب البطولة التى تجرى فى عروقهم مجرى الدماء - الاعداد القوى ، وأحدث ما تتدرع به الجيوش من أسلحة وعتاد .

ثم قصد الموكب إلى نادى ضباط الجيش حيث أقيم به احتفال كبير ، وبعد أن أدى الملك سعود صلاة المغرب جماعة ، أديرت القهوة العربية واستمعنا إلى خطباء الجيش وشعرائه يحيون الملك ويؤكدون قوة الجيش واستعداده للتضحية والفداء فى سبيل الوطن . ثم القى الشيخ

جمال الحسيني مستشار الملك سعود كلمة وجهها جلالته إلى رجال الجيش ، وأعلن فيها منح جميع الضباط والجنود راتب شهر تقديرا لما أظهروه من قوة ودربة ونظام . .

وانتقلنا بعد ذلك إلى موائد العشاء ، حيث صفت الأطعمة على الطريقة العربية فى كرم وسخاء ، ثم شهدنا بمسرح النادى تمثيلية قدمها الجنود فيها تمجيد للجندية وإذكاء للشعور الوطنى. وبذلك انتهى هذا المهرجان الحافل الذى أقامه الجيش فى هذا اليوم المشهود . . .

٢

وعدت استرجع تلك الصور الرائعة للجيش العربى السعودى ، الذى كان نواته الأولى أربعون رجلا انطلق بهم الشاب الجلد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من منفى أسرته فى



الأمير فهد بن سعود وزير الدفاع



الزعيم إبراهيم الطاسان
رئيس أركان حرب الجيش

الكويت ، ففتح بهم الرياض ثم وحد أمة وأقام دولة ...

وما زالت هذه الكتائب بملابسها العربية البيضاء تؤلف قسماً كبيراً من الجيش العربي السعودي . . .

ثم اتجه الملك عبد العزيز منذ ذلك التاريخ إلى تطوير الجندية نحو الاعداد الحديث ، واستعان فى ذلك ببعض القواد العرب فى الشام أمثال نبيه العظم ، وفوزى القاوقجى ، وتحسين العسكرى ، وطارق الإفريقى ، وجعفر الطيار ، ومحسن الحارثى ، ولكن محاولاتهم فى هذه المرحلة كانت محدودة فى نطاق ظروف البلاد المالية والاجتماعية . . .

وبدأت نهضة الجيش فى عهد الملك سعود تتطور تطوراً بعيداً يمكن أن يوصف بالطفرة لا بالتطور ...

فقد عنيت الدولة بارسال البعوث إلى مصر وانجلترا وأمريكا ، واستقدام الخبراء لتدعيم أسس النهضة العسكرية فى البلاد ، وانشاء المعــاهد العسكرية والمستشفيات والمصانع الحربية والأسلحة البرية والجوية .

وأهم المعاهد العسكرية فى المملكة العربية السعودية ، كلية الملك عبد العزيز الحربية بالرياض ... وقد شيدت مبانيها على أحدث طراز ، وهى تتسع لنحو ١٠٠ طالب فى مرحلتها الأولى .

وقد أنشئت أخيراً بالظهران أول كلية بحرية بالمملكة ، لتخريج

العدد اللازم من ضباط البحرية ، الذين سيكونون نواة هيئة الأسطول البحرى فى الجيش العربى السعودى .

وأنشىء فى الطائف مستشفى عسكرى باسم الأمير منصور أول وزير للدفاع ، وأقيم فى الرياض مستشفى آخر يعتبر من أكبر المستشفيات العسكرية فى الشرق الأوسط . وهناك مستشفى ثالث فى الدمام لا يقل عنه فخامة وكفاءة ، ومستشفى رابع فى المدينة المنورة ، ومعمل لتحضير الأدوية يعتبر الثانى من نوعه فى العالم العربى .

وقد بدأ انشاء المصانع الحربية بأول مصنع أقيم فى الخرج ، وهناك مصانع أخرى تعد مشروعاتها للتنفيذ ، لتكفل تزويد الجيش بالمعدات الحربية الحديثة .

وإلى جانب الوحدات العسكرية البرية ، التى تمثل مختلف الأسلحة ، أنشىء سلاح الطيران الحربى والمدنى وفرق المظلات .

وبلغت ميزانية وزارة الدفاع والطيران فى العام الماضى ٤٦٩٫٠١٤٫٩٧٢ ريالا عربياً ، أى نحو سبعة وأربعين مليوناً من الجنيهات ...



الملك سعود يوزع الجوائز على أول فرقة لجنود المظلات



اللواء محمد إبراهيم رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى
مع أعضاء بعثة الجيش العربي السعودى بالقاهرة

ولكم في القصاص حياة !

١

كان ذلك بعد ظهر يوم الجمعة أول أبريل سنة ١٩٥٥ .

وقد فرغت من أداء الصلاة فى المسجد الحرام ، وجلست فى مكانى بمجلس إدارة الحرم ، وهو أحد الأبنية المتصلة بالمسجد كنت أوثر الصلاة فيه وقد بدت من نوافذه المطلة على فناء المسجد ، الكعبة المشرفة قائمة فى أستارها السوداء .

جلست عقب الصلاة أؤدى بعض التسابيح والأدعية ، وإذا بى أسمع ضجة خارج المسجد ، فنظرت من إحدى النوافذ المطلة على الشارع فإذا بى أشهد الجند يضربون نطاقا على منافذه ، وإذا جماهير المصلين الغفيرة قد تزاحمت خلف النطاق وعلى أسطح الدور ...

وسألت صاحبى :

— ماذاك ؟

قال : اليوم قصاص ..

إن الضابط فريد سندى قتل زوجته حرقا ، وسينفذ فيه اليوم حكم الإعدام ...

وكان هذا الضابط من أبطال الرياضة فى الجيش ، واختلف يوما مع زوجته فضربها ضربة أصابت منها مقتلا . . . وخشى أن يفتضح أمره فأحرقها ليستر جريمته ، تلك الجريمة التى وقعت عن غير قصد ، فحولها إلى جريمة عامدة حمراء .

وأفلحت وسيلته تلك فى إخفاء جريمته الأولى ، فقد كان ظاهر الوفاة أن الزوجة ماتت محترقة، واحتواها التراب عدة أسابيع .

ولكن لم تلبث أشباح الجريمة أن تراءت من خلل الظلام ، وبدأ الهمس ينتشر بين الشفاه . . وفزع والد القتيل إلى الحكومة يطلب التحقيق والقصاص .

وكشف التحقيق عن سر المأساة . . .

وأصدرت المحكمة حكمها بالقصاص .

وعندئذ بدأت المحاولات مع ولى الدم ، تعرض عليه الدية لتفتدى حياة هذا البطل التعس .

إن القانون الشرعى يفتح هذا الباب من أبواب الأمل والفداء ، إعزازاً منه لقيمة الحياة ، ولكنه ترك مفتاح هذا الباب فى يد ولى الدم ، إن شاء قبل الدية ووهب غريمه الحياة ، وإن شاء تمسك بحقه وتمت كلمة القصاص ...

ولكن ولى الدم رفض الدية .

رفضها فى قيمتها المقررة ، ورفضها أضعافاً مضاعفة .

ولم يبق إذن إلا تنفيذ القصاص .

ونظرت من نافذة المسجد الحرام ، وقد أخليت الساحة التى بينه وبين « الحميدية » دار الحكومة فى مكة ، إلا من الضباط والجنود .

وهبط من الحميدية جنديان يمسكان بالقاتل من يمين وشمال ، وهو بينهما يكاد يقتلع خطواته ، حتى أجلساه فى وسط الساحة راكعاً وقد قيدت يداه إلى وراء . . .

وانطلق المذياع يقول فى صوت رهيب :

— بسم الله الرحمن الرحيم «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب» ثم يتلو صيغة الحكم ، أسبابه ومؤداه . . .

وكان يقف إلى جانب القاتل رجل أسود رهيب ، وقد وضع يده على مقبض سيفه . فما إن صمت المذياع حتى استل السيف . . . وفى حركة خاطفة أهوى به على عنق القاتل ففصلها بضربة واحدة !

وحملت الجثة إلى المشرحة ، ثم علقت الرأس على إحدى نوافذ الحميدية ، وظلت معلقة حتى صلاة العصر ، يمر بها الآلاف فتبعث فى قلوبهم العبرة ، وتقضى فى نفوسهم على نوازع الشر ، وتشعر الآمنين حماية القانون .

وقد كان هذا المشهد عميق الأثر فى نفسى ، وفى أنفس الذين شاهدوه مثلى لأول مرة . . . وأحس أنه عنيف الأثر كذلك فى نفوس الذين يشاهدونه من خلال هذه السطور . . .

وقد يختلف الرأى فى هذا القصاص ، ولكن مهما يكن من أمر فإن

الحكم السليم في هذا الموضوع لا يتم إلا إذا توافرت له عناصر أخرى لا تتصل بالعاطفة المجردة ، أو القياس السطحي على ما يجرى في البلاد الأخرى ...

هذه العناصر المستمدة من رواسب التاريخ في هذه البلاد ، التي كانت إلى ما قبل العهد السعودي مسرحاً للفتن والاضطرابات ، والاجتراء الفاجر على حرمة القانون ، والاستهانة الضارية بالأرواح ، ثم تحولت بإقامة الحدود إلى بلاد مثالية في الأمن والسلام .

٢

ولا يدرك الفارق الكبير بين حال الأمن اليوم وحاله بالأمس القريب أو البعيد ، إلا أولئك المخضرمون الذين أدركوا الحج في العهد الماضي ، ثم أدوه في العهد الحاضر . على أن هذا الفارق لا يخفى كذلك على من يزورون تلك البلاد الآن لأول مرة ، بل إنه ليبهرهم وتبهرهم المقارنة بين حال الأمن هناك وحاله في أي قطر من أقطار الأرض ، مهما يكن حظه من المدنية وقوة سلطان النظام والقانون ...

ومن الإنصاف أن أشير في هذا المقام إلى حقيقة تخفى على الكثيرين ، أولئك الذين يظنون أن ما كان يقع من البدو من عدوان على الحجاج لسلب أموالهم ، حتى ليبلغ بهم ذلك إلى سفك الدماء ... إنما يرجع إلى طبيعة البدو وتأصل روح العدوان في نفوسهم ، وهو وهم أبعد ما يكون عن الحقيقة ، لأنه لو كان الاعتداء والسلب من خواص الطبيعة البدوية لكان ذلك وقفا على البدو دون غيرهم من

الناس ، ولكان أهل الحضارة مبرئين من هذه المثالب — الأمر الذى تكذبه حوادث العدوان والسلب والنهب فى جميع البلاد المتمدنة ، بين الأفراد بعضهم وبعض بوسائلهم غير المشروعة ، وبين الدول ذات السطوة والسلطان ، التى تعتدى على الشعوب العزلاء فتهدر دماءها وتسلبها حرياتها وخيرات بلادها باسم المدنية والوصاية الدولية المدعاة !

وإنك لتعجب لذلك البدوى الذى ضريت نفسه على العدوان ، والذى يرتكب من الفظائع ما يكاد أن يجرده من إنسانيته ، كيف يجمع إلى ذلك من الفضائل والمروءات مالا تبلغه الإنسانية الا فى مراتبها العالية . . .

ذلك كان شأن البدو فى الجاهلية والإسلام ، والشواهد عليه تملأ التاريخ عبر السنين والأحقاب . وحسبي هنا موقف ذكره اللواء إبراهيم رفعت (باشا) أمير الحج فى كتابه « مرآة الحرمين » يدل على طبيعة البدو الأصيلة التى تختفى تحت ركاب هذه المثالب والعيوب ، والتى يسهل إثارة فضائلها بلمسة خفيفة ، كما يلمس « المخبر » النبع الغنى بمائه قد غطته أطباق الرمال ، فاذا هو يتفجر عن مائه العذب المتدفق الفياض . . .

فقد ذكر ما كان يلقاه الحجاج بين ينبع والمدينة من عدوان البدو وجرائمهم ، كما كانوا يلقون ذلك فى مختلف الطرق والدروب . وزاد فى ضراوة أولئك البدو أن مصر منعت عنهم ما كانت ترسله اليهم من الأموال والأرزاق عدة سنوات . ووقع أمير الحج وركبه فى مأزق خطر لا يدرى كيف ينفذ منه ، وكيف يؤمن الحجاج مغبته . فاستدعى

اليه زعماء القبائل وأخذ يباحثهم فى الأمر ، ويساومهم على ما يطالبونه به من أرزاق السنوات الماضية ، فلا تلين لهم قناة ولا يصل معهم إلى نتيجة ، ثم يجىء وقت الغداء فيقدم لهم الطعام ، فاذا طعموا وعاد أمير الحج إلى حديثه ذاك ، قال هؤلاء الزعماء إنهم يتزلون عن حقوقهم الماضية ضيافة له ، ردا على ضيافته لهم !!

بذلك عالج أمير الحج المشكلة ، فنجح فى علاجه بالقدر الذى أثار فيهم ما تنطوى عليه الطبيعة البدوية فى أعماقها من فضائل ومروءات ... ولكن هل تكفى هذه اللمسة الموقوتة المحدودة لعلاج الأمر علاجا حاسما ، يطهر هذه الطبيعة الأصيلة مما غشيها من ركام المثالب والعيوب؟

لا بد من « لمسة » أشد قوة وأعمق أثرا ، لمسة كتلك التى يعالج بها البدو أنفسهم بعض أدوائهم المزمنة المستعصية . . . الكىّ بالحديد المحمى فى النار !!

وكذلك فعل الملك عبد العزيز ...

وكذلك برئ البدو من أدوائهم التى كادت تفسد عليهم طبيعتهم الأصيلة ، فتنقلب بهم إلى وحوش ضارية تفتك بضيف الله ، وإنهم فى طبيعتهم تلك مضرب المثل فى رعاية الضيف وحماية الجار .

وحدثت المعجزة فور اللمسة الأولى ، وما تبدلت الأرض غير الأرض ، وإن البدو هم البدو والحجاج هم الحجاج ، ولكنها معجزة السماء التى لا تخيب فى الأرض ، وكلمة الله التى لا تضل فى خليقته ، قذف بها الملك عبد العزيز على الباطل فاذا هو زاهق ، وتبدلت الحياة

المضطربة أمنا وسلاما فى حرم الله ومأمن أضيافه . . .

وقد أعجبتنى قصة للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى فى كتابه « رحلة الحجاز » تصور ما حققته هذه المعجزة فى تلك البلاد من آثار، وتعتبر مثالا وعنوانا على ما يندرج وراءها من صور وأمثال . . .

فقد حدث أن أدخن جهاز السيارة التى كانت تحمل المازنى فى طريقه من جدة إلى مكة ، فنزل منها فزعا وهو يحمل عصاه ، ويبدو أن العصا وقعت منه وهو فى فزعه واضطرابه فلم ينتبه لها ، واستأنفت السيارة رحلتها بعد أن أصلح جهازها ، حتى بلغت « الشميسة » قرب الغروب ، وهى إحدى المحاط التى يستريح عندها الحجاج ، وعلى مقربة منها تقع « الحديبية » المشهورة فى التاريخ بمعاهدتها التى أبرمت بين الرسول ومشركى مكة ، حين منعوه من دخول مكة معتمرا فى ذلك العام . والتى تمت فيها بيعة الرضوان بين محمد وأصحابه . . .

قال المازنى :

ـــ وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض من مكة ، جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا ، وبينما نحن نتحادث دعى مدير الشرطة أو لا أدرى من هو إلى التليفون ، فاستأذن وذهب ثم عاد يسأل :

ـــ هل لأحدكم عصا ؟

قلت : نعم أنا لى عصا ، ولكنها فى السيارة تركتها فيها لأنى لا أدرى هل يجوز أولا يجوز أن يحمل المحرم عصا . . .

قال : وما أوصافها ؟

قلت : وما شأنك أنت بالله ؟ هى عصا والسلام . . .

قال — لا لا لا ، لقد وجدت عصا فى الطريق قرب « الرغامة » فقطعت على الناس السبيل .

فضحكت وقلت : أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ولا تخرج على النظام ، ولا تعرف قطع الطريق . . .

فلم يُجد حتى بابتسامة ، وضاعت على "النكتة فى هذا البلد الجاد ، وقال :

— ابحث عنها من فضلك ، فان الطريق مقطوع ، لا أحد يروح ولا أحد يغدو . . .

فهرولت فى مشيتى إلى السيارة فلم أجد العصا ، فعدت وقلت له :

— هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن أعتذر بالنيابة عنها !

فمضى عنى إلى التليفون ، وخفت أن يأخذونى بها ويجزونى بما صنعت ، فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه وأسررت اليه وهو يتكلم فى التليفون :

— أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

فلم يزد على أن التفت إلى وقال :

— هل نردها إلى جدة أو ندركك بها فى مكة ؟

فقلت : لست أريدها والله ، فانها فاجرة كما ترى . . . وأخشى أن ينزو برأسها خاطر آخر . أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلاً ؟

فقال للتليفون — لا لى : أرسلها مع الشرطة إلى الضيافة . . .

فصحت به : لا لا ، ردها إلى جدة من فضلك ، فحسبي ما صنعت !
فقال لمخاطبه فى التليفون : « بل ردها إلى بيت العوينى فى جدة ... »
قال المازنى بعد أن أورد هذه القصة بأسلوبه الفكه :
— « وقد أمّن ابن السعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين ،
بقطع يد السارق وما يسمونه التصبيحة . . .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج إلى بيان ، وقد قسا
ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا أن رجلا
جاء بكيس فيه بن وقال له :
— هذا كيس بن لقيته فى الطريق .

فسأله : وما أدراك أن فيه بنًّا ؟ جسسته أو فتحته ونظرت فيه ،
ولو وجدت فيه مالاً بدلا من البن لأخفيته ولم تظهره ولم تسع به إلىّ .
كلا ، حتى الجس لا يجوز ، اقطعوا يده ! !

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء فى الطريق فلا يقربونه أبداً ،
بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا إلى طريق آخر غير الذى فيه الشيء
المطروح ، حتى يمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو يمروا هم
بالشرطى فيبلغوه . وإذا لم يقعوا على صاحبه نشروا فى « أم القرى »
إعلاناً تحت عنوان « لقطات . . . »

وقد شهدت واقعة قريبة مما أشار إليه الأستاذ المازنى ، يوم حملتنى
السيارة إلى العقبة لرمى الجمار ، إذ وقفت السيارة إلى جانب الطريق ،
فلما عدت من الرمى رأيت غلاما يتكئ على نافذة السيارة لعله كان

يستريح . وقبل أن أصل إليه شاهدت شرطياً ينقض عليه فتدخلت بينهما أسأله عن الأمر فقال الشرطى :

— ما وقوفك هنا متكئاً على السيارة ؟

ولم أتهم الغلام ، ولم يكن ثمة ما يتهم به ، وتشفعت له أن يطلق الشرطى سراحه وتشفع الكثيرون . . . ولكن الشرطى أصر على أن يصحبه إلى دار الشرطة وقال :

— يكفى أن يلمس بيده ما ليس له فى غيبة صاحبه لتقطع يده !

واختفى منى الشرطى والغلام فى زحمة الحجاج فلم أهتد إليهما ، ولم أدر ما صنع الله بهذا الغلام التعيس . . .

قال المازنى :

« أما التصبيحة فشىء آخر ، تكون هناك عشيرة ضريت بالسطو ، فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة ، فإن كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فبها ونعمت ولله الحمد ، وإلا همس فى أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها ، فيذهب الرجل فى فرقة من الجيش من غير أن يفضى إلى أحد بغايته ومقصده ، ويجنب طريقه إلى العشيرة مواقع الماء ويضرب بجيشه فى الصحراء التى لا تطؤها قدم ليظل أمره خافياً وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة فى الفجر فيصلى بجيشه ، ثم يطلق عليها رجاله فيصبحونها وهم يصيحون :

هبت هبوب الجنـــة وين إنت يا باغيهـــا
خيالة التوحيد إخوان من أطـــاع الله

فلا يبقون على أحد ولا يذرون ...

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة منذ دخل الحجاز ، لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه إلى تصبيحة أخرى ... »

بهذه الحدود التى تقوم فى المملكة العربية السعودية استقر الأمن والنظام، وانتفت من بين سكانها فى البدو والحضر نوازع الشر والعدوان، وهيمنت روح القانون فكفلت لأهلها وللوافدين عليها من الحجاج حماية الأرواح والأموال والأعراض ، وكان لهم فى القصاص حياة !

* * *

والآن ماهو الجهاز الذى يسيطر على شئون الأمن العام فى هذه البلاد ؟

... فى دار الحميدية بمكة المكرمة ، وفى غرفة فسيحة إلى يسار الداخل ، استقبلنى اللواء طلعت وفا مدير الأمن العام[1] وكانت الغرفة مفتحة الأبواب غاصة بموظفى الأمن يعرضون أوراقهم ، وبعدد غير قليل من الجمهور لا يرد أحدهم عن الدخول لعرض مظلمة ، أو استنجاز مصلحة .

والمدير العام يشرف على هذه الأمور كلها فى همة وحزم ورحابة صدر.

قال له أحدهم :

— إن لى فى أحد الأقلام « معاملة » مضى عليها أحد عشر يوما وهى مدة طويلة ...

فانتفض مدير الأمن العام انتفاضة متزنة وقال :

— كيف ؟ إنها ينبغى ألا تستغرق أكثر من يومين !

ثم استدعى أحد الجنود ليصحب الرجل إلى الموظف المختص ، وقبل أن يغادر الرجل الغرفة قال له :

---

(١) كان ذلك فى أواخر مارس سنة ١٩٥٥ قبل إحالته إلى المعاش



مدير الأمن العام يتحدث إلى المؤلف

ـــ إذا صح أن هذه « المعاملة » مضى عليها أحد عشر يوما عاقبت الموظف المختص ، وإلا كنت أنت الذى تستحق للعقاب . . .

ومن بين المشاغل الكثيرة التى يضطلع بها مدير الأمن العام استطعت أن أتحدث إليه وأسمع منه قصة هذا الجهاز الذى يشرف على الأمن العام قال اللواء طلعت وفا :

ـــ إن قصة الأمن فى هذه البلاد ، يقوم هيكلها على القرآن والسيف ، وبهما استطاع جلالة الملك عبد العزيز ـــ رضوان الله عليه ـــ أن يحقق فى هذه البلاد التى مرت عليها فترات طويلة لم يكن أحد فيها ليأمن على حياته وماله وعرضه ، وكانت شريعة سفك الدماء والاعتداء على الأموال

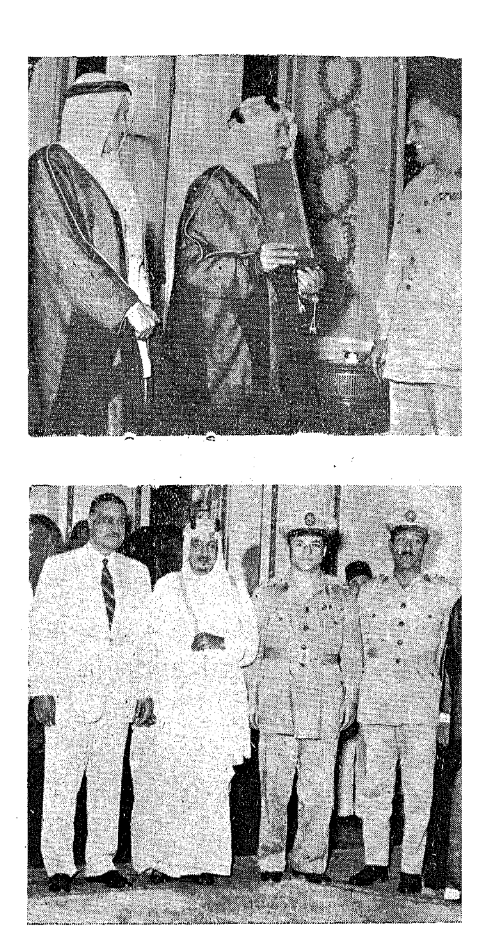
والأعراض هى التى تسود المجتمع وتتحكم فيه . وبالقرآن والسيف كتب رحمه الله سطور هذه القصة الرائعة ، قصة الأمن المثالى فى هذه البلاد ...

ثم أنشئت مديرية الشرطة وهى أول جهاز قام للإشراف على شئون الأمن ، وتطور هذا الجهاز فصار فى سنة ١٣٤٤ هـ مديرية للأمن العام لها فروع فى جميع أنحاء البلاد .

وقد استكمل هذا الجهاز كيانه على أحدث النظم تمشياً مع تطور الحياة الاجتماعية فى البلاد ، وتفرغ الأمير عبد الله الفيصل وزير الداخلية لشئون هذه الوزارة ، بعد أن كان يجمع بين وزارتى الداخلية والصحة ، واستعانت الحكومة بالخبراء فى مختلف الشئون العسكرية والادارية ، وأوفدت البعثـــات إلى مصر وغيرهـا للالتحاق بمعاهدها البوليسية ودراسة النظم والأساليب الحديثة فى شئون الأمن العام .

وقد قام الأمير عبد الله الفيصل وزير الداخلية بزيارة رسمية لمصر منذ عامين ، وقف فيها على أنظمة العمل فى مختلف مرافق وزارة الداخلية عامة ، وشئون الأمن العام خاصة . وقد أنعمت الحكومه المصرية على سموه بنيشان الجمهورية من الطبقة الأولى بمناسبة هذه الزيارة ، وأعرب البكباشى زكريا محى الدين وزير الداخلية المصرية لضيفه الكريم ، عن استعداد مصر لتقديم كل المساعدات والمعونة اللازمة لخدمه الأمن العام فى المملكة العربية السعودية ، فرد سموه على ذلك بقوله :

— إنى أعتبر مصر والمملكة العربية السعودية بلداً واحداً ، وأعتبر الأمن السعودى جزءاً لا يتجزأ من أمن جمهورية مصر.



وتتألف مديرية الأمن العام من عدة أقسام، تتولى شئون الشرطة ومدارسها، والمباحث الجنائية والتحقيقات، والجوازات والجنسية، والشئون الإدارية والحقوق العامة ...

وقد بدأت جولتي في أقسام المديرية العامة يرافقني الأميرالاي حسين زقزوق وكيل الأمن العام للشئون الإدارية، فزرت إدارة المباحث الجنائية والتحقيقات ويرأسها البكباشي عبد الرازق سعادة، وهناك شهدت مجموعة من أحدث الأجهزة التي تستخدم في المباحث الجنائية، وقد أجرى الخبير المصري الصاغ حافظ عزيز البسيد على أحدها تجربة عجيبة ...

إنه جهاز يعتبر من أخطر الأسلحة ضد الإجرام والمجرمين، وهو يشبه جهاز الراديو في حجمه ولوحته، تتصل به أغلفة معدنية توضع في أصابع المتهم. وبدأت التجربة بأن طلب الصاغ حافظ عزيز من أحد الأشخاص أن يكتب في خلوة رقما من بين الأرقام التي تتراوح بين واحد وخمسة، وإذا كان المتهم أمياً طلب منه إخفاء قطعة من النقود في جيبه ...

وانتحى الرجل بعيداً فكتب رقما من بين هذه الأرقام، ثم أخفى الورقة في جيبه وعاد فجلس أمام الجهاز، وقد وضع في إصبعين من يديه الغلافين المعدنيين المتصلين بالجهاز.



الجهاز الرهيب الذى يفضح سر المجرمين

وقال له الصاغ حافظ :

— إنى سائلك عن الرقم الذى كتبته .. هل هو واحد مثلا ، هل هو ثلاثة ... وعليك أن تجيب فى كل مرة بكلمة لا ... حتى ولو كان الرقم الذى أسألك عنه هو الذى كتبته فعلا .

ثم أدار مفتاح الجهاز وبدأ يلقى عليه الأسئلة واحداً بعد الآخر ، فيجيب على كل سؤال بالنفى ، والضابط يرقب أمامه لوحة الجهاز التى كان يتحرك عليها « مؤشر » شديد الحساسية ، يسجل عند كل اجابة حركة قصيرة ، أو لا يكاد يتحرك ، وفى حالة واحدة تحرك المؤشر إلى نهاية مداه ...

كان ذلك عندما سأله :

ـ هل الرقم الذى كتبته هو أربعة ؟

فأجاب كعادته : لا ...

وعندئذ طلب منه أن يبرز الورقة التى معه ، فاذا مكتوب بها الرقم أربعة !!

ثم تكررت التجربة مرة أخرى ، وأدت إلى النتيجة نفسها ، وكانت تلك هى المرحلة الأولى لاختبار حالة الكذب عند المتهم ؛ إن الجهاز بحساسيته الدقيقة وقدرته على رصد المؤثرات النفسية فى إجابات المتهم ، يستطيع أن يسجل بكل دقة ووضوح مدى الصدق والكذب فى هذه الاجابات ...

وعلى ورقة ذات تقسيم خاص ، كان يرصد الضابط الدرجات التى سجلها المؤشر على لوحة الجهاز ، ثم قام باجراء بعض المعادلات الحسابية لنتائج التجربة ، لتكون أساساً للمرحلة التالية ، وهى التى يستجوب فيها المتهم فى موضوع الجريمة ذاتها ، بأسلوب يعتمد على علم النفس ، وسرعان ما يسجل الجهاز مدى الصدق والكذب فى اجاباته قياساً على ما سجل من قبل ، وبذلك يضع فى يد المحقق مفتاح الجريمة فلا يستغلق دونه بابها ، وتصل العدالة إلى غايتها فى ضوء هذه النتيجة ...

* * *

وأمام الثكنة العسكرية بحى « جياد » نظم البكباشى طه خسيفان قائد الشرطة عرضاً عسكريا لوحدات من قوات الأمن المختلفة ...

ومرت أمامنا نماذج من فرق الفرسان والمشاة والموسيقى ، فى نظام محكم واستعداد كامل . ولا يقتصر إعداد هؤلاء الجنود على الناحية العسكرية فحسب ، بل إن لهم مدرسة يتلقون فيها بعد الظهر دروساً لمكافحة الأمية وتزويدهم بقدر من الثقافة العامة ...

وقصدنا بعد هذا العرض إلى مدرسة يتخرج فيها ضباط البوليس ، وقد أنشئت هذه المدرسة منذ عشرين عاماً ، وبلغ عدد الذين تخرجوا فيها أكثر من ٤٠٠ ضابط يشغل بعضهم الآن كثيرا من المراكز الرئيسية فى مديرية الأمن العام . وستتحول هذه المدرسة إلى كلية على نظام كلية البوليس المصرية .

ونظم لنا البكباشى حسن قنديلى قائد المرور زيارة لمدرسة الكونستبلات التى يتخرج فيها ضباط المرور . وقد بلغ عدد من تخرجوا فيها أكثر من مائة ضابط .

وجهاز المرور فى المملكة العربية السعودية من أهم مرافق الدولة ، نظراً لازدياد عدد السيارات فيها إلى درجة عظيمة باعتبارها وسيلة المواصلات الوحيدة فى البلاد . وتزداد أهمية المرور على صورة لا مثيل لها فى موسم الحج ؛ إذ تقوم عشرات الألوف من السيارات بمهمتها فى نقل مئات الألوف من الحجاج فى أوقات معينة إلى أماكن محدودة ، فى وسط بحر متلاطم من الحجاج الراجلين .



زيارة لمدرسة الكونستبلات بمكة



جندى المرور ... والإشارات الضوئية

وقد اقتضى ذلك العناية بتنظيم الطرق وتعميم الإشارات الضوئية وإقامة مراكز للمراقبة تسيطر على حركة المرور وتكفل تنفيذ قوانين السير وحماية الأرواح من أخطار المخالفات .

ثم قصدنا إلى إدارة الإطفاء والانقاذ ، ويشرف عليها الصاغ فايز العوفى ، وشاهدنا جهازها الفنى وجنودها المدربين وهم يقومون بمناوراتهم اليومية فى براعة فائقة .

ومن الأقسام الهامة فى مديرية الأمن العام إدارة الجوازات والجنسية ، ويشرف عليها الآن القائمقام حسن الفى وكيل الأمن العام . ويصور أهمية هذه الإدارة أن المملكة العربية السعودية تكاد تكون الدولة الوحيدة فى العالم ، المفتوحة لدخول مئات الألوف من الوافدين عليها من أبناء البلاد الأخرى . . . وذلك فى موسم الحج كل عام ، الأمر الذى يجعل ضبط شئون الأمن خلال موسم الحج ، والمحافظة على طاقة البلاد بعد أداء الفريضة ، وضرورة عودة جميع الحجاج إلى بلادهم — مهمة خطيرة إلى أبعد الحدود . . . وهو ما تقوم به إدارة الجوازات والجنسية على درجة عالية من الكفاءة والدقة والنظام .

وهناك قسم من أقسام مديرية الأمن العام يقف وراء كل هذه الجهود ، هو المكتب العام الذى يشرف عليه السيد عبد الرحمن الحضراوى ، والذى ينهض بتبعات متعددة تتصل بشئون الأمن العام فى مختلف مرافقه العسكرية والإدارية .

وعدت بعد جولتى هذه إلى اللواء طلعت وفا أهنئه بما شاهدت

فى مختلف أقسام مديرية الأمن العام من مظاهر التقدم والنهوض ، مما جعل الأمن العام فى هذه البلاد مضرب الأمثال .

ثم قلت له :

— كان المتبع أن يتم تنفيذ حد السرقة بناء على حكم المحكمة الشرعية، ولكن تنفيذ هذا الحد صار الآن مشروطاً بتصديق جلالة الملك على الحكم ، فهل سبب ذلك ما قيل من أن هذا الحد قد نفذ خطأ بناء على حكم أصدرته المحكمة الشرعية فى حادثة معينة ؟

فقال : إن ماقيل عن وقوع خطأ فى الحكم نال بالقصاص بريئاً لم يسرق . . ليس إلا فرية أذاعها بعض من لا خلاق لهم . وأما اشتراط تصديق جلالة الملك على أحكام الحدود قبل تنفيذها ، فقد تقرر ذلك حرصاً على توفير ضمانات أقوى لإقامة العدل فى هذه الحالات الدقيقة .

هذا وتبلغ ميزانية مديرية الأمن العام نحو خمسة ملايين جنيه ، أما عدد قوات الأمن وموظفيه وفقا لإحصاء العام الماضى فهى :

٩٥١٥	وكلاء ونواب وعرفاء وجنود
٤٢٢	ضابطاً
٣١٣	جندى إطفاء
١٠٠	كونستبل للمرور
٣٦	موظفا إدارياً
٢٢٦٤	موظفا مدنياً
١٢٦٥٠	المجموع

وكان عدد الحوادث فى عام ١٣٧٣ كالآتى :

٦ قتل و٢ دهس أفضى إلى الموت و٩٣ صدم و٤٦ سرقة و٢٠ اختلاس و٨ مخدر و٣٤ سكر و٤ تهريب أموال و ٥ احتيال و٢٢٧ مضاربة .

وإذا علمنا أن هذه الحوادث وقعت فى شعب تعداده ستة ملايين نسمة ، فإن هذه النسبة تهوى إلى مايقرب من درجة الصفر بينما يرتفع مستوى الأمن إلى أعلى الدرجات .

* * *

ودعانى اللواء على جميل[1] إلى زيارة دار الأيتام بمكة المكرمة .

وقد أسس هذه الدار منذ عشرين عاماً المرحوم مهدى بك بن صالح وكان وقتئذ مديراً للأمن العام ، وقد اطلق عليه الملك عبد العزيز لقب « المصلح » لقيامه بهذا المشروع الجليل . وتقوم هذه الدار بايواء اليتامى وتعليمهم وإعدادهم للحياة ، وتشرف عليها لجنة برياسة اللواء على جميل . وبلغ عدد من تخرجوا فيها حتى الآن ١٥٠ طالباً ، التحق بعضهم بمدرسة الشرطة ومن أفواجهم الأولى من وصل إلى مناصب كبيرة بادارة الأمن العام ، وعين بعضهم الآخر بوظائف حكومية ، كما أصاب غيرهم فى ميادين الحياة العامة كثيراً من النجاح ، ومنهم من واصل الدراسة فى المرحلة الثانوية والجامعية .

وعدد تلاميذ الدار يتجاوز المائة ، ومدة الدراسة بها ست سنوات تعادل الدراسة الابتدائية ، وكان بها قسم صناعى الغى سنة ١٣٦٨ هـ

(١) المشرف على دار الأيتام ، مدير الأمن العام الأسبق ، ورئيس التشريفات بديوان الملك سعود الآن .

ومن الواجب إعادة هذا القسم لتأهيل الطلبة لكسب معاشهم حين يخرجون للحياة العامة .

وتقوم موارد هذه الدار على التبرعات ، وتبلغ نفقاتها مائة ألف جنيه فى العام ، وكثيراً ما تضطرب ميزانيتها بسبب تراوح التبرعات قلة وكثرة ، ولهذا تبرع لها جلالة الملك سعود بعشرين ألف جنيه تصرف كل عام ، كما رصدت لها فى ميزانية الدولة إعانة دائمة .

قلت للواء على جميل .

— إن كل شىء فى هذه الدار جميل ويدعو إلى الإعجاب والتقدير ، إلا شيئاً واحداً ...

قال : وما هو ؟

قلت : اسم الدار .

إن فى كلمة « دار الأيتام » مرارة تؤذى نفوس أولئك الصغار ، وتثير فيها الشعور بالذل والحرمان . . .

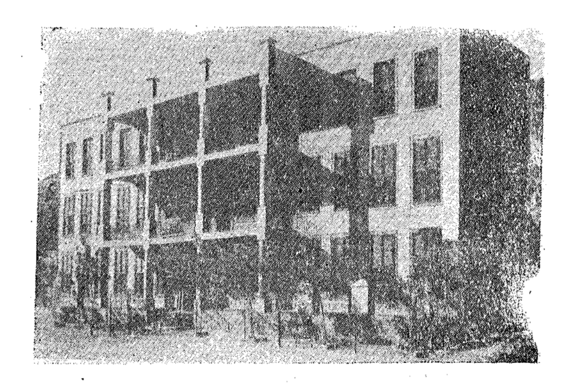
والحق أنه ليس فى هذه الدار ما يشعر هؤلاء الصبية بمرارة الحرمان ؛ فهم يتمتعون بكثير من العطف والرعاية ، ولكن إطلاق هذا الإسم على دارهم يذكرهم دائماً بمعانى اليتم ، ويولد فى نفوسهم وأخيلتهم صوره الحزينة السوداء ...

وحبذا لو أطلق على الدار اسم « دار الكفالة » مثلا ، ليكون ذلك أقرب فى الدلالة على مهمة الدار ، وأكرم على نفوس نزلائها الصغار .

قال اللواء على جميل :

— سيكون ذلك إن شاء الله ...

وفى المدينة المنورة دار أخرى لرعاية الأيتام ، تجمع بين الدراسة الابتدائية والتعليم الصناعى ، وكذلك فى الرياض ..



دار الأيتام بمكة المكرمة



أبناء الدار يؤدون الصلاة جماعة

قضية البريمى

١

وفى فندق قصر الكندره بجدة ، التقيت بالأستاذ عبد الرحمن عزام، وكان قد قدم إلى المملكة العربية السعودية ، لمراجعة أولى الأمر فيها حول تطورات قضية البريمى التى يتولى الدفاع عنها لدى هيئة التحكيم الدولية . ودار الحديث بيننا حول هذه القضية . فما هى البريمى هذه التى أوشكت أن تثير الحرب بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا ، وما هى حقيقة الدوافع التى تستتر وراء السياسة البريطانية فى هذه المنطقة ؟

إن البريمى منطقة من مناطق المملكة العربية السعودية ، تقع فى الجنوب الشرقى منها ، وهى واحة تتألف من ثمانى قرى ، وتبلغ مساحتها نحو ١٩٨٥ كيلو متر مربع .

ولكن موقع هذه الواحة بالقرب من الخليج الفارسى ، وما فى أرضها من كنوز معدنية مخبوءة ، حرك عقارب الاستعمار فى صدر بريطانيا لاحتلال هذه المنطقة العربية .



رقصة الاعتداء البريطانى المسلح على منطقة البريمى ، ليست إلا حلقة فى سلسلة الخطط الاستعمارية البريطانية فى الشرق ، هذه الخطط التى بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما استطاعت بريطانيا

توطيد نفوذها فى الهند ، وفى مناطق الخليج العربى ، وجنوب الجزيرة العربية ...

وفى خلال القرن التاسع عشر استطاعت بريطانيا أن تجعل من هذه المناطق قواعد استراتيجية هامة ، وأن تحول المحيط الهندى إلى بحيرة بريطانية لحماية الهند .

ثم كان الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ مؤديا إلى جعل منطقة قناة السويس حلقة رئيسية من حلقات الاستراتيجية البريطانية ، التى تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى أبعد حدود أفريقيا وآسيا .

فلما تقلص ظل الاستعمار البريطانى بعد الحرب العالمية الأخيرة ، بالجلاء عن الهند وقناة السويس ، والتطورات الأخيرة فى الملايو وغيرها — أصبحت الطرق الحيوية إلى جنوب شرقى آسيا وأستراليا مكشوفة . ومن هنا جاء اهتمام بريطانيا بتحويل عدن إلى قاعدة بريطانية رئيسية لحماية هذه الطرق ، ولحماية الشواطىء الأفريقية التى تعتبر منافذ للامبراطورية المنتظرة ... فى حساب الاستعمار البريطانى !

كما أدى ذلك إلى زيادة أهمية الجزيرة العربية بالنسبة للاستراتيجية البريطانية الجديدة ، من الناحية العسكرية ومن الناحية الاقتصادية التى تتصل بالتجارة وبموارد البترول .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى سياسة بريطانيا الاستعمارية ،لتعويض ما فقدته من مناطق ونفوذ ، بعد انهيار نفوذها الاستعمارى القديم فى فى الشرقين الأدنى والأقصى .

ومن هنا جاء اتجاه بريطانيا رغم نفوذها فى منطقة الخليج العربى ، وجنوب الجزيرة العربية ، إلى الاستيلاء على البريمى ، وعلى إمارة عمان ...

٢

وقد بدأت انجلترا محاولاتها لتنفيذ هذه الخطة على طريقتها الاستعمارية التقليدية ، وذلك بايفاد بعض الشركات الانجليزية إلى منطقة البريمى فى أوائل سنة ١٩٤٩ بدعوى الكشف عن البترول ، وبحجة أن البريمى تقع فى حدود المحميات البريطانية المجاورة !!

ثم أخذت تثير الدسائس فى هذه المنطقة بافساد مابين حاكم أبو ظبى وسلطان مسقط وبين المملكة العربية السعودية .

وتبعية البريمى للمملكة العربية السعودية ترجع إلى نحو ١٦٨ عاما ، حين امتدت دعوة التوحيد حتى بلغت سواحل الخليج العربى . وتعترف سجلات الحكومة البريطانية فى عام ١٨٠٨ بأن السعوديين بلغوا الذروة من حيث استقرارهم وسيادتهم لافى البريمى فحسب بل وفى عمان أيضاً .

وحين استولت القوات البريطانية على رأس الخيمة فى نوفمبر سنة ١٨٠٩ تحركت القوات السعودية من البريمى لمقاتلتها ، فانسحبت القوات البريطانية فور علمها بهذا الزحف ...

وفى سنة ١٨٥٣ عقدت معاهدة بين السعوديين وحاكم مسقط ، تنص على أن تدفع مسقط لآل سعود إتاوة سنوية ، وعلى أن البريمى وكثيراً من الأراضى الواقعة وراءها تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الدولة السعودية .

واعترف الكابتن كمبل المعتمد البريطانى فى الخليج العربى ، فى تقرير كتبه فى أول يولية سنة ١٨٥٤ بتبعية البريمى للدولة السعودية .

وكذلك جاء فى كتاب «مخاوف ورحلات» الذى ألفه برترام توماس وناظر المالية وزير دولة مسقط البريطانى عام ١٩٢٧ أن منطقة البريمى تقع فى أراضى ابن سعود .

ولم يكن الأمر يفتقر إلى اعتراف هؤلاء البريطانيين بتبعية البريمى للمملكة العربية السعودية منذ قامت هذه الدولة حتى الآن ، فإن ولاية هذه المنطقة ظلت فى أسرة آل سعود ومن يعينونه لإمارتها منذ ذلك التاريخ البعيد . وكان آخر أمير سعودى على البريمى هو الشيخ تركى بن عطيشان الذى تولى الإمارة عام ١٩٥٢ .

ولكن المطامع البريطانية بعد أن احتضنت عمان ومسقط ، تحاول كذلك أن تهتضم البريمى ، لتتم لها السيطرة على مركز استراتيجى جديد تحكم منه سيطرتها على تلك المناطق العربية المنكوبة بالاستعمار البريطانى ، كما تسيطر على قاعدة حربية تهدد منها المملكة العربية السعودية .

٣

ورأت المملكة العربية السعودية ألا تتعجل الموقف الحاسم لرد هذا العدوان ، وآثرت حل هذه المشكلة بالطريق السلمى ، واقترحت إجراء استفتاء فى هذه المنطقة تتقرر على أساسه تبعيتها إلى « أبو ظبى » كما تزعم انجلترا أو إلى المملكة العربية السعودية .

ولكن انجلترا كانت تعرف مقدما نتيجة هذا الاستفتاء فلم توافق على إجرائه ...

وتعقد الموقف بين الطرفين . . ثم تقدمت انجلترا باقتراح تضمن إجراء تحكيم دولى بينهما ، ووافقت الحكومة السعودية على هذا الاقتراح ، وفى ٣٠ يولية سنة ١٩٥٤ تم التوقيع على اتفاقية كان أهم ما تضمنته :

١ — تمركز قوة بوليسية فى منطقة البريمى تتكون من خمسة عشر شخصاً من قبل كل من الطرفين ، لحفظ السلام والنظام بين القبائل فى منطقة البريمى .

٢ — انسحاب قوات ساحل الصلح العمانى والقوات المسلحة الأخرى ، والموظفين الذين أدخلوا فى تلك المناطق بعد أغسطس ١٩٥٢ وحل الجماعات المحلية المسلحة ، وعدم دخول موظفين إضافيين أو قوات إضافية فى منطقة البريمى أو المناطق الأخرى المتنازع عليها من قبل الجانبين . .

٣ — تقسيم المنطقة بغرض عمليات الزيت فقط — وبدون الإخلال

بحقوق أى من الفريقين فى نزاع الحدود — إلى ثلاث مناطق :

الأولى — يجوز لشركة استثمار البترول « ساحل الصلح » المحدودة وشركة « دارسى » للتنقيب المحدودة ، إجراء عمليات الزيت فيها خلال فترة التحكيم .

والثانية — يجوز لشركة الزيت العربية الأمريكية إجراء عمليات الزيت فيها خلال فترة التحكيم .

والثالثة — لا يسمح بإجراء أى عمليات للزيت فيها خلال فترة التحكيم .

وقد حددت هذه المناطق الثلاث تحديداً جغرافياً .

وباشرت هيئة التحكيم عملها حتى أوشكت أن تصدر حكمها فى هذا النزاع — وهو حكم نهائى ملزم للطرفين — وعندئذ قام مندوب انجلترا فى الهيئة المسيو ريدر بولارد بتمثيلية مفضوحة . . . إذ انسحب من الهيئة فتوقف عملها ، ثم فوجئت الحكومة السعودية بهجوم غادر قامت به القوات البريطانية على منطقة البريمى ، وكان عددها خمسة آلاف جندى تساعدهم ست طائرات تمطر قذائفها على سكان هذه المنطقة العزلاء .

وانتفضت البلاد انتفاضة قوية ، وانهالت التبرعات السخية لتسليح الجيش وتقويته ، وتأهبت القبائل للزحف على البريمى لاستخلاصها من أيدى الغزاة ، وتوالت وفودها على الرياض تطلب من الملك سعود أن يأذن لها فى القتال . . وقال الملك سعود للوفود الثائرة :

— « يجب أن تكونوا على أهبة الاستعداد فى أية لحظة . ونحن نحاول الآن أن نجد لهذه المشكلة حلا بالوسائل السلمية المتعارف عليها بين الدول ، فإن وفقنا فى ذلك فالحمد لله ، وإلا فإننى كقائد عام سأذهب إلى ميدان المعركة بنفسى ، وسأكون أول من يضحى مع أسرتى للدفاع عن الوطن العزيز . »

والآن . . . على بريطانيا أن تزن الموقف بميزانه . وإن لها فى التزام المملكة العربية السعودية الحكمة وإيثار السلم ، ما يعطيها فرصة الانسحاب من البريمى ، والعودة إلى نطاق التحكيم ، والخضوع لما تصدره الهيئة الدولية من حكم فى هذا النزاع .

إن أمام بريطانيا هذه الفرصة ، فإن هى اغتنمتها وفرت على نفسها الدخول فى تجربة جديدة من سلسلة التجارب التى علمتها كيف تحنى رأسها أمام إرادة الشعوب .

فى الطائف ...

١

تلقيت دعوة من سعادة الشيخ عبد العزيز بن معمر أمير الطائف ، لزيارة هذه المدينة ذات التاريخ الشهير فى الجاهلية والاسلام ، والتى تعتبر الآن من أهم مدن الحجاز بما فيها من مؤسسات للجيش العربى السعودى، ومن معاهد علمية ، ومن بساتين حافلة بالزهور والثمار ، وباعتبارها مصيف الحجاز الممتاز .

وآثرت أن تكون زيارتى للطائف بالسيارة ، حتى أشاهد كثيراً من معالم الطريق ، واستمتع برحلة قد يكون فيها كثير من العناء ، ولكن فيها إلى ذلك كثيراً من المتعة والإفادة .

وفى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ١٣٧٤ حملتنى السيارة من جدة إلى مكة ، وتناولت طعام الغداء بفندق مصر ، ثم غادرنا مكة بعد العصر متجهين إلى الشرق . . .

ومررنا فى الطريق بجبل النور حيث يقع على قمته الشاهقة غار حراء ، وبعد ساعة وصلنا إلى قرية « الشرائع » وبها بستان جميل وقصر

لمعالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية السابق . . .

وظلت السيارة تسير بنا بين الرمال والجبال ، حتى وصلنا إلى واحة جميلة تروى بمياه تنساب من بين الصخور هى واحة « الزيما » ويكثر فى هذه الواحة النخيل وشجر الموز ، ولهذا الموز خاصية فريدة . . فانه مشبع لدرجة أننا — وقد كنا ثلاثة — لم نستطع أن نأكل منه أكثر من نصف أقة !!

ثم تابعت السيارة رحلتها فى سهل رملى فسيح ، وما أن اختفى قرص الشمس وبدأ الليل ينشر على الأفق الشرقى غلالة رقيقة سوداء ، حتى أوقفنا السيارة . . . وكذلك فعل ركاب السيارات الأخرى ، ونزلنا نؤدى صلاة المغرب فى العراء !

واستأنفنا الرحلة موغلين فى واد رحيب ، ثم أخذ الطريق يعلو رويداً رويداً ، وقد بدأ يظهر أمامنا من بين قمم الجبال وجه القمر فى ليلة تمامه . . . وهو مظهر رائع خلاب ، خيل إلينا والسيارة تنطلق صعـَداً أنها تحاول أن تصعد بنا لنعانق القمر فى أفقه الرفيع !

وبعد ساعتين من الغروب وصلنا إلى « السيل الكبير » وهى بلدة صغيرة بها كثير من المقاهى للاستراحة والتزود من الطعام والشراب ، فاسترحنا بها قليلا ريثما تناولنا الشاى وأدينا صلاة العشاء ، ثم مررنا بالسيل الصغير وهى قرية أخرى من محاط الراحة والاستقاء .

وانطلقت السيارة تجتاز بنا منطقة جبلية وعرة المسالك ، شُقت

الطريق فى كثير من أجزائها بين الجبال . وقبل أن تصل إلى الطائف بنحو ٣٥ كيلو مترا كان الطريق سهلا مرصوفاً بالإسفلت ، حيث يقع مطار « الحوية » وإلى الجنوب الشرقى منه يقع المكان الذى يرجح أنه كان فى الجاهلية موقعاً لسوق عكاظ . . .

٢

والطائف مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٥١٠٠ قدم ، ولهذا كان جوها من أصح الأجواء فى الصيف ، وهى كذلك فى الشتاء ، ولكن شهرتها فى الصيف جعلت منها أهم مصيف للدولة وللأفراد . وللطائف نصيب كبير فى تاريخ هذه البلاد ؛ إذ كانت مقر عبادة أحد الآلهة فى الجاهلية . وإليها قصد محمد — صلى الله عليه وسلم — فى فجر دعوته مستجيراً من أذى قريش ... خرج إليها من مكة وحيداً ، ويا هول ما لقى — صلى الله عليه وسلم — فى رحلته تلك من وعثاء الطريق ، فقد بلغ منا الجهد والعناء كل مبلغ ونحن نقطع الطريق من مكة إلى الطائف على سيارة مترفة ، مزودين بالفاكهة والماء المثلج ، ومحوطين بالأمن والسلام ... فكيف به — صلى الله عليه وسلم — وهو يجتاز وحيداً هذه الرحلة المحفوفة وقتئذ بالمخاطر ، الحافلة بمشاق الرحلة ووعورة الطريق ؟ !

وصل الرسول إلى الطائف فعرض على « ثقيف » دعوته ، وطلب منهم المنعـــة والنصر ، ولكنهم أجابوه على دعوته

شر جواب ... وأغروا به سفهاءهم يرجمونه بالحجارة ويصيحون خلفه بالقول المقذع والسباب ، حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فاحتمى به من هذا العدوان الأليم . ورجع عنه السفهاء ، وجلس هو إلى ظل كرمة ... ثم رفع رأسه إلى السماء فى ضراعة وهو يقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على النـاس . . .

يا أرحم الراحمين : أنت رب المستضعفين وأنت ربى . . .

إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ...

إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ...

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وكان يرقبه وهو على حاله تلك صاحبا البستان . . .

فتحركت فى نفسيهما الشفقة عليه وأرسلا إليه غلامهما « عداس » وكان نصرانياً بقطف من عنب البستان ...

ووضع محمد يده فى العنب وهو يقول :

— بسم الله الرحمن الرحيم ...

وفغر عداس فاه دهشة وقال :

— هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد !

فسأله محمد عن بلده ودينه ، فقال إنه نصرانى من « نينوى » فقال له :

— أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فازدادت دهشة عداس وقال :

— وما يدريك ما يونس بن متى ؟ !

قال : ذاك أخى . . كان نبياً وأنا نبى .

فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه . .

وكان صاحبا البستان يرقبان هذا المشهد من بعيد ، وقد أخذ منهما العجب مأخذه ...

وحين عاد إليهما عداس ، وعلما منه ماحدث . . قال له :

— ياعداس ، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك ، فهو خير من دينه .

وفى المكان الذى لجأ إليه محمد من ذلك البستان ، يقوم الآن مسجد صغير فى بستان يملكه الشيخ عبد الله الحسين .

٣

وزرت الأمير عبد العزيز بن معمر فى دار الإمارة . . .

هذا الرجل الذى كان أشد أعضاد الملك عبد العزيز ، والذى انتصر



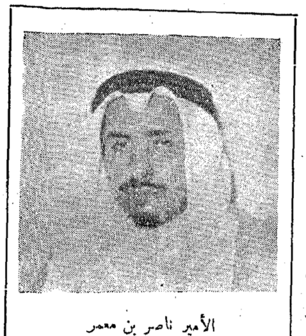
المؤلف مع «أبو الطائف» الأمير عبد العزيز بن معمر

على مرض ألمّ به فأقعده وأمسك لسانه ، وعجز الطب فى مصر والهند وأوربا عن علاجه . ولكنه انتصر على المرض بإرادة قوية وحيوية غلابة ، فهو يباشر شئون الإمارة كأقوى مايكون الأصحاء .

ودعانا الأمير بعد صلاة المغرب لتناول العشاء . فانتقلنا إلى قصر مجاور للدار التى كنا فيها ، وعلى أرض الغرفة المفروشة بالأبسطة صُفت المائدة وعليها عدد من الخراف وصحاف الأرز ، تحيط بها ألوان من الأطعمة الحديثة والفاكهة .

وكان الأمير يقتطع قطعاً صغيرة من اللحم ويضعها فى الطبق الذى أمامى ؛ إنها من مظاهر الكرم والحفاوة بالضيف .

وبعد أن فرغنا من الطعام انتقلنا إلى غرفة الجلوس ، ودارت القهوة العربية والشاى. ثم تناول الأمير ناصر بن معمر — وهو الساعد الأيمن لأمير الطائف — كتابا للريحانى عن تاريخ نجد أخذ يقرأ فيه ، وكان يتداول الحاضرون مناقشة مايقرأ ، ويستعيد الأمير عبد العزيز بن معمر ذكرياته التى تتصل بموضوعات هذا الكتاب . . .



الأمير ناصر بن معمر

ثم أديرت القهوة والشاى مرة أخرى ، ودخل رجل يحمل مجمرة تقدم بها نحو الأمير فوضع فيها الأمير قطعاً من العود . ودار الرجل بالمبخرة على الحاضرين ينشقون عبيرها ويعطرون به ملابسهم . . .

وكان هذا إيذاناً بالانصراف . .

إن المثل العربى يقول : بعد العود مافى قعود ! !

وفى اليوم التالى حضرت مجلس الإمارة ، وقد جلس الأمير عبد العزيز وإلى جانبه الأمير ناصر على مصطبة عالية ، وأمامه الكاتب يعرض عليه الأوراق . . . وقد امتلأت القاعة برجال البدو ، يتقدم كل منهم فيعرض مظلمته فيناقشه فيها الأمير ويستمع إلى مايقول غريمه

ثم يفصل فى دعواه وفقا للتقاليد والنظم الإدراية المتبعة .

وقمت بجولة فى الطائف . . .

فأديت الصلاة فى مسجد عبد الله بن عباس حبر الأمة وابن عم الرسول . وقد اختار — رضى الله عنه — الإقامة فى الطائف ، لأنه كان يتورع عن الإقامة فى مكة ويقول فى ذلك :

— كيف المقام فى بلد تتضاعف فيه السيئات ، كما تتضاعف الحسنات ؟ !

وزرت قصر « شبرا » وهو قصر أقامه الاتراك فى منطقة أسموها شبرا، كانت خارج سور الطائف — قبل إزالة هذا السور — ولا أدرى العلاقة بين هذا الاسم واسم شبرا مصر . . .

وتشغل هذا القصر الآن وزارة الدفاع . وما زال القصر محتفظا بطابعه الجميل فى العمارة من الداخل والخارج . ثم زرت المدرسة العسكرية ، التى تحولت فيما بعد إلى كلية حربية مقرها الرياض ...

وانطلقت بنا السيارة خارج المدينة حيث الأودية والبساتين والكروم التى اشتهرت بها الطائف ، والتى كان محصولها من العنب المجفف فيما مضى كالتلال . ولشهرة العنب فى الطائف ، وما كان له فى الجاهلية من شأن فى وفرة الخمور ، مازال يقوم بها إلى الآن جبل يسمى : جبل السكارى ! !

ومن الأودية المشهورة فى الطائف وادى « وج » الذى يشير إليه الأمير الشاعر عبد الله الفيصل فى قصيدته « هل تذكرين » إذ يقول :

هـــل تذكرين وداعينا مصافحة
أودعت فيها كريم الأصل يمناك
أو تذكرين بوادى وج وقفتنا
وقد أفاضت علينا الطهر عيناك
وحين غنت على الأغصان شادية
أنشودة الحب فى ترديدها الباكى
أنت الحياة لقلب جد مكتئب
وليس يسعده بالوصل إلاك . . .

ومازالت هذه الأودية والبساتين عامرة بالمياه والثمار والأزهار، وإليها يقصد أهل الطائف للرياضة والاستجمام ، وتؤجر مساكنها للمصطافين من أهل البلاد . . .

٤

وفى الطائف مدرسة نموذجية ، كانت خاصة بأبناء الأسرة المالكة ثم صارت تضم إلى هؤلاء الأمراء الصغار كثيراً من أبناء الشعب . وقد زرت هذه المدرسة التى يديرها الأستاذ محمود أبو العلا من رجال وزارة التربية والتعليم المصرية . وتتكون من ثلاثة أقسام :

إبتدائى وإعدادى وثانوى . ومجموع تلاميذها فى العام الماضى ١٦٥ تلميذاً ، ويضم القسم الداخلى ٦٤ تلميذاً منهم ٣٤ تلميذاً من أبناء الأسرة المالكة و١٠ تلاميذ من أبناء أمراء المقاطعات و٢٠ تلميذاً من أبناء الشعب القادمين من مكة وجدة وغيرهما ، وبقية التلاميذ فى القسم الخارجى من أبناء الطائف .

ولهذه المدرسة ميزانية خاصة تبلغ ٤٢٠٨٤٠ ريالا عربياً أى نحو ٤٣ ألف جنيه فى السنة ، وبها ١٩ مدرساً ، وأربعة موظفين إداريين . ومشرفتان للقسم الداخلى ، و ٤٤ فراشاً .

ومعظم أعضاء هيئة التدريس من الأساتذة المنتدبين من وزارة التربية والتعليم المصرية ، والدراسة بها تسير على المنهج المصرى بالإضافة إلى منهج خاص فى الدين والتربية الوطنية والاجتماعية .

وقد صادفت زيارتى للمدرسة حلول صلاة الظهر ، فسمعت الأذان ينطلق من مصلى داخل المدرسة . وفى هذا المصلى أدينا صلاة الظهر جماعة ، وقد اشترك فيها جميع التلاميذ . . .

ولم ألحظ فارقا فى معاملة التلاميذ بين الأمراء وأبناء الشعب ، إذ يحرم مخاطبة أحد من أبناء الأسرة المالكة بلقب الأمير . .

قال لى الأستاذ محمود أبو العلا مدير المدرسة :

— إن الأمير فيصل الذى يرعى هذه المدرسة ، يحرص كل الحرص على ألا يبدو فى معاملة هؤلاء الأمراء أى تفرقة أو امتياز . .

ثم صحبنى المدير إلى فناء المدرسة حيث تعلق على الجدران لوحات النشاط الرياضى والاجتماعى والثقافى للتلاميذ ، فقرأت فى إحداها ما يأتى :

« يعلن فريق البوليس تقديم الطالب عبد الرحمن الفيصل — وهو أحد أبناء الأمير فيصل — إلى المحاكمة . . لمخالفته الأوامر » .

قلت للأستاذ أبو العلا :

— وما هى العقوبة التى توقع على الطالب لهذه المخالفة ؟

قال : منها حرمانه من السمر أو النشاط المدرسى لفترة معينة .

وللنشاط المدرسى نصيب بارز فى برنامج الدراسة ، وقد شهدت أعمال الجمعيات المختلفة فى الرياضة والتمثيل والصحافة ، والرسم والتصوير ، والهوايات والمشروعات ، وفلاحة البساتين ، والعلوم والآداب . . فإذا بها تقدم صوراً رائعة لمواهب التلاميذ وخبراتهم . . .

* * *

ثم تلقيت دعوة من دار التوحيد لحضور الحفل الختامى للنادى الأدبى بمناسبة انتهاء العام الدراسى .

ودار التوحيد بالطائف أحد المعاهد الدينية بالمملكة العربية السعودية أنشئت سنة ١٣٦٤ هـ لتخريج الدعاة والقضاة ، وعدد طلبتها ١٢٥ طالباً ممن أتموا الدراسة الابتدائية ، ومدة الدراسة بها خمس سنوات . وقد تخرجت أول دفعة فيها سنة ١٩٣٦ فكانت النواة الأولى لكلية الشريعة التى أنشئت فى مكة .

ويتقاضى الطالب فى دار التوحيد ٢٣٠ ريالا فى الشهر ، أى نحو ٢٣ جنيها . وبها قسم داخلى يضم ٨٠ طالباً . وتتكون هيئة التدريس بها من ١٣ مدرساً معظمهم من أساتذة الأزهر .

* * *

ثم دعانا الشيخ عبد العزيز العنقرى إلى حفل قران الأستاذ إبراهيم العنقرى مدير مكتب وزير المعارف .

وحفل القران هذا يمتد عدة أيام ، وتدعى إليه كل يوم طائفة من المدعوين ، وعلى باب الدار استقبلنا جماعة وفى أيديهم المباخر يفوح منها أريج العود .

ثم جلسنا فى بهو واسع فرش بالأبسطة وصفت على جانبه الحشايا والوسائد . وأديرت علينا القهوة العربية ومباخر العود . ثم ذهبنا إلى تناول الغداء على الطريقة العربية المعروفة .

وأعجلتنى ظروف العمل على أن أعود إلى جدة بعد العصر ، ففاتتنى فرصة مشاهدة حفل القران فى مظاهره الأخرى الحافلة بالأسمار وغيرها من التقاليد . . .

على أنى استدركت بعض هذه الصور فى حفل قران الشيخ صالح ابن حمد الذى دعانى إليه أخوه الأستاذ مدنى بن حمد رئيس تحرير مجلة الرياض . . فقد أقيم فى الساحة الرحبة أمام دار العريس بجدة حفل جميل صفت فيه المقاعد وأضيئت الثريات الكهربائية الملونة . وبدئ الحفل بتلاوة بعض آى القرآن الكريم . ثم أقبل الشيخ صالح بن حمد وقد ارتدى العقال المقصب يحيط به جماعة يحملون مباخر العود ، وجلس أمام رجل قام بتلاوة صيغه العقد ثم خلعوا على هذا « المأذون » خلعة هى عباءة فاخرة ، وأديرت على المدعوين علب الحلوى وكؤوس الشراب من عصير الفاكهة ، وألقيت بعض الكلمات والقصائد فى تحية العريس وتهنئة أسرة العروسين .



وبدأ دور الغناء فأخذ مطرب حجازى يغنى بعض الأغانى الحجازية الرقيقة ، وغيرها من الأغانى المصرية ، وكان من حوله يرددون أغانيه فى إيقاع جميل .

وانتقلنا إلى موائد العشـــاء التى مدت على الطريقة العربية ، ثم استؤنفت السهرة بالأغانى . . حفلة خاصة بالرجال وأخرى للنساء. وفى نهاية السهرة زف العريس إلى عشه السعيد .

٥

وبعد أيام كنت أتأهب للعودة إلى مصر . . .

وبى من اللوعة لفراق هذه البلاد أشجان وأشجان ..

فقد توطدت صلات المودة بينى وبين كثير من أهلها ، وازدادت ألفتى بمشاعرها الدينية ، أستروح جوها القدسى واستشعر صلة هذه الأرض بالسماء . . .

ثم إن الرسالة التى قدمت من أجلها للإسهام فى النهضة الصحفية فى هذه البلاد لم أستكمل أداءها بعد ، وقد تركت الوليد الذى شاركت فى رعايته والسهر عليه الليالى الطوال ... مجلة الرياض ... وهى بين الموت والحياة ...

وانصرمت ليالى شهر شعبان ...

وأقبل شهر رمضان ، فقضيت يومه الأول فى مكة المكرمة ...

وكان يوما خالدا ترك فى نفسى أعمق الأثر وأحلاه ...

وقبيل الغروب كنت آخذ مكانى فى المسجد الحرام ، وقد امتلأ المسجد على سعته وصفت أمام الصفوف أوعية مملوءة من ماء زمزم ...

وكان معى « ترمس » به عصير المانجو وكذلك كان مع الكثيرين ... عصير أو تمر أو فاكهة .

وجلسنا نستقبل الكعبة ونحن نتلو القرآن ، ونردد التسابيح والدعاء ...

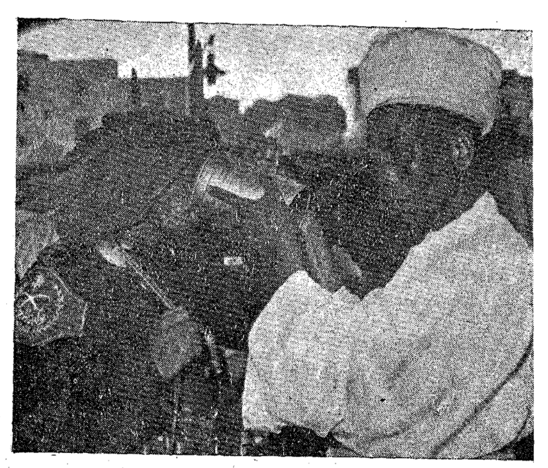
وانطلقت من مآذن الحرم : الله أكبر !!

فرددنا التكبير والتسبيح والدعاء ، ثم أقبلنا على ما معنا من طعام وشراب فتبلغنا منه . . وتبادل الحاضرون الإفطار على صورة أثيرة جميلة ...

وبعد فترة استغرقت نحو عشر دقائق ، قامت الصلاة ...

ما أجمل وأروع تلك اللحظات التى اختتمنا بها أول يوم من أيام رمضان فى المسجد الحرام !!

ثم انصرف بعضنا بعد الصلاة إلى منازلهم ، وبقى البعض الآخر بالمسجد حتى صلاة العشاء .



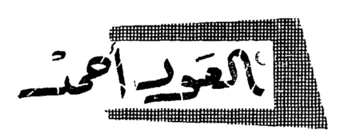
أحد أغوات الحرم يقدم للشرطى جرعة من ماء زمزم

وقصدت إلى فندق مصر فتناولت طعام الإفطار ، ثم عدت إلى المسجد لأؤدى صلاة العشاء . وبعد الصلاة أدينا « التراويح » عشرين ركعة ، تلا فيها الإمام جزءا من القرآن .

ووددنا لو طالت الصلاة وامتدت إلى ما شاء الله ، فان الجو الذى كنا نعيش فيه قد انمحى فيه الزمن ، واستغرقت المشاعر فى نشوة قدسية عميقة رائعة ...

وغادرت المسجد الحرام بعد أن طفت بالبيت طواف الوداع ، وأنا أهتف وقد تعلقت بأستار الكعبة : عودًا يارب !!

الرحلة الثالثة



واستجاب الله لدعائى

فقد فكرت وزارة التربية والتعليم بالاشتراك مع نقابة المهن التعليمية ، فى تنظيم رحلة للعاملين وموظفى الوزارة إلى المملكة العربية السعودية . ومن ثم قال لى الأستاذ محمد سعيد العريان مدير الشئون العامة بالوزارة والسكرتير العام للنقابة :

— عليك أن تسبق أعضاء الرحلة ، وتشرف على شئونها المختلفة . وبادرت إلى السفر وقد غمرتنى موجة من الغبطة والسرور ؛ إذ سينالنى فى هذه الرحلة إلى جانب الاستمتاع بها شرف عظيم ، كان من مفاخر سادة قريش فى الجاهلية والإسلام . . . ذلك هو خدمة ضيف الله ، وحجاج بيته الحرام !

مع بعثة رجال التعليم

١

وهبطت بى الطائرة مطار جدة ظهر يوم الأربعاء ١١ يناير سنة ١٩٥٦ ثم قصدت إلى فندق الحرمين ، فاسترحت قليلا وأحرمت بالعمرة ، وقصدت إلى مكة للطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة .

وكان شعورى هذه المرة ، كما وصفه الدكتور طه حسين — شعور المرء كأنما عاد من غربة غريبة ، إلى وطنه العزيز !

هذا الوطن الذى تستقر جذوره فى الأعماق ، ويجرى تاريخه فى الدماء ، وتخفق أصداؤه فى القلوب . . .

ولم تبهرنى الكعبة ببنائها الشامخ وأستارها السوداء ، كما بهرتنى أول مرة ، فقد كان شعور الألفة العميقة الواعية ، والإحساس المطمئن ، يغمر النفس بنشوة هادئة !!

وبعد أن تحللت من الإحرام قصدت إلى فندق مصر ، والتقيت هناك بالأستاذ عبد العزيز سلامة رئيس البعثة التعليمية المصرية ، واتفقنا على برنامج العمل . . .

وفى اليوم التالى كنا نزور وزارة المعارف حيث قابلت سعادة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ وكيل الوزارة والأستاذ ناصر المنقور مدير التعليم العام .

وكان الأمير فهد وزير المعارف فى رحلة خارج القطر ، ويتولى الوزارة نيابة عنه الأمير سلطان وزير المواصلات . وقد أبرق سموه إلى الوزارة فى مكة بإعداد التدابير اللازمة للرحلة بعد أن تلقى كتاباً بذلك من السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم .

وأعدت الوزارة لنزول أعضاء الرحلة طابقاً فى أحد القصور الملكية بمدينة الملك سعود العلمية بجدة ، ووضعت تحت تصرفهم سيارات الوزارة فى جدة ومكة والمدينة المنورة .

وفى يوم الأربعاء ١٨ يناير كنا نستقبل أعضاء الفوج الأول بمطار جدة ، وقد وصلوا فى ثياب الإحرام ، وكان فى استقبالهم الأستاذ عبد العزيز السالم مدير مكتب وزير المعارف بالنيابة مندوباً من قبل سموه ، والأستاذ عبد الله الغاطى مدير مكتب سمو الأمير عبد الله الفيصل وزير الداخلية نيابة عن سمو الأمير ، والأستاذ رشاد رمزى سكرتير السفارة المصرية ، والأستاذ عبد الله بوقس مدير التعليم بمنطقة جدة ، والأستاذ عبد العزيز سلامة ، وكثير من رجال التعليم .

وقضى الفوج الأول فى جدة ومكة والمدينة أحد عشر يوما ، وكذلك بقية الأفواج الأربعة التي كانت تصل واحداً بعد الآخر ، وكان كل فوج منها يتألف من ٢٧ عضواً ، وقد نظم لهم برنامج حافل لأداء العمرة ، وزيارة عرفة ومزدلفة ومنى وغار حراء فى مكة ،



الأستاذ أحمد زكى وكيل وزارة التربية ، والأستاذ محي الدين أبو شادى ، والمؤلف ، فى ملابس الإحرام

والمسجد النبوى والمشاهد التاريخية فى المدينة ، وبعض معاهد التعليم والمرافق العامة فى مكة والمدينة وجدة .

أياماً كانت حافلة بالمتع الروحية ، والدراسة التاريخية والاجتماعية والثقافية ، وكانت الحفاوة بأعضاء الرحلة تتخذ مظاهر شتى ، فقد حدد سمو الأمير سلطان وزير المعارف بالنيابة ، موعداً لاستقبال أعضاء الفوج الأول فى داره بجدة ، حيث لقى الأعضاء ترحيباً حاراً من سموه وتقديراً لما تهدف إليه هذه الرحلة من أهداف دينية واجتماعية وثقافية. وخصصت الوزارة لتيسير أسباب الرحلة فى مكة الأستاذ عبد الله

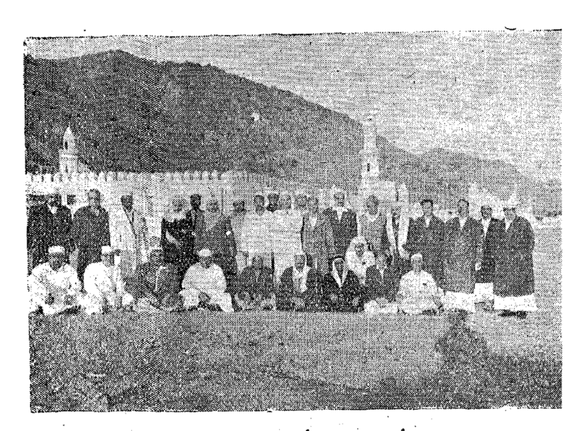
منيعى مدير النشاط ، والأستاذ عبد الرحمن التونسى المدير المساعد . وفى جدة الأستاذ عبد الله بوقس مدير التعليم والأستاذ مدحت شبلاق المفتش المركزى ، وفى المدينة الأستاذ عبد العزيز الربيع مدير التعليم ، والأستاذ عبد العزيز فهمى المشرف الاجتماعى والرياضى .

وأقيمت عدة حفلات كانت مهرجاناً لتكريم مصر فى أشخاص أعضاء الرحلة ، تبودلت فيها الكلمات الطيبة والآراء السديدة لتوثيق التعاون الثقافى بين البلدين .

فقد أقيمت حفلات للغداء والعشاء والشاى والسمر ، دعا إليها الدكتور عبد الوهاب عزام سفير مصر فى المملكة العربية السعودية ، والأستاذ عبد العزيز سلامة رئيس البعثة التعليمية ، والأستاذ ابراهيم الشورى مستشار الإذاعة وقتئذ ، والمدرسة النموذجية الثانوية والمدرسة النموذجية الابتدائية بمدينة الملك سعود العلمية بجدة . والأستاذ شكيب الأموى المستشار الصحفى لشركة أرامكو ، والاستاذ عبد العزيز الربيع مدير التعليم بمنطقة المدينة المنورة .

كما سجل الاستاذ أحمد عبد الحميد مدير البرامج بالإذاعة السعودية ندوة اشترك فيها بعض الاعضاء وأذيعت بمناسبة هذه الرحلة .

وعاد أعضاء الرحلة إلى مصر وقد تحقق لهم من المنافع الدينية والثقافية والاجتماعية ألوان شتى ، لم تكن تتاح لهم فى مثل موسم الحج ، وإن كثيرين منهم أدوا فريضة الحج من قبل ، ولكنهم فى هذه المرة استطاعوا أن يستوعبوا كثيراً من المشاهد ويستجلوا ما انبهم عليهم من صورها الماضية ، فى فسحة من الوقت وأناة فى المشاهدة والاستقراء .



أعضاء الفوج الأول فى زيارة منى

وظفر أعضاء الفوج الأول بدخول الكعبة . .

كما شارك بعض أعضاء الفوج الثالث فى عمارة الحرم النبوى ، بحمل الأحجار إلى مكانها من إحدى المنارات .

واستطاع عشرة من أعضاء الفوج الرابع أن يصلوا إلى غار حراء .

هذه بعض المنافع الدينية التى غمرت القلوب بفيوض الإيمان ، ومشاعر القرب من الله ، وزكاة النفوس والأرواح .

أما المنافع الثقافية والاجتماعية فتتمثل فيما أتيح لهم من الوقوف على بعض مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية فى هذه البلاد ، وكسب الخبرات المختلفة والصلات الجديدة التى توطدها أمثال هذه الرحلة فيما بين الأعضاء بعضهم وبعض ، وفيما بينهم وبين من اتصلوا بهم من أهل هذه البلاد .

٣

وحدث ونحن فى طريقنا لزيارة سمو الأمير سلطان وزير المعارف بالنيابة فى داره بظاهر جده ، حادث أدركه لطف الله وعنايته ...

فقد كان يتقدمنا فى سيارته الأستاذ عبد العزيز السالم مدير مكتب الوزير ، ومعه الأستاذ عبد الله بوقس مدير التعليم .

وعند منحنى الطريق الموصل إلى منزل الأمير سلطان عرجت السيارة ، وإذا بسيارة نقل كبيرة قادمة من طريق مكة تندفع فى نفس الاتجاه ...

ولحنا الكارثة ، ونحن فى السيارة الأخرى التى تتبع سيارة مدير مكتب الوزير ، تكاد أن تنقض ...

وحدث تصادم مروع ، خفف من آثاره الخطيرة أن جاءت الصدمة فى أحد أعمدة النور ففترت قوتها . ثم أصابت السيارة الصغيرة بصدمة حطمت مقدمتها ...

ونزلنا فى فزع لنشاهد ماحدث . فاذا الأستاذ عبد الله بوقس مدير التعليم قد أصيب فى جبهته بجرح قريب من العين !

وتطلعت إلى السيارات المارة فى الطريق لنستقل إحداها إلى أحد مراكز الاسعاف .

ولمحت السيد طاهر عبيد فى سيارته فأشرت إليه بالوقوف . وصحبت

الاستاذ عبد الله بوقس إلى الوحدة العلاجية لوزارة المعارف . حيث أجرى الدكتور عادل طبيب الوحدة الاسعاف اللازم ، وخاط الجرح الذى اتضح أنه لم يصيب العين بسوء .

ويجرنا الحديث بهذه المناسبة إلى التعريف بالنهضة الصحية فى هذه البلاد . وهى نهضة يجدر الاشادة بها إذ بلغت مستوى عالياً فى فترة لا تتجاوز عشر سنوات .

فمنذ ذلك التاريخ أنشئت أول وزارة للصحة وكان يتولاها الأمير عبد الله الفيصل ، واستطاع أى يحقق فى بضع سنوات كثيراً من المشروعات العلاجية والوقائية ، ثم تولاها من بعده الدكتور رشاد فرعون وزيرها الحالى . وفى عهده استكملت كيانها الفنى والادارى واصبح عدد المستشفيات والمستوصفات الموجودة الآن بالمملكة العربية السعودية نحو ١٦٠ مستشفى ومستوصفاً . منها ماهو عام لعلاج مختلف الأمراض ، ومنها ماهو خاص للأمراض الصدرية والرمد والولادة والأمراض العقلية والأمراض التناسلية والعزل . ويتراوح عدد الأسرة فى هذه المستشفيات بين ٢٠ و ١٥٠٠ سرير !

وإلى جانب هذه المستشفيات والمستوصفات تقوم وحدات وقائية ومكاتب للصحة ومحاط للحجر ومراكز لرعاية الأمومة والطفولة ، وفرق لمكافحة الأمراض الوبائية .

وذلك عدا مستشفيات وزارة الدفاع والمستشفيات الأهلية والعيادات الخاصة .

وقد بلغت ميزانية وزارة الصحة فى العام الماضى نحو ٤٠ مليون ريال أى أربعة ملايين جنيه .

وتقوم فى المملكة العربية السعودية جمعية للاسعاف . لها فروع فى مختلف المدن . ويشرف عليها منذ انشائها معالى الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية والاقتصاد . وتستمد مواردها من التبرعات الأهلية والإعانات الحكومية . وهى تؤدى رسالة ضخمة وخاصة فى موسم الحج ، الذى يتعرض فيه كثير من الحجاج لضربة الشمس ولبعض الأمراض الفجائية نتيجة لاختلاف الجو والغذاء .

في الرياض

وتلقيت من جلالة الملك سعود البرقية الآتية :

السيد محمد كامل حته — مدينة الملك سعود العلمية بجدة

نشكركم واخوانكم على حسن شعوركم ، وما أنتم إلا في بلادكم وبين اخوانكم . ونرحب بقدوم الخمسة الأعضاء من اخوانكم ، وقد عمدنا الجهات المختصة بما يلزم نحوهم .

« سعود »

وذلك رداً على برقية بعثت بها إلى جلالته أحييه باسم أعضاء الرحلة ، وأطلب الاذن لخمسة منهم بالسلام على جلالته في الرياض .

واتصل بي معالي الشيخ ابراهيم السليمان رئيس ديوان مجلس الوزراء[1] ... وسعادة الشيخ عبد الله السعد وكيل الوزارة للشئون الملكية ، للتفاهم على تدابير الرحلة إلى الرياض .

---

(١) سفير المملكة العربية السعودية في القاهرة الآن .



معالى الشيخ ابراهيم السليمان



سعادة الشيخ عبد الله السعد

وفى فجر يوم الثلاثاء ١٤ فبراير سنة ١٩٥٦ تحركت الطائرة من مطار جدة ، فى طريقها إلى الرياض ، وهى تقل أعضاء الوفد برياسة الأستاذ أحمد زكى المدير العام للتعليم الثانوى (الوكيل المساعد للوزارة الآن) ويضم الوفد الأساتذة محمد عبد الرحمن عطية مدير مدارس الأهرام ، ومحمد مختار شقير العضو الفنى بادارة الثقافة العامة ، ومحى الدين أبو شادى مدير العلاقات بادارة الشئون العامة (بمكتب الوزير الآن) وكاتب هذه السطور .

وبعد نحو ثلاث ساعات كانت الطائرة تهبط بنا فى مطار الرياض ، وكان فى استقبالنا بالمطار الشيخ صالح فضائلى التشريفاتى بالقصر الملكى ، فصحبنا إلى فندق الرياض ، حيث نزلنا فى ضيافة جلالة الملك .

ثم حضر إلى الفندق سعادة الشيخ صالح اسلام رئيس التشريفات وقتئذ ، وأبلغنا تحيات جلالة الملك . ودعوتنا لتناول العشاء على مائدة جلالته ، ونظم لنا جولة فى الرياض ، فى الفترة الباقية من النهار حتى موعد العشاء .

وصحبنا فى هذه الجولة الأستاذ ماجد مدنى التشريفاتى ، فخرجنا بالسـيارات نجوب شوارع الرياض ، ونأخذ فكرة عامة عن عاصمة البلاد .

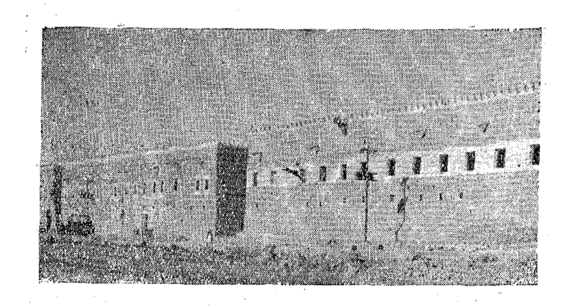
* * *

إن الرياض عاصمة عجيبة فى تكوينها ومعالمها ...

فانك لتجد فيها كثيراً من المفارقات التى تصور مدى ما نالها وينالها من تطور سريع ، مازال لسرعته يجمع بين الماضى والحاضر فى إطار واحد ...

إنك تجد فيها صورة الرياض القديمة ، تلك البلدة التى كانت مقر الإمارة فى عهد آل سعود ، ثم صارت دولة بينهم وبين آل الرشيد فترة من الزمن ، حتى استردها الملك عبد العزيز على تلك الصورة التى كانت أشبه بالأساطير ...

والرياض القديمة هذه ما زالت قائمة بمبانيها التى تشبه القلاع . وبشوارعها الضيقة . . ومن هذه المبانى القائمة . . ذلك القصر الذى شهد الموقعة الحاسمة بين الملك عبد العزيز والأمير عجلان ليلة فتح الرياض.



ومنها كذلك قصر «المربع» الذى أنشأه الملك عبد العزيز ، والذى يبلغ عدد حجراته ألف حجرة !

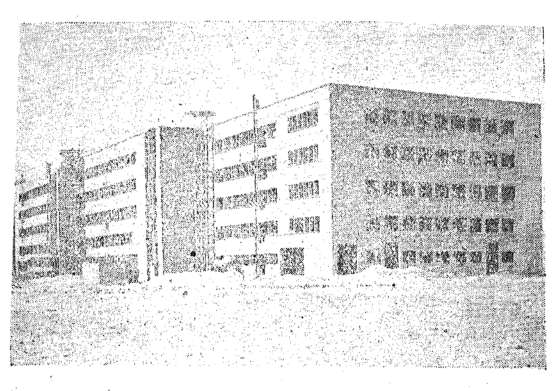
هذه صورة للرياض القديمة ، بل الرياض إلى ماقبل سنوات ...

أما الرياض فى صورتها الحديثة التى طغت على صورها القديمة فشىء آخر ...

وهنا نقف قليلا عند نقطة هامة فى تاريخ الرياض ...

ففى الليلة التى فتح فيها الملك عبدالعزيز الرياض ، ولد الأمير سعود...

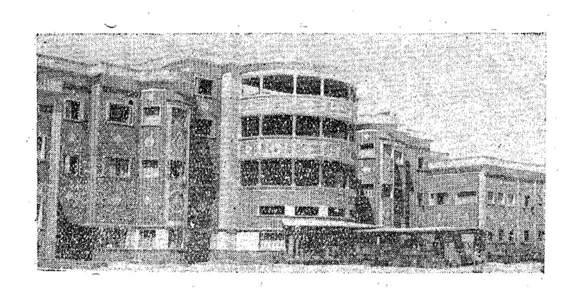
ومنذ تولى الأمير سعود ولاية العهد ، بدأ تاريخ الرياض فى عهدها الحديث ، ثم حين تولى الملك ... انطلقت مشاريع النهضة والعمران تحيل هذه البلدة القديمة الثاوية فى أعماق الصحراء ، إلى عاصمة من أكبر عواصم الشرق !



المستشفى العام بالرياض

فهذه الشوارع المسفلتة الواسعة التى تمتد فى كل مكان ، وهذه العمائر الضخمة ... كلية الملك عبد العزيز الحربية ، والمستشفى العسكرى ، والمستشفى العام ، ودار البلدية ، وقصور الناصرية والحمراء ، ومرافق الكهرباء والماء ، ودور الوزارات التى أوشكت على التمام ... والمعاهد التعليمية ، ودار المحكمة الشرعية ، والاقطاعيات التى منحتها الحكومة للأفراد فقامت فيها العمائر والفيلات ...

هذه المعالم الحديثة التى تسابق الزمن فى ميادين النهضة والعمران ، والتى تمت فى سنوات قلائل .. هى الصورة الحديثة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .



...وأدينا صلاة المغرب جماعة فى قصر الحمراء . وكان الملك سعود فى جولة تفقدية خارج القصر . ثم وصل جلالته بعد نصف ساعة . ودخلنا عليه فى قاعة فسيحة الأرجاء . فاستقبلنا بالبشر والترحاب .

وبعد أن أديرت القهوة العربية ، انتقلنا إلى غرفة المائدة ، وقد تصدرها جلالته ودعى إليها جميع من فى القصر من الزوار والأمراء والوزراء والمستشارين . وكان الملك يوزع اهتمامه على جميع الحاضرين.

ثم عدنا إلى مجلس الملك ، حيث اديرت علينا قطرات العطر ، وفناجين القهوة العربية . وكان جلالته يصرف ما يعرض عليه من أمور ، ويتحدث إلى بعض مراسلى الصحف الأجنبية ، ويحي بين الفينة والفينة ضيوفه هنا وهناك ...

وأقبل حامل المبخرة يفوح منهـــا عبير العود ، فبدأ بجلالته

ثم طاف على الحاضرين . وعندئذ وقف جلالته واقبلنا عليه شاكرين ومستأذنين فى الانصراف...

* * *

وفى صباح اليوم التالى صحبنا الأستاذ خالد خليفة التشريفاتى ، فى جولة نشاهد فيها بعض المرافق الهامة فى الرياض .

وبدأنا بزيارة المدرسة النموذجية لأنجال جلالة الملك . وهى فى قصور الناصرية التى تعتبر من أجمل القصور بحدائقها الغناء ومبانيها الجميلة.

وهذه المدرسة ليست قاصرة على أنجال الملك وأمراء الأسرة المالكة ، ولكنها تضم عدداً كبيراً من أبناء الشعب. إذ يبلغ عدد تلاميذها ٢٢٣ تلميذاً ، منهم ٨٣ تلميذاً من أبناء الأسرة المالكة ، والباقون من أبناء الشعب . .

وصادف دخولنا المدرسة ، موعد الاذاعة المدرسية . . .

فاستمعنا إلى برنامج متنوع قدمه التلاميذ، يشمل بعض الأحاديث الاجتماعية والثقافية ، والتمثيليات ، والأخبار العالمية والمحلية ...

ودعى الأستاذ أحمد زكى إلى إلقاء كلمة فى الإذاعة ، ثم وجهت إليه عدة أسئلة عن الرحلة ومشاهدها ، وعن رأيه فى التعليم بالمملكة العربية السعودية ، ومقارنته بالتعليم فى مصر .

وشهدنا فصول الدراسة وهى تتكون من ثلاثة أقسام : روضة

وابتدائى وثانوى . كما شهدنا الوان النشاط الاجتماعى والثقافى والرياضى الذى خصص له نصيب كبير فى برنامج الدراسة .

ويدير المدرسة الأستاذ عثمان الصالح ، وتتألف هيئة التدريس والإشراف من ٢١ أستاذاً ، منهم ١٥ من المصريين .

* * *

ثم قصدنا إلى كلية الملك عبد العزيز الحربية . وقد أقيمت مبانيها على مساحة واسعة ، على أحدث طراز فى العمارة . واستقبلنا هناك القائد على زين العابدين مدير الكلية [1] ، وصحبنا إلى فصول الدراسة العلمية والعملية ، وإلى مساكن الطلبة وناديهم ، وإلى المسرح العسكرى الذى الذى أقيم فى صالة فخمة تفوق أرقى صالات العرض العامة .

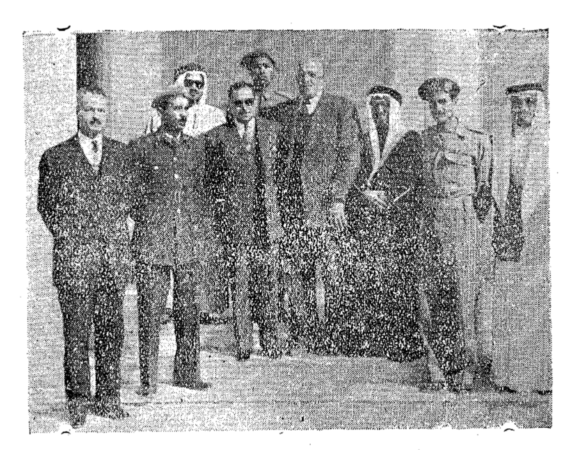
ويبلغ عدد الطلبة نحو مائة طالب، يتناول كل منهم راتباً يبلغ ٤٥٠ ريالا أى ٤٥ جنيهاً فى الشهر ، عدا نفقات الدراسة والإقامة .

وبالكلية ٣٠ أستاذاً من العسكريين والمدنيين ، غالبيتهم من الضباط والمدرسين المصريين ، وقد أقيمت لهم إلى جوار الكلية مساكن حديثة تتوافر فيها الكهرباء والماء وتكييف الهواء . . .

* * *

---

(١) شاب فى مطلع العقد الرابع، ولد بمكة عام ١٣٤٢ هـ وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية ، التحق بالكلية الحربية بالقاهرة وتخرج فيها عام ١٩٤٧ ثم التحق بسلاح الفرسان المصرى وقضى به عاماً وبضعة أشهر ، عاد بعدها إلى المملكة فالتحق بمدرسة التدريب الأمريكية بالظهران ، وفى عام ١٩٥٠ سافر إلى أمريكا حيث التحق بمدرسة المدرعات بولاية كنتاكى، وعاد إلى المملكة فشغل عدة وظائف هامة فى الجيش إلى أن عين مديراً للمدرسة العسكرية ثم مديراً للكلية الحربية . وهو إلى جانب مواهبه العسكرية شاعر مجيد .



أعضاء الوفد عند زيارة الـكلية الحربية بالرياض



درس عملى فى الـكلية الحربية

ولما كانت مدينة الرياض هى مركز النفوذ الدينى فى البلاد . وبها يقيم فضيلة الشيخ محمد بن ابراهيم المفتى الأكبر ، حفيد الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فقد كان للتعليم الدينى فيها مقام ملحوظ ، إذ يقوم بها المعهد الدينى الكبير ، فى قصر تبرع به الأمير فيصل ولى العهد . وقد تقرر إقامة جامعة الرياض الدينية واعتمد لانشائها مليونان من الريالات .

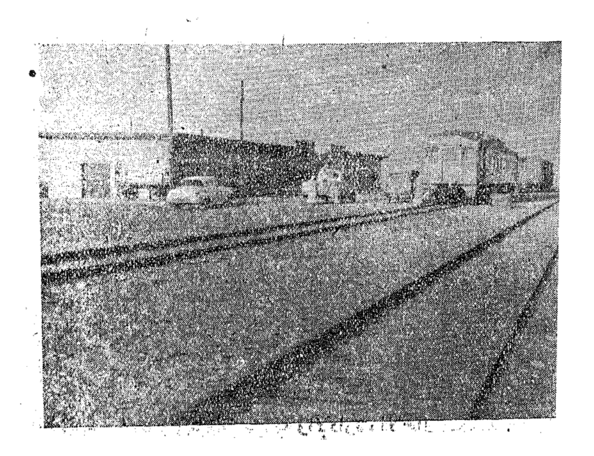
وقد زرنا هذا المعهد ، الذى يشرف عليه فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن ابراهيم آل الشيخ ، شقيق المفتى الأكبر ، وتتبعه ستة معاهد أخرى فى بريدة ، وشقرا ، وعنيزة ، والجمعة ، والاحساء ، وسامطة . ونتبعه كذلك كلية للغة العربية ، وأخرى للعلوم الشرعية .

وتبلغ ميزانية هذا المعهد وفروعه ٧و٤٩٤و٨٩٠ ريالا عربياً أى نحو ٧٥٠ ألف جنيه ، وعدد طلبتها ١٥٤٦ طالباً : منهم ٦١٥ طالباً فى القسم التمهيدى ، و٨٧٢ طالباً فى القسم الثانوى ، و٥٩ طالباً فى كليتى الشريعة واللغة العربية . ويصرف لكل طالب راتب شهرى يتراوح بين ٧٠ ريالا و٦٣٠ ريالا .

وتتألف هيئة التدريس من ١١٤ أستاذاً ، منهم ٥٧ من أساتذة الأزهر ، عدا ٣٢ موظفاً للمراقبة والإدارة والأعمال الكتابية .

وفى الرياض مستشفى الملك سعود العسكرى ، ويقوم فى بناية فخمة تتوافر فيها أحدث الأجهزة للكشف والعلاج، ويضم نحو ٤٠٠ سرير، وقد بلغ عدد الذين عولجوا فيه خلال ستة أشهر ٥٠٠ شخص . عدا الذين يترددون على عيادته الخارجية من العسكريين والمدنيين .

وخارج مدينة الرياض تقع محطة سكة الحديد ، التى تربط العاصمة بالمنطقة الشرقية حتى ميناء الدمام على الخليج الفارسى .





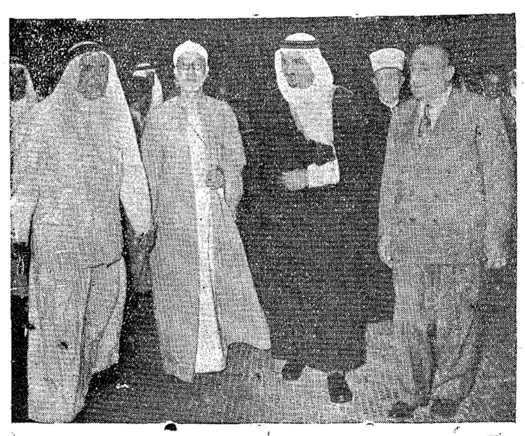
عربة مكيفة الهواء فى سكة حديد الرياض

وقد افتتح هذا الخط الحديدى الأول فى المملكة ، يوم ١٩ محرم سنة ١٣٧١ فى عهد المغفور له الملك عبد العزيز . وبلغت نفقات إنشائه ٢٠٠ مليون ريالى عربى ، أى ٢٠ مليون جنيه ، وبلغت موارد هذا الخط من أجور الركاب والبضائع نحو عشرة ملايين جنيه فى مدى خمس سنوات ...

وبانشاء هذا الخط الحديدى الذى يبلغ طوله ٥٥٦ كيلو متراً ، انتعشت الحياة الاقتصادية والاجتماعية على طول الطريق الذى يخترقه فى هذه المنطقة ، كما ساعد هذا الخط على تزويد الرياض بروافد النهضة الجبارة التى تقوم الآن فى جميع الميادين ، وتيسير المواصلات للحجاج القادمين من الشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسى .

وقد صرح لنا الأمير سلطان وزير المواصلات حين زرنا سموه فى قصره بالرياض ، بأن وزارته تدرس مشروعاً لمد هذا الخط الحديدى إلى مكة والمدينة المنورة ، وبذلك تتم شبكة المواصلات بين جميع أجزاء المملكة ... »

وبمناسبة الحديث عن المواصلات فى المملكة العربية السعودية ، يجمل بنا أن نشير إلى المواصلات اللاسلكية ، والبرقية والتليفونية . فإنها تعتبر من الأجهزة الهامة فى هذه الدولة المترامية الأطراف . وكانت آخر مرحلة فى المواصلات التليفونية هى تعميم التليفون الأوتوماتيكى .



الأمير سلطان فى حفل الاستقبال الذى أقامته السفارة السعودية بالقاهرة . وإلى يمينه فضيلة شيخ الأزهر والسفير السعودى . وإلى يساره السيد أمين الحسينى والدكتور عبد الرزاق صدق

وقد تحدث الأستاذ إحسان عبد القدوس[1] بمناسبة زيارة الأمير سلطان وزير المواصلات للقاهرة عن قصة التليفون الأوتوماتيكى فى المملكة العربية السعودية فقال :

كان الأمير سلطان بن عبد العزيز ، وزير الموصلات فى المملكة العربية السعوديه ، يحدثنا عن مشروع تعميم التليفون والأوتوماتيكى داخل المملكة . . لقد وضعت تصميمات المشروع ، وطرحت المناقصة فى الأسواق العالمية ، وفتحت العطاءات . . وقبل التنفيذ ظهرت مشكلة . . مشكلة أخلاقية . . .

(١) مجلة روز اليوسف العدد ١٥٢٩ الصادر فى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٧

ان التليفون الأوتوماتيكى يفتح مجالا واسعاً للمعاكسات التليفونية . .
ان أى فرد يستطيع أن يدير القرص ، ويتصل بأى بيت ، ويقول أى كلام . . ويخرب البيت . . دون أن تستطيع الدولة القبض على المجرم ، إلا إذا وضعت كل التليفونات تحت المراقبة ، وهو ما لا تستطيعه أى دولة . .

وقد تعرضت مصر لهذه التجربة عندما دخلها التليفون الأوتوماتيكى . . بيوت كثيرة خربت . . زوجات طلقن ظلما . . وبنات اضطهدن ظلما . . وأزواج وآباء عاشوا يتعذبون بالشك . . والغيرة . . عاشوا محرومين من هدوء البال والأعصاب . . محرومين من السعادة العائلية . . محرومين من النوم . . بسبب معاكسات التليفون !

كم جريمة ارتكبت عن طريق التليفون الأتوماتيكى ؟ الله أعلم . . والمدنية يصحبها دائما اختلال فى الأخلاق . . وكلما تقدمت المدنية اختلت الأخلاق أكثر . . ان الجريمة اليوم أسهل منها منذ عشرين عاما . . وكلما اتسع مجال الحرية اتسع معه مجال الخطأ !

لماذا لا يفكر العلماء فى اختراع آلات لصون الأخلاق ، كلما فكروا فى اختراع آلة تفسح مجالا لسوء الأخلاق ؟!

لقد اخترعوا سلاحا ضد الدبابات . . وسلاحا ضد الطائرات . . و . . و . . وهم يفكرون الآن فى سلاح ضد الصواريخ الموجهة . . فلماذا لا يفكرون فى سلاح ضد التليفون الأتوماتيكى !

وتردد وزير المواصلات السعودى طويلا قبل أن يقدم على تنفيذ

مشروعه . . انه يريد أن يجنب المملكة السعودية هذه التجربة الأخلاقية التى مرت بها بقية الدول . . يريد أن يجنب البيت السعودى الخراب . . ثم إن رجال الدين يقفون فى وجه المشروع . . إنهم يعلمون أيضاً ما فيه من إفساح المجال للجريمة الخلقية . .

وسافر الأمير سلطان يطوف بمصانع التليفونات بحثا عن جهاز يصون الأخلاق . .

وأخيراً وجده . . .

وجد السلاح المضاد للتليفون الأوتوماتيكى . .

انه جهاز اخترعته شركة سيمونز الألمانية ، تستطيع به ، إذا اتصل بك أى شخص فى التليفون ، أن تدير رقم « صفر » من تليفونك ، فتعرف فى الحال رقم تليفون الشخص الذى يحادثك ، وفى نفس الوقت يسجل هذا الرقم على لوحة فى مركز التليفونات . .

ولا يبقى عليك بعد ذلك إلا أن تتصل ببوليس النجدة ، ليقبض على المتحدث . .

وتم تعميم التليفون الأوتوماتيكى فى المملكة العربية السعودية ، بعد أن زود بهذا السلاح المضاد . . .

معجزة البعث الجديد

١

قال لى الصديق الأستاذ شكيب الأموى المستشار الصحفى لشركة أرامكو ، وهو يودعنى ليلة سفرى إلى الرياض :

ـــ أرجو ألا تفوتك فرصة زيارة الظهران ، فهى على مقربة من الرياض ، وتستطيع أن تصل إليها بالطائرة فى أقل من ساعة ، أو بالقطار فى خمس ساعات تشهد خلالها كثيراً من البلاد الهامة التى يمر بها القطار .

وعُرضت علينا هذه الفكرة كذلك فى الرياض ، فما يصل إليها زائر إلا هيئت له هذه الفرصة لمشاهدة الأرض التى انبثقت منها معجزة البعث الجديد فى المملكة العربية السعودية .

ولكن هناك واجباً كان يفرض على أن أعود إلى جدة ، بعد يومين أقمتهما فى ضيافة الملك بالرياض . هذا الواجب هو استقبال الفوج الرابع من أعضاء الرحلة عند عودته من المدينة المنورة وتدبير أمر عودته إلى مصر .

فما هى منطقة الظهران هذه التى يجدر بكل زائر للمملكة العربية السعودية أن يرتادها ، ليقف على مصادر البعث الجديد ومعجزته الرائعة فى هذه البلاد ؟

إن القصة تبدأ بصورة عجيبة . . .

صورة اجتماع بين الملك سعود ومستر شارلس كراين الذى كان وزيراً للولايات المتحدة فى الصين ، ومستر كارل توتشل المهندس الأمريكى الخبير بعلم طبقات الأرض . .

وفى هذا الاجتماع ، طلب الملك عبد العزيز من الرجلين القيام بأبحاث للكشف عن موارد للمياه فى المملكة العربية السعودية ، وكان ذلك هو الأمل الوحيد فى ذلك الوقت ، الذى يتعلق به عاهل الجزيرة والشعب العربى الذى تقوم حياته واقتصادياته كلها على توافر الماء . . .

وبدأ مستر توتشل أبحاثه فى عدة مناطق ، وكان لوزير المالية وقتئذ معالى الشيخ عبد الله السليمان ، جهود بارزة فى هذا المشروع ، واستغرق البحث بضع سنوات كانت تتراوح فيها عوامل اليأس والرجاء ، وبدلا من أن يؤدى البحث إلى كشف موارد جديدة للمياه أدى إلى كشف موارد للبترول ! !

ومنذ ذلك اليوم بدأ فى المملكة العربية السعودية تاريخ جديد . . .

واتجهت أنظار الشركات العالمية إلى هذه البلاد ، وأنفقت على أعمال التنقيب نحو عشرة ملايين من الدولارات فى خمس سنوات ، حتى اطمأنت إلى غزارة حقول البترول فى المنطقة الشرقية وتبلغ مساحتها ١٥٠ ألف ميل مربع .

وتم توقيع اتفاقية الزيت بين الملك عبد العزيز وشركة « كليفورنيا إريبيان ستاندرد أويل » فى ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣ وأطلق على هذه الشركة فيما بعد اسم شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » .



الأمير سعود بن جلوى
أمير المنطقة الشرقية

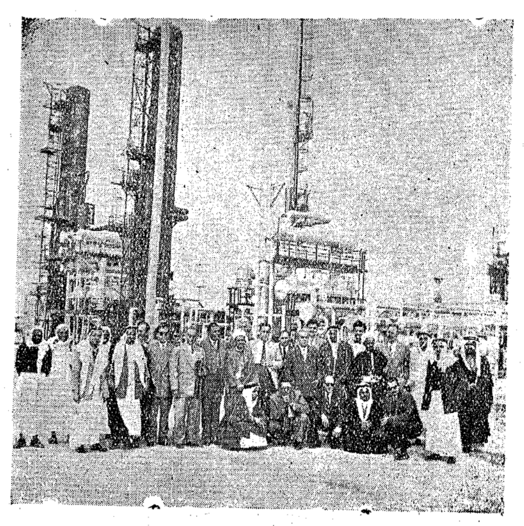


معالى الشيخ عبد الله السليمان
. . كان له دور كبير . . .

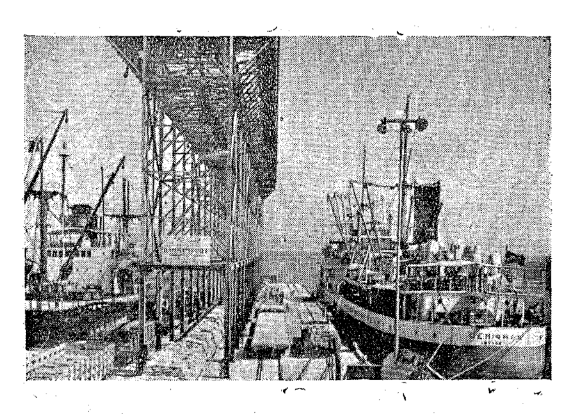
وظلت أعمال الحفر والتنقيب عدة سنوات ، قبل أن تنتج حقول الزيت كميات تجارية ، ومنذ سنة ١٩٣٨ بدأ الانتاج يتطور ويزداد ، وبدأت تثبت دعائم هذا المشروع العظيم ، الذى وصل أخيراً إنتاجه اليومى نحو مليون برميل ، وبلغ إنتاجه فى العام الأسبق ٤٧ مليون طن من الزيت الخام .

وكانت حصيلة الحكومة السعودية فى ذلك العام من هذا الانتاج نحو ٢٧٥ مليون ريال ، أى ٢٧ مليون و ٥٠٠ ألف جنيه .

وقامت فى المنطقة الشرقية مدن صناعية ضخمة أهمها مدينة الظهران، كما انتشرت مراكز الإنتاج حول ١٤٤ حقلا من حقول البترول ، وأقيم معمل للتكرير فى رأس تنورة بلغ إنتاجه فى العام الماضى نحو ١١ مليوناً من الأطنان . . .



أعضاء اللجنة الثقافية فى زيارة معامل رأس تنورة



وأقيم ميناء الدمام الحديث فى هذه البلدة التى كانت قرية صغيرة على الخليج الفارسى ، فتحولت إلى مدينة ضخمة ترسو على مينائها عابرات المحيط ، فتحمل إلى هذه البلاد ما قيمته ١٧ مليون جنيه من مختلف الواردات وتنقل منها ملايين الأطنان من البترول .

ويمتد ميناء الدمام إلى مسافة سبعة كيلومترات داخل الخليج ، حيث تسير على هذا اللسان قطارات السكة الحديد للشحن والتفريغ .

وأنشئ خط للأنابيب من الظهران إلى صيدا تجرى فيه ملايين الأطنان من البترول عبر الصحراء ، حتى تصل إلى ميناء صيدا لتصديره إلى الأسواق العالمية .



الأمير عبد العزيز بن سعود بن جلوى ، وإلى يمينه مستر ف . ا . ديفيز رئيس مجلس إدارة الشركة ، وإلى يساره مستر ت . س . بارجر رئيس مكتب العلاقات الحكومية المحلية ، وخلف الأمير سعادة الشيخ عبد الرحمن الشيباني رئيس ديوان أمير الظهران

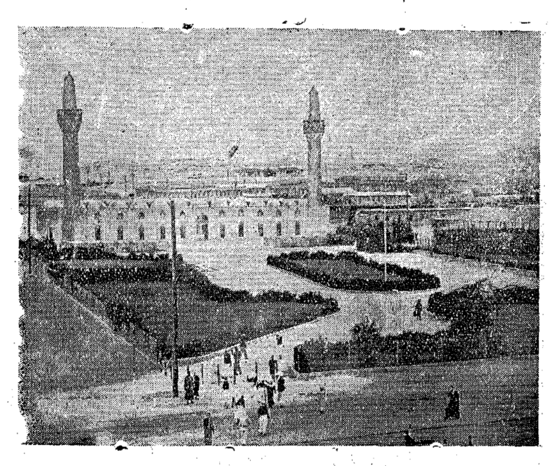
وعلى جانبي هــذا الخط أقيمت موارد المياه ومحطات الصيانة، والوحدات الصحية . وقد أفادت بذلك القبائل المنتشرة على طول هذا الطريق كثيراً من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية .

ويبلغ عدد الموظفين والعمال فى شركة «أرامكو» ٢١٨٥٨ شخصاً منهم نحو ٦٥ ٪ من السعوديين الذين درب الكثيرون منهم على الأعمال الفنية الهامة.

ويصور التطور الاقتصادى للمملكة العربية السعودية تبعا لزيادة إنتاج الزيت المقارنة الآتية :

١ ـــ كان الإنتاج فى سنة ١٩٣٨ ٦٥٫٦١٨ طنا
٢ ـــ صار الإنتاج فى سنة ١٩٥٤ ٤٦٫١٣٦٫٥٨٣ طنا

أى بزيادة توازى الإنتاج منذ ستة عشر عاما، سبعة آلاف مرة !!



مسجد حى الموظفين بالظهران

٣

وليس من شك فى أن التطور الاقتصادى فى موارد الدولة ، كان أسرع بكثير جداً من التطور الاقتصادى والاجتماعى فى حياة الشعب ؛ لأنه لم يكن تطوراً بالمعنى الرتيب المفهوم ، ولكنه كان طفرة واسعة المدى ، لم تتهيأ الأسباب الاجتماعية فى تلك البلاد لملاحقة وثباتها السريعة الخاطفة . . .

على أن الزمن الذى تمت فيه هذه المعجزة الاقتصادية ، والفلك القوى الذى تدور فيه الآن ، كفيل بأن يختصر كثيراً من الأبعاد ، ويجتذب إليه كثيراً من القوى البادية فتندمج فى جوه الحضارى الجديد ، وتنطلق فى مداره الاجتماعى البعيد . . .

وهنا يمسك بعض الناس قلوبهم من حذر وإشفاق . . .

إن فى أعماقهم آثاراً دامية من تاريخ الغزوات الاقتصادية والسياسية التى شنها الغرب على الشرق ، وإن لهذه البلاد وضعا خاصا ومكانة مرموقة بين الدول العربية والإسلامية ؛ لأنها أرض التوحيد ، ومنزل الوحى ، ومقر الكعبة ، وقبلة المسلمين فى الصلاة . . .

فهل يا ترى تتكرر المأساة فتنفذ إلى هذه البلاد مطامع الغرب السياسية وتطغى عليها حضارته الاجتماعية ، فتذوى مقوماتها الدينية والقومية ، وتذوب عناصرها السياسية وفضائلها الاجتماعية فى ذلك الطوفان الجديد ؟

إنها مشكلة خليقة بأن تشغل الأذهان ، وأن تثير فى النفوس كثيراً من الحذر والإشفاق !

على أنى لا أذهب بعيداً فى التشاؤم وسوء الظن ، ولا أتخذ من بعض المظاهر المسرفة التى كانت من أثر الفجاءة والطفرة ، دليلا على خطر تلك النهضة الاقتصادية وسوء آثارها السياسية والاجتماعية فى مستقبل هذه البلاد ، لأنى أومن بسلامة الفطرة العربية، وقوة معدنها، وقدرتها على تمثل الحضارة ، والانطلاق بها على سجيتها السليمة التى لا تقبل التعقيد ، ولا تلين لسيطرة الأجنبى ، والتى تستعصى على التحلل والانمياع . . .

ولكنى أحب أن أنبه أولى الأمر فى المملكة العربية السعودية — وأنا أضع بين أيديهم هذه المشكلة ، وأرجو أن أبدد بعض ما يخامرنى ويخامر الكثيرين من وساوس وشكوك — أحب أن أنبههم إلى عبرة من التاريخ ، إذا أرادوا أن يحققوا بهذه المعجزة معجزة أخرى . . هى بعث الأمة العربية لتضطلع برسالتها الخالدة فى الحياة من جديد . ولتعيد مجد الإسلام وحضارته على أساس وطيد من العلم والدين!

تلك العبرة هى ما اعترى المسلمين حين فتح الله عليهم أقطار الأرض ، واتصلوا بمدنيات العالم وحضاراته ، فكان تأثرهم بها أقوى من تأثيرهم فيها، وبذلك انحلت مقوماتهم التى سادوا بها الدنيا فى أقصر

وأسرع فترة عرفها التاريخ — تاريخ الدعوات الدينية والسياسية، وضعفت قواهم المؤثرة الغلابة، وتشوهت فطرتهم السليمة، فاذا موجتهم الطاغية تنحسر وترتد إلى الوراء، وإذا هم يتخلفون عن مكان الصدارة ويرتكسون فى الأعماق ...

هذه العبرة التاريخية الواقعية، تفرض على أولى الأمر فى المملكة العربية السعودية أن يجنبوا الشعب العربى مزالق الخطر، وأن يحفلوا بالأمر على مداه الواسع البعيد فى حاضره ومستقبله، فيكون سبيلهم إلى تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية، أو على الأصح إلى ملاحقة هذا التطور السريع، هو حماية هذا التطور وتدعيمه بخصائص العروبة البادية السليمة، بحيث تكون هذه الحضارة الجديدة مسخرة لتلك الخصائص متأثرة بفضائلها، لا أن تكون العروبة مسخرة لتلك الحضارة بخيرها وشرها، مناعة فى كيانها الغلاب وروحها الجذاب ...

بذلك — وبذلك وحده — لا تخامرنى ريبة أو إشفاق ولا يطغى على تشاؤم أو قلق، من أثر الحضارة الجديدة التى بدأت ينابيعها تتدفق مع الزيت فى الظهران ...

وبذلك أيضاً أستطيع أن أومن بمستقبل الأمة العربية، وأن أتوقع المعجزة التى تجدد شباب العروبة وينبعث بها مجد الإسلام.

* * *

ثم هناك حقيقة أخرى ينبغى أن تكون ماثلة فى الأذهان، وينبغى ألا تطغى عليها نشوة الثراء الفياض الذى يغمر هذه البلاد الآن.

هذا الزيت الذى انبثقت ينابيعه فانبثقت معه ينابيع الحياة فى قلب الصحراء، وامتدت شرايينه فى أرجاء البلاد، تحمل إليها روافد التطور الخاطف فى مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية ...

إنه العنوان الرائع الذى خطه القدر على يد الملك عبد العزيز — طيب الله ثراه — لهذه المرحلة الجديدة فى تاريخ الجزيرة العربية .

وإن ما تدخره أرض المملكة من ينابيع هذا الذهب الأسود يزيد أضعافاً مضاعفة على ما ظهر منها حتى الآن ، ويكفل للبلاد رصيداً هائلا من هذه الثروة التى تعتبر فى وقتنا الحاضر عصب الحياة .

ولكن ماذا بعد ؟

نظرة بعيدة أو قريبة إلى مستقبل الطاقة الإنتاجية فى العالم تلهمنا الجواب ...

لقد كان الفحم هو مصدر هذه الطاقة فترة طويلة من الزمان ، ثم تفجرت ينابيع البترول فى الشرق والغرب ، ففقد الفحم أهميته وصار البترول هو مصدر الطاقة الإنتاجية الضخمة ، فى مختلف ميادين الحياة المدنية والحربية وما يزال .

ولكن تطور العلم لا يقف عند حد ، والفكر الإنسانى لا يقنع بما يحرزه من انتصار فى سبيل الكشف عن القوى الكونية وتسخيرها لصالح الإنسانية .

وكان آخر انتصار للعلم فى هذا الميدان هو تفجير الذرة ، وبذلك دخلت الانسانية فى تاريخ جديد .

وظهر جهاز صغير فى حجم آلة التصوير ، يمكن استخدام طاقته الذرية فى إدارة جميع مرافق البيت . وهذا مثل صغير ، ولكنه يعطى دلالة ضخمة على مستقبل الطاقة الذرية فى السيطرة على ميادين الانتاج فى جميع مرافق الحياة .

ومرة أخرى ينسخ تطور العلم آية بآية ...

وكما نسخ بآية البترول آية الفحم ، فسوف ينسخ بآية الذرة ما سبقها من آيات ...

وهذه حقيقة علمية جديرة بالتدبر والاعتبار .

إن البترول هو المصدر الأول للثروة الاقتصادية فى المملكة العربية السعودية ، ويكاد يكون العنصر الوحيد فى وقتنا هذا ، فماذا تكون الحال حين يطغى استخدام الذرة فى الميادين التى تعتمد الآن على البترول ؟

وإن أمامنا فترة قد تقصر وقد تطول قبل أن يتم هذا التطور فى ميادين الإنتاج العالمى ، ولكنه تطور لا يتوقف ولا يخاف موعده . فمن الواجب إذن أن نستعد لمواجهته منذ الآن باستثمار حصيلة الزيت — بأكبر قدر مستطاع — فى مضاعفة المشروعات الإنتاجية وفتحا آفاق جديدة للصناعة والزراعة والتجارة ، واستغلال الكنوز المخبوءة فى باطن الأرض معدنية ومائية ؛ والتوسع فى سياسة التعليم الفنى وتدعيم النهضة الحاضرة فى شتى الميادين .

إننا في سباق خطير مع الزمن ، ونحن نملك الآن من وسائل الانطلاق ما يكفل لنا السبق ، فإذا لم نستخدم هذه الوسائل على أسس علمية في سبيل بناء الدولة وتأسيس مستقبلها الاقتصادى والاجتماعى ، ونكفل لهذه البلاد موارد جديدة للثروة القومية تزيد مع الزمن على موارد البترول ، جاء الوقت الذى تفقد فيه هذه الموارد قيمتها وتخلف بنا الركب في سباق الحياة .

على أن السياسة التى بدأت تسير عليها الدولة فى ضبط ميزانيتها ، وتخصيص بعض أبوابها للمشروعات الإنتاجية إلى جانب مشروعات الخدمات العامة ، تبعث الطمأنينة فى حاضر هذه البلاد ومستقبلها ، وتحقق بالتوسع فى هذه النواحى الهامة كثيراً من الضمانات التى تؤمّن الكيان الاقتصادى والاجتماعى للبلاد .

٥

نشرت هذا الرأى فى مجلة الرياض ، وكان له صداه البعيد فى مختلف الأوساط، وإن اعتبره بعض قصار النظر إسرافاً فى التقدير لا مبرر له على الإطلاق . . .

على أن من بين الردود التى تلقتها المجلة رداً يجدر بى أن أثبته هنا لقيمته الفنية ، كتبه الخبير الكيميائى الصناعى بجدة الدكتور سليم خليل الدمياطى إذ قال :

ــ قرأت ما كتبه الأستاذ سكرتير تحرير الرياض فى « خواطر » العدد الماضى بعنوان « مستقبل الزيت بعد تفجير الذرة » .

وكان فيما كتبه بلباقة المنذر والحذر ، يهدف إلى توجيه الأنظار نحو أخطر ناحية حيوية تهم المملكة قبل غيرها . وقد حمدت الله على أن توجيهات المليك العظيم كان لها أثرها فى خلق جو فكرى تتفاعل فيه القوى المثمرة لخير الجميع ، قولا وعملا وتحذيراً وتوجيهاً .

لا ريب أن الزيت نعمة موقوتة من نعم الله على أمتنا العربية . وقد ربح العراق والكويت والبحرين وقطر ومصر والمملكة العربية السعودية من حصيلة الزيت مبالغ كبيرة من المال، وكان لذلك أثر كبير فى تغيير الحياة العامة فى هذه الأقطار فى جميع الميادين .

ولن يفقد الزيت قيمته الحيوية كخامة من أهم الخامات ، ولن يفقد بعض قيمته كمادة للوقود . ولعل من الخير للصناعة ألا تحرق قطرة واحدة من خامة النفط لتستهلك فى توليد طاقة ، ذلك لأن النفط الخام أصبح خامة يصنع منها عشرات الألوف من المواد المختلفة ، فى مقدمتها عدد كبير من العقاقير الطبية والأصباغ بأنواعها ، والجلود الصناعية والمركبات الدهنية والشحمية التى لا يستغنى عنها فى الصناعة وفى الحياة العامة ، والعطور والمساحيق التى تدخل الفرح إلى قلب المرأة ، وفوق ذلك الأنسجة الحريرية والصوفية « نيلون رريون وغيرهما » ثم مئات الأشياء الأخرى . . .

سوف لا يكون النفط الأسود خامة لا قيمة لها مطلقاً، بل سيكون أغلى مما هو الآن بسبب استهلاكه فى الصناعة ، والذى سيحدث هو أن هذه الملايين من الأطنان التى تستهلك يومياً كوقود ، سوف تهبط إلى

عشر معشارها فى التصنيع . وطبيعى أن تهبط الحصيلة السنوية إلى أقل مما هى الآن عند الحكومات العربية وفى العالم كله ، ولكن فى هذه الفترة سيكون الزيت الأسود مصدر خير لأصحابه ، إذ ستتضاعف مقاديره ، فبدلا من أن يكون عمر انبعاث الزيت من أعماقه خمسين سنة مثلا ، سيصبح خمسمائة سنة ، وهكذا . . .

على أن هناك أخطاراً أخرى غير التى ذكرها الأستاذ سكرتير التحرير ، منها خطر وقوع حرب طاحنة ، ستكون آبار الزيت محط أنظار المتحاربين فيها ، وستكون حقولها ميداناً تتصارع فيه قوى الفريقين للاستفادة من القوى المدخرة فى النفط. والحرب الحديثة تعول على القوى الميكانيكية فى تحركاتها ، قبل أن تعول على أى شىء آخر .

وقد سبق لى فى عام ١٣٦٩ هـ أن قدمت إلى معالى وزير المالية تقريراً حول هذا الموضوع الذى يعالجه الأخ سكرتير تحرير « الرياض » وذكرت فيه أن الواجب يحتم علينا اليوم أن نستعين بجزء من حصيلة الزيت السنوية فى إقامة صناعات تؤمن للبلاد بعض حاجاتها سنويا ، كما تؤمن للمواطنين والمملكة مصادر حيوية تعيش عليها ، وتطمئن إليها فى حاضرها وفى مستقبلها . فإذا استمر البرنامج الإنشائى هذا يسير فى الاتجاه الصناعى الاستثمارى ، فلن يمضى علينا عقد أو عقدين من السنين ، حتى تكون البلاد قد أقامت قلعة إنتاجية تؤمن لها الاستقرار ولا يضيرها ما قد يحل بزيتها من أخطار . . .»

٦

فى يناير سنة ١٩٥٤ فتحت صفحة جديدة فى تاريخ النهضة الحديثة بالمملكة العربية السعودية ، إذ أعلن إنشاء الشركة العربية السعودية لناقلات البترول .

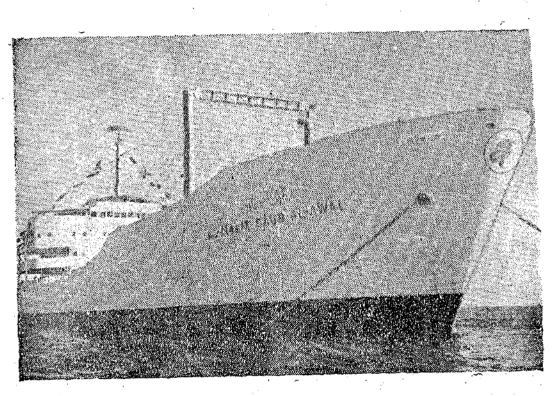
وبعد ستة أشهر أنزلت إلى مياه « هامبورج » السفينة « سعود الأول » التى تعتبر من أكبر ناقلات البترول فى العالم .

وفى أول مايو من العام الأسبق احتفل برفع العلم السعودى على هذه الناقلة ، وأقلعت من ميناء هامبورج يودعها مائة ألف نسمة فى أول رحلة لها إلى الشرق ، لنقل البترول من المملكة العربية السعودية إلى الولايات المتحدة.

وقد بلغت تكاليف هذه الناقلة سبعة ملايين ومائة ألف دولار ، ويبلغ طولها ٢٣٦٤ قدما ، وحمولتها ٤٧ ألف طن .

وتعتبر الناقلة « سعود الأول » نواة الأسطول البحرى التجارى للمملكة العربية السعودية ، إذ يتضمن برنامج الشركة بناء ٢٣ سفينة أخرى ، وإنشاء كلية بحرية بالمملكة العربية السعودية لتخريج ٥٠ ضابطا بحريا كل عام ، يتولون العمل فى الأسطول البحرى الحديث ، كما تقرر إنشاء أحواض بحرية لإصلاح السفن تستوعب نحو ألفين من البحارة والعمال .

وبذلك آن لهذه البلاد أن تسترد مكانتها البحرية التى فقدتها منذ أكثر من سبعين عاما ، هذه المكانة التى يؤهلها لها موقعها الجغرافى على بحرين كبيرين هما البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وامتداد سواحلها



ناقلة البترول « سعود الأول »

نحو ثلاثة آلاف ميل. كما يؤهلها لهذه المكانة مركزها الاقتصادى الذى يتصل بتجارة البترول ومواسم الحج .

وإذا علمنا أن الشركات التى تتولى نقل البترول من المملكة العربية السعودية إلى الخارج يبلغ عددها ١٨١ شركة أجنبية ، فإن الأمر يبدو على درجة خطيرة إذا ما تصورنا مدى السيطرة الأجنبية على أهم مرفق اقتصادى وتجارى فى هذه البلاد ، وخطورة النتائج التى تترتب على ذلك وخاصة فى حالات الحرب . . .

لهذا كان إنشاء الشركة العربية السعودية لناقلات البترول وبناء أسطول بحرى فى هذه البلاد ، خطوة لا بد منها لتحرير مرافقها

الاقتصادية والتجارية من تلك السيطرة الأجنبية ، ولتقوم الدولة بنصيبها في ميدان النقل البحرى ، وتعتمد على أسطولها فى نقل بترولها إلى حد يمكنها من حماية هذه التجارة الضخمة وتأمين تصديرها إلى الأسواق العالمية .

إنها خطوة واسعة ، ولكن يجب أن تليها خطوات حتى تتناسب قوة الأسطول البحرى مع ضخامة الإنتاج فى حقول الزيت . وبذلك تحقق الدولة أهدافا عدة . . . منها ما ذكرت ، ومنها فتح آفاق جديدة فى حياة الشعب ، باعداد عدد كبير من الشباب للانخراط فى سلك البحرية ، وتوفير ميادين العمل الفنى والملاحى لمئات الألوف من الصناع والعمال والبحارة .

٧

وليس البترول هو الثروة الوحيدة التى تحتضنها أرض المملكة العربية السعودية ، بل إن هناك كنوزاً أخرى قد لا تقل أهمية عن البترول مطمورة فى الرمال . . .

وأول هذه الكنوز ما كشف عنه مستر توتشل من مناجم الذهب وغيره من المعادن . وقد عقدت فى مايو سنة ١٩٣٤ اتفاقية للتنقيب والاستغلال فى مناطق شاسعة بالحجاز ، تبلغ مساحتها ١١٠ آلاف ميل مربع ، أى على حد تعبير مستر توتشل ما يوازى مساحة الجزر البريطانية ! !

وقد أمكن اكتشاف خمسة وخمسين منجما قديما ، أهمها منجم « مهد الذهب » الذى بدأ العمل فى استغلاله منذ سنوات . وما زالت المناجم الأخرى تنتظر التوسع فى سياسة التعدين ، لتفيض برصيدها الهائل من التبر ، وتمد الثروة الاقتصادية للبلاد بفيض زاخر على مر السنين .

وهناك مناجم أخرى فى كثير من الجهات ، للفضة والنحاس والحديد والرصاص ورواسب الباريت ، وغيرها من أنواع المعادن الأخرى . وهى كذلك تنتظر الجهود الصادقة لتصبح مورداً هاماً من موارد الصناعة والتعدين .

وإلى جانب الثروة المعدنية المطمورة فى رمال المملكة العربية السعودية ، توجد ثروة أخرى من الممكن أن تحيل ملايين الأفدنة من هذه الرمال إلى جنات وارفة الظلال ...

إنها المياه الزاخرة تحت طبقات الأرض ، والتى لا تحتاج فى كثير من مناطقها إلا الى جهد يسير تتفجر معه ينابيع الأرض وكأنها الأنهار ...

وقد أعطت التجارب التى قامت بها الحكومة فى بعض المناطق ، نتائج عظيمة فى تفجير هذه الينابيع واستغلالها فى رى الالوف من الأفدنة ، كما حدث فى الخرج التى تقوم بها الآن زراعات نموذجية ممتازة ..





الشيخ عثمان باعثمان
المشرف على عمليات المياه

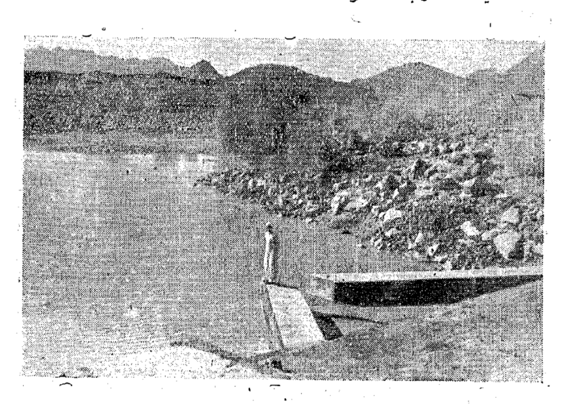
فى عرفات . . .
توفير المياه لمئات الألوف

وهناك مناطق صالحة للزراعة تقدر مساحتها بمئات الألوف من الأفدنة فى الأحساء والحجاز وعسير . ومن الممكن باستنباط موارد المياه ، وبناء السدود لحجز مياه السيول التى تتدفق بغزارة فى وديان الحجاز وعسير ، تحويلها إلى مناطق خصبة تغل أجود المحاصيل ، وتقفز بالمملكة العربية السعودية إلى الصف الأول بين البلاد الزراعية . .

وليس أدل على طبيعة هذه البلاد من الناحية الزراعية ، من تلك السدود القديمة التى ما زالت آثارها قائمة فى المدينة المنورة وفى نجران وفى الطائف وغيرها ، وهذا دليل على ما كانت عليه البلاد من عناية بشئون الزراعة والرى ، وعلى صلاحية تربتها للزراعة فى كثير من المناطق .

وقد استقدمت الحكومة فى سنة ١٩٤٢ بعثة أمريكية لدراسة الشئون الزراعية فى البلاد ، وأكدت هذه البعثة توافر مصادر الثروة الزراعية فيها ، ونجحت التجارب التى قامت بها نجاحاً يشجع على متابعة الجهود فى هذه الناحية الهامة ، ذات الأثر البعيـــد فى حياة الشعب واقتصاديات الدولة .

واتجهت الحكومة إلى العناية بإقامة السدود ، فأنشأت منذ عامين سد عكرمة بالطائف ، وقد بلغت تكاليفه مليوناً من الريالات . كما أقامت سد العاقول بالمدينة المنورة ، وقد شهدت هذا السد العظيم فإذا هو يحتجز كميات هائلة من مياه السيول ، كانت تتبدد من قبل فى الأودية ومسارب الصحراء .



جانب من سد العاقول بالمدينة

فى طريق المدينة

١

وفى إحدى رحلات أعضاء البعثة إلى المدينة ، مررنا بقرية بدر التى شهدت فى فجر الإسلام أول موقعة بين المسلمين ومشركى مكة .

وطلبنا من سائق السيارة أن يعرج بنا على مكان الموقعة ، وهو بين كثبان من الرمل إلى يسار الطريق الذاهب إلى المدينة .

وهناك وقفنا نشاهد الآثار التى خلفتها تلك الموقعة الخالدة ، ونستشعر ما لهذه الأرض من مجادة وقداسة ؛ إذ كانت مسرحاً اختلطت فيه الملائكة بالأبطال المغاوير من أصحاب محمد ، إذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ »

إن الأمر بين محمد وهؤلاء المشركين الذين أخرجوه وصحبه من

ديارهم بعد أن ائتمروا به ليقتلوه ، وبعد أن لجّوا فى إيذاء المستضعفين من المسلمين الذين ظلوا بمكة ... لا بد له من أن يبلغ غايته فى جولة حاسمة !

وترصد المسلمون بالمدينة قافلة من قوافل قريش ، كانت عائدة من الشام تحمل تجارة قدر ثمنها بخمسين ألف دينار ، وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلا .

وما إن بلغ أبا سفيان الخبر قبل وصوله إلى المدينة ، حتى بعث رجلا يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم ، ووصل الرجل إلى مكة وقد قطع أذنَى بعيره وجدع أنفه ، وشق قميصه من قُبُل ومن دبر وأخذ يصيح :

— يامعشر قريش ... اللطيمة اللطيمة[1] ... أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها .. الغوث .. الغوث !!

وتداعى الناس من كل مكان ، فلم يبق فى مكة قادر على القتال إلا حمل سلاحه ، وانطلقوا وراء « أبو جهل » لملاقاة محمد وأصحابه ...

وتحول ميزان الموقف ...

إن محمداً وأصحابه الذين خرجوا للقتال وعدتهم بضعة عشر وثلاثمئة ، لن يكون أمامهم أبو سفيان وصحبه الأربعون وحدهم ، بل إن قريشاً قد أمدت هؤلاء بألف مقاتل ... فماذا هم فاعلون ؟

واستشار محمد أصحابه ، فقال المقداد بن عمر :

(١) المال والتجارة .

— يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى « اذهب انت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون !

وعاد محمد فقال :

— أشيروا علىّ أيها الناس ...

وكان يعنى الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم ...

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى محمد وقال :

— لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل ...

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منها ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله !

فأشرق وجه محمد عليه الصلاة والسلام . . .

وقال لأصحابه :

ـــ سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم ...

وهنا . . على هـذه الأرض من قرية بدر التى مررنا بها فى طريقنا إلى المدينة ، دارت المعركة بين ثلاثمئة وبضعة عشر رجلا من المسلمين وألف من المشركين ...

هنا العُدوة الدنيا حيث نزل محمد وأصحابه ، وهناك العدوة القصوى حيث نزلت قريش . وبينهما ساحة المعركة الرهيبة وقد تلاقى فيها الجمعان ...

وهال محمداً قلة عدد أصحابه وعدتهم ، وكثرة العدو وقوته ..

وأشفق الرسول أن تدور الدائرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم بعدئذ قائمة ...

وهنا فى هـذا المكان ... كان يقوم عريش يأوى إليه الرسول ، وفى هذا العريش وقف ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ مستقبلا القبلة وقد استبد به القلق والإشفاق ، رافعاً يديه فى ضراعة وابتهال وهو يقول :

ـــ « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

ثم خفق خفقة من نعاس ، انتبه بعدها وقد علاه البشر وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول :

ـــ والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة !

واندفعت جموع المسلمين على قلتها هاتفة : أحد ، أحد .. والتقى الجمعان فى ملحمة رهيبة، وشهد هذا المكان أروع صورة للإيمان، وكيف يجعل من القلة كثرة طاغية، ومن الضعف قوة غلابة، وكيف كان يسمو بالنفوس عن عصبية الأهل والدم فيلتقى الأب مع ابنه .. هذا مسلم وذاك مشرك ، فلا يكون الحكم إلا لكلمة الله !

وطاحت أعناق كثير من زعماء قريش احتواهم « القليب » فى هذا المكان .. وهنا أيضاً تقوم مقابر الشهداء !!!

تلك هى بدر ، على قاد سبعين كيلو متراً من المدينة ، وما زالت كثبانها وآبارها ومقابرها تروى ذكرى أول معركة حاسمة فى تاريخ الإسلام ...

وقبل أن نبلغ المدينة بنحو تسعة كيلو مترات نزلنا بأبيار على ، وقد أنشئت بها محطة لتوليد الكهرباء لإنارة المدينة المنورة قوتها ١٣٥ حصاناً و ٨٠٠ كيلوات . وإلى جانب هذه المحطة المصنع الذى أمد عمارة المسجد النبوى بالموزايكو وأغنى عن استيراده من الخارج .

وانطلقت بنا السيارة حتى بلغنا بئر عروة فى وادى العقيق ، على بعد بضعة كيلو مترات من المدينة المنورة .

وهذه البئر أنشأها عروة بن الزبير وأقام إلى جوارها قصراً منيفاً ، وكانت البئر وما تزال مورداً عذباً ومناخاً جميلا للقوافل المارة من هذا الطريق ، لا يمر منه أحد إلا استقى من مائها العذب .

ولم يبق الآن شىء من آثار قصر عروة ، ولكن البئر ما زالت

تمد الواردين بمائها الفرات ، وإلى جانبها بعض المقاهى التى تمتلىء فى ليالى الصيف بالسمار ...

وفى بئر عروة يقول الشاعر السرى بن عبد الرحمن الأنصارى :

كَفِّنُونِى إن متُّ فى درع أرْوَى
واسْتَقُوا لى من بئر عُرْوَةَ مائى
سُخْنَةٌ فى الشِّتاء باردةُ الصَّيف
سِرَاجٌ فى اللَّيلةِ الظلماءِ . . .

٢

وفى مدخل المدينة المنورة تقوم محطة السكة الحديدية التى كانت تربط ما بين المدينة والشام ، وما زال بناء هذه المحطة قائماً ، وإن كان يبدو كالقلب الذى خفت وانقطعت عنه شرايين الحياة ، وقد تناثرت فى فنائه القاطرات والعربات كئيبة موحشة كالأطلال .

على أن إعادة هذا الخط الحديدى أصبحت الآن موضع الدراسة والتنفيذ ، وتم الاتفاق بين المملكة العربية السعودية والجمهورية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية على ذلك ، وتبرع الملك سعود بمبلغ مليونى ليرة سورية للبدء فى اتخاذ الدراسات الفنية لتنفيذ المشروع ، وتقوم بهذه الدراسات الآن لجان فنية ، توشك أن تنتهى من مهمتها فى وقت قريب . .

وإعادة سكة حديد الحجاز ، سيكون لها أثر كبير فى تيسير المواصلات بين البلاد العربية ، كما ستكون عاملا قوياً فى إنعاش الحياة الاقتصادية فى المدينة المنورة . . . .

عمارة الحرم النبوى

١

... ووصلنا إلى فندق التيسير ، حيث أخذنا زينتنا وقصدنا إلى مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم .

وبهرتنا العمارة الفخمة التى تمت فى المسجد النبوى ، ففاقت فى سعتها وبنائها وطرازها كل ما مر بالمسجد عبر التاريخ من عمارات .

وأقبلنا على المقام الشريف فى شوق دافق ينهنهه الحياء ، وألقينا السلام على صفوة الخلق وخاتم الأنبياء . . .

ثم سلمنا على الصاحبين أبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — وعدنا إلى الروضة الشريفة فأدينا الصلاة .

لحظات خالدة لا تنمحى آثارها العميقة فى النفس ، وشعور بالطمأنينة والسلام والحب يغمر القلب والوجدان . . .

ثم صحبنا معالى الشيخ صالح قزاز وزير الدولة المشرف على عمارة المسجد النبوى ، فى جولة نتفقد فيها معالم تلك العمارة الرائعة .

وقد بدأ التفكير فى هذه العمارة فى عهد المغفور له الملك عبد العزيز سنة ١٣٦٨ هـ ، حين أصاب التصدع بعض أعمدة الحرم . وقد أبدت

بعض الدول العربية والإسلامية وقتئذ رغبتها فى أن تسهم فى تدعيم بنيان المسجد ، ولكن الملك عبدالعزيز أبى إلا أن ينهض بالمشروع فى أوسع مدى على نفقته الخاصة .

ومن ذلك التاريخ أخذ المشروع طريقه فى مرحلة الدراسة والإعداد. ثم دخل مرحلة التنفيذ بهدم الدور المحيطة بالمسجد وتعويض أصحابها بسخاء ، إذ بلغت هذه التعويضات ٢٥ مليون ريال، أى مليونين و٥٠٠ ألف جنيه . . .

وجاءت مرحلة هدم القسم الشمالى من المسجد وهو الذى تقرر أن تقوم فيه العمارة الجديدة . وكان يوماً رهيباً فى تاريخ المدينة . . . إذ وجفت القلوب وهى تشهد المعاول تضرب فى بناء مسجد الرسول ، فتتهاوى جدرانه وأعمدته ويرتفع غبارها فيحجب وجه السماء !

ولكن هذا الشعور الواجف لم يلبث أن تلاشى مع الأيام ، ثم تحول إلى شعور آخر كله بهجة وأمل واستشراق، حين احتفلت المدينة المنورة بوضع حجر الأساس الذى أرساه جلالة الملك سعود فى ربيع الأول عام ١٣٧٢ . .

وأخذ البناء يرتفع حتى بلغ تمامه ، وكانت ليلة الأحد ٦ ربيع الأول عام ١٣٧٥ ليلة عيـــد لم تشهد المدينة منذ سعدت بهجرة الرسول ما يماثلها إشراقاً وبهجة ، إذ كانت المدينة كلها . . وما تقاطر عليها من وفود الجزيرة العربية والأقطار العربية والإسلامية، تحتفل بتمام العمارة الجديدة للحرم النبوى الشريف . . .

وبلغت تكاليف هذا المشروع العظيم خمسين مليوناً من الريالات؛ ٢٥ مليوناً ثمناً للعقار الذى نزعت ملكيته وأدخل فى زيادة المسجد ، ومثلها لنفقات البناء .



طالب صغير يلقى كلمة فى حفل افتتاح عمارة الحرم النبوى

وفيما يلى بيان مساحة المسجد النبوى منذ إنشائه على عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وما أضيف إليه من زيادة وعمارة حتى الآن.

مساحة المسجد فى عهد الرسول	٢٤٧٥	متراً مربعاً
زيادة عمر بن الخطاب	١١٠٠	»
» عثمان بن عفان	٤٩٦	»
» الوليد بن عبد الملك	٢٣٦٩	»
» المهدى العباسى	٢٤٥٠	»
» قايتباى	١٣٠	»
» عبد المجيد الثانى	١٢٩٣	»
» سعود الأول	٦٠٢٤	»
المساحة الكلية الآن	١٦٣٢٧	»

ولم تقتصر عمارة المسجد النبوى فى عهد الملك سعود على هذه الزيادة فحسب، بل شملت إعادة بناء جزء كبير من المسجد مساحته ٦٢٤٧ متراً مربعاً. وبذلك تكون مساحة العمارة السعودية ١٢٢٧١ متراً مربعاً، أى ثلاثة أرباع المسجد فى عمارته الحالية.

وكان من توفيق الله أن يسر لنا عند زيارة المسجد النبوى فى هذه المرة — وكان العمل قائماً فى اتمام بعض منائر الحرم — أن شاركنا فى البناء أسوة بالرسول — صلى الله عليه وسلم — فوقفنا مع العمال نشترك فى حمل الرمل والحصى، وحملنا بعض الأحجار إلى مكانها فى أعلى

المنارة التى تقوم على الركن الغربى الشمالى من المسجد . وهى فرصة نادرة من فرص العمر هيأ الله أسبابها ويسر بها أداء هذا العمل الخالد المبرور إن شاء الله .

٢

وفى مكتب إدارة مشروع الحرم المواجه للمسجد النبوى ، وجدت بعض الأحجار التى كانت فى العمارة القديمة ، ونظرت فى أحدها فاذا بى أجد تفسيراً لكلمة أبان بن عثمان بن عفان . . .

تلك الكلمة التى واجه بها الوليد بن عبد الملك ، عندما جدد الوليد عمارة المسجد على يد أهل الفن من الروم ، وقال لأبان فى فخر ومباهاة :

— أين بناؤنا من بنائكم ؟

فأجابه أبان بقوله :

— بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس . . .

وفى هذا الحجر القديم الملقى فى إدارة مشروع الحرم ، وجدت تفسير هذه الكلمة التى قالها أبان . . .

فقد كان هذا الحجر محفوراً على وجهيه : الوجه الأول تدل رسومه على أنه استعمل للمرة الأولى فى عمارة الوليد بن عبد الملك ، والوجه الآخر تدل كتابته على أنه استعمل مرة أخرى فى عمارة السلطان سليم الثانى عام ٩٨٠ هـ .

وعلى الوجه الأول رسوم عجيبة لا يليق أن تكون فى بناء المساجد . . . ولكن عذر صانعيها أنهم من الروم، فهى إذن صورة من الفن عندهم ، وللفن فى كل بيئة مقوماته الخاصة وتعبيراته المتصلة بالعقائد والأفكار .

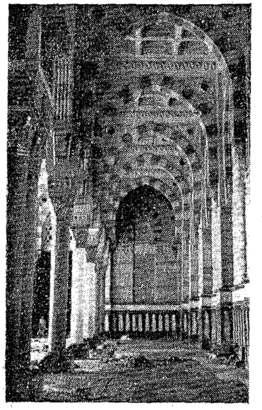
وأطمئن القارئ فأقول إن هذه الرسوم لا تتصل بالعقائد ، ولكنها لا تتصل كذلك بالفن الذى ينبع فى بيئة إسلامية ويقوم فى عمارة المساجد ، بله عمارة مسجد الرسول !

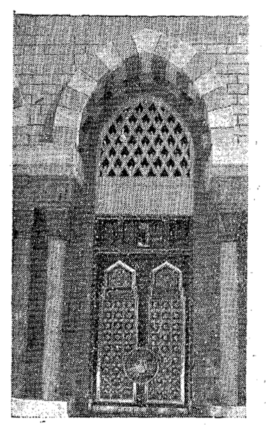
إن هذه الرسوم تمثل بعض جنيات البحر ذات الرأس الآدمى وذيل الحوت ، وتمثل مناظر أخرى ، مما تعرض فى المتاحف لا فى دور العبادة !

وهذا الحجر وحدة من وحدات العمارة القديمة يمثل فنها وطابعها الذى قامت عليه فى عهد الوليد بن عبد الملك ، على يد أهل الفن من الروم . . .

هذا الفن الذى وصفه أبان بن عثمان بأنه فن كنسى ، وهو يعنى أنه فن بعيد عن طبيعة الإسلام .

ولننظر عمارة المسجد النبوى الأخيرة التى تمت فى عهد الملك سعود ، نجدها عمارة عربية إسلامية فى روحها وطابعها . وما كان يمكن أن تكون غير ذلك لأنها أقيمت فى عهد عربى أصيل لم تفسده ألوان الحضارات الدخيلة ، وفى بيئة مازال يقوم فيها علم التوحيد الخالص الذى انبعث من قلب الصحراء ، وتجددت به حياة الأمة منذ عهد الإمام محمد بن عبد الوهاب .





قامت العمارة الجديدة فى بساطة لا يطغى عليها الزخرف والتعقيد والتهويل ، وهى إلى ذلك شامخة رائعة تبهر الأنظار والقلوب .

إنها عمارة وصل فيها الفن والجمال والقوة أقصى ما تصل إليه طاقة العمارة والبناء ، ولكن هذه الطاقة لم تكن تخضع لموحيات أجنبية دخيلة ، من المصادر التى يستلهمها فن الروم أو غير الروم ، وإنما كانت هذه الطاقة مسخرة فى إبداع هذه العمارة لروح العروبة والإسلام ، لأن القائم عليها ملك عربى أصيل مسلم سلفى العقيدة ، ولأن المنفذين لها من أهل الفن ، عرب مسلمون من أبناء الكنانة ...

في وادي العقيق

١

وحرصت في زيارتي للمدينة هذه المرة ، على أن استكمل دراسة بعض المواقع والآثار التاريخية فيها ، مما فاتني في الزيارات الماضية.

وحملتنا السيارة إلى وادي العقيق خارج المدينة ، هذا الوادي الذي وصفه عمر بن الخطاب بأنه واد مبارك . والذي كان عامراً في العصور الاسلامية الأولى بالقصور العامرة والبساتين الغناء .

فمررنا بقصر سعيد بن العاص أحد ولاة المدينة في عهد بني أمية ، وكان رجلا مشهوراً بالكرم الذي تضرب به الأمثال . وهذا القصر هو الأثر الوحيد الباقي من تلك العصور البعيدة ، وقد تهدمت بعض جوانبه ، ولكن الزائر يستطيع أن يلمح من خلال أطلاله صوراً لفن العمارة في ذلك العهـــد ، وهو فن كان فيه كثير من الترف والدقة والجمال .

وفي هذه المنطقة أقام جلالة الملك سعود مجموعة من القصور الشامخة ، وعلى القرب منها ثكنـــة كبيرة للجيش مبنية على أحدث طراز .

وأنطلقت بنا السيارة بين البساتين والمزارع والدور الحديثة التى عمرت هذه المنطقـة ، حتى بلغنا المـكان الذى وقعت فيـه غزوة الأحزاب .

وهذا هو الجبل الذى كان يعسكر عليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد أقيم مكان المعسكر مسجد صغير ، كما تناثرت عدة مساجد صغيرة أخرى على الهضاب المجاورة حيث كان يعسكر قواد المسلمين .

٢

إنها الغزوة التى ائتلفت فيها قوى اليهود الماكرة ، مع قوى العرب المتحرقة للثأر والانتقام من محمد ودعوته ...

فقد كان آخر سهم ادخره اليهود لحرب محمد ، هو محاولة تأليب قريش وقبائل العرب الأخرى للقضاء عليه فى جولة تعبأ فيها جميع القوى وتضرب ضربتها الحاسمة ...

وتزعم هذه الحركة حيي بن أخطب وجماعة من زعماء اليهود ، فقدموا على قريش فى مكة يؤججون نار الحرب والانتقام . وسأل أهل مكة حيي بن أخطب عن قومه فقال :

— تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه .

قالوا : وبنو قريظة ؟

قال : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد ، حتى تأتوهم فيميلوا معكم .

قالوا : يا معشر اليهود . . . إنكم أهل الكتاب الأول ، وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . . أفديننا خير أم دينه ؟ .

قال زعماء اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه !

وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً» .

واستجابت قريش لدعوة اليهود إلى قتال محمد ، ثم تابع اليهود تأليبهم بين القبائل الأخرى . وخرجت الأحزاب للقتال . . .

خرجت قريش فى أربعة آلاف جندى وثلاثمائة فارس وألف راكب على الجمال وعلى رأسهم أبو سفيان .

وخرجت بنو فزارة فى جند كثيف ، ومعهم ألف بعير .

وخرجت أشجع ومُرة ، كل منهما فى أربعمائة محارب .

وخرجت سُليم فى سبعمائة رجل .

وانحازت إليهم عدة قبائل أخرى حتى بلغ جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل . . .

٣

وعلم محمد وصحبه بالأمر ...

وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف ، الذى لا قبل للمسلمين على حربهم . .

إنها القارعة . . .

وقال بعضهم : لا سبيل لملاقاة العدو ، ولا مناص من التحصن داخل المدينة .

ولكن ما ذا يجدى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ؟ . .

وهنا أبدى سلمان الفارسى رأياً . . .

إنه ليعلم من أساليب الحرب ما لا عهد للعرب به . . .

فقد أشار عليهم بأن يحفروا خندقاً حول المدينة .

وهنا فى هذا المكان من وادى العقيق . . اندفع المسلمون يحفرون الخندق ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — بينهم يضرب الأرض ويحمل التراب . . .

واستمر هذا العمل الجبار بوسائله البدائية ستة أيام حتى تم حفر الخندق ، وأقيمت الحجارة على جانبه من جهة المدينة ليكون درءًا للرماة . . .

وأقبلت الأحزاب فى عشرة آلاف مقاتل من جهة أُحد فلم تجد محمداً هنالك ، فانحدرت إلى المدينة فإذا بها تواجه الخندق !

وكان محمد يرابط فى ثلاثة آلاف رجل ، معتصما بجبل « سلع » وقد ضربت خيمته الحمراء على هذا المكان الذى شهدنا فيه مسجد الفتح الصغير . . .

وأسقط فى أيدى الأحزاب فلم يدروا ما ذا يفعلون . وفكر حيى ابن أخطب زعيم اليهود فى حيلة يحطم بها استحكامات الدفاع التى فاجأ بها محمد الأحزاب . . .

فتسلل إلى المدينة حتى أتى يهود بنى قريظة وكان بينهم وبين محمد عهد وميثاق ، وقال لكعب بن أسد :

ـــ ويحك كعب . . . جئتك بعز الدهر وببحر طام . . جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه !

ولكن كعب بن أسد قدّر الأمر على جميع وجوهه ، وخشى أن تفشل الأحزاب فيصيبه وقومه البوار والدمار ، لنكثهم العهد الذى بينه وبين محمد . . .

وما زال حيى بن أخطب به حتى أقنعه بالانتقاض على محمد والانضمام إلى الأحزاب . . .

وكانت طعنة غادرة فى ظهر المسلمين زلزلت القلوب والأقدام !

« إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ، وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً .

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »

٣

واقتحمت الأحزاب الخندق بخيلهم ...

فبرز لهم علي بن أبي طالب في جماعة من المسلمين يسدون عليهم الطريق . . .

وتقدم عمرو بن عبد ود ينادي :

ـــ من يبارز ؟

فلباه علي بن أبي طالب . . . .

فأشاح عمرو بوجهه وقال في كبرياء :

ـــ لِمَ يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ؟

وقال علي : لكني أحب والله أن أقتلك !

وتبارز الفارسان في جولة رهيبة . . .

وقتل عليّ غريمه البطل . . .

ففرت خيل الأحزاب موليةَ الأدبار !

ولكن المعركة لم تنته بعد ، فقد طالت أيام الحصار والمناوشات ،

والأحزاب لا تستطيع أن تنـــال من محمد وقومه نَيلا يحقق أحلامها الحمراء . . .

وبدأ اليأس والخلاف يدب فى صفوف الأحزاب ، ثم أوهنت ريح الشتاء عزائمهم وفرّت عظامهم لطول ما أقاموا وراء الخندق ، وقد كانوا يظنونها جولة حاسمة تتم فى بضع ساعات !!

حتى كانت الليلة الفاصلة ...

ليلة هبطت فيها على المسلمين نجدة من جند السماء . . .

إذ عصفت الريح عصفاً شديداً اقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم ، وانهالت السماء بالأمطار ، وقصفت بالرعود والبروق ...

وقام طليحة بن خويلد ينادى فى الأحزاب :

ـــ النجاة . . . النجاة ...

يامعشر قريش . . إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . . لقد هلك الكراع والخف ، ولقينـــا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل . . .

وانطلقت الأحزاب هاربة لا تلوى على شىء ...

وأشرقت شمس الصباح ، ونظر محمد وأصحابه فإذا ميدان المعركة ليس فيه إلا أشلاء القدور والخيام !!

وكفى الله المؤمنين القتال ..

عمارة المسجد الحرام

١

وغادر الفوج الأخير من أعضاء البعثة ، الأرض المقدسة ...

وتخلفت بعدهم بضعة أيام ، ريثما أصفى بعض شئون هذه الرحلة التى استغرقت خمسة أسابيع .

ثم تأهبت للعودة إلى مصر ...

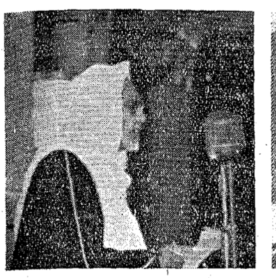
وكان لابد لى قبل أن أغادر هذه البلاد ، من أن أؤدى العمرة ، وأستمتع بالطواف بالبيت العتيق ، والصلاة فى المسجد الحرام ...

ونلت من ذلك ما أريد ، بل بعض ما أريد ، فإن المرء فى مثل هذا المقام يطمع أبداً فى المزيد !

وكان المسجد الحرام وقتئذ ، قد بدأ العمل فى عمارته الكبرى بإزالة الدور المحيطة به ؛ فهدمت دار الحميدية ، والتكية المصرية ، والمبانى القائمة على جانبى المسعى مابين الصفا والمروة ، وبعض جوانب الحرم .



معالى الشيخ محمد بن لادن



معالى الشيخ محمد صالح قزاز

وكانت الحكومة السعودية قد وكلت إلى معالى الشيخ محمد بن لادن، القيام بتنفيذ هذا المشروع الجليل. وتألفت هيئة فنية من المهندسين المصريين[1] لدراسة المشروع وإعداد رسومه والإشراف على تنفيذه. وأسندت إدارة المشروع إلى معالى الشيخ محمد صالح قزاز، وهو الذى تولى إدارة مشروع العمارة الجديدة للحرم النبوى.

وفى صباح يوم الخميس ٢٣ من شعبان عام ١٣٧٥ هـ وضع جلالة الملك سعود حجر الأساس فى مشروع العمارة، فى حفل عظيم أقيم بهذه

---

(١) تتألف الهيئة من المهندسين محمد طاهر الجوينى وكيل المفتش العام لمصلحة المباني المصرية كبيراً لمهندسى المشروع، والدكتور المهندس محمد هلال أستاذ الخرسانة المسلحة بكلية الهندسة بجامعة القاهرة، والمهندس مصطفى فهمى مستشاراً معمارياً للمشروع.

المناسبة التاريخية . وألقى سمو الأمير محمد بن سعود خطاب جلالة الملك . ومنذ يومئذ بدأ تاريخ المسجد الحرام يدخل مرحلة جديدة ...

٢

ويبدأ تاريخ المسجد الحرام منذ ظهور الإسلام . أما قبل هذا العهد فقد كانت الكعبة قائمة فى مكانها هذا وليس حولها إلا الفضاء الممتد إلى جميع الجهات . فلم تكن ثمة دور ولا سور ؛ لأن القبائل التى سكنت مكة من العمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم، كانوا يقطنون فى شعاب مكة ويتركون ماحول الكعبة ، تعظيما لشأن البيت العتيق .

وظل الأمر كذلك حتى انتقلت ولاية مكة إلى قصى بن كلاب ، الجد الخامس للرسول — عليه الصلاة والسلام — فجمع بطون قريش وأمرهم أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة وقال لهم :

— إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ، ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ...

وبدأ قصى فبنى دار الندوة فى الجانب الشمالى ، ويقع مكانها الآن فى فسحة باب الزيادة وهو أحد أبواب الحرم .

وبنت قريش بيوتها حول الكعبة . وكان كل بيت منها على هيئة دائرة حتى لا تكون شبيهة ببناء الكعبة المربع الأضلاع . وكان ارتفاعها أقل من ارتفاع الكعبة احتراما لها . وكان لكل بيت باب يتجه إلى

الكعبة ، وبين كل بيتين ممر يفضى إلى المطاف .

ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الصلاة ، وإنما كانت عبادتهم الطواف . فلم يكن ثمة مسجد حول الكعبة ... وإنما كان مطاف للعبادة ومجالس عامة يتناول الناس فيها مختلف الشئون .

فلما جاء الإسلام ، كان من أسلم من أهل مكة يستخفى بصلاته فى بيته أو فى أحد الشعاب . ولم يصل حول الكعبة إلا الرسول وأبو بكر فى فترات متقطعة ، ولم يستعلن المسلمون بصلاتهم ويؤدوها حول الكعبة جهارا إلا بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . ومن ثمة بدأ تاريخ المسجد الحرام .

وظل مدار المطاف مسجداً فى عهد النبى وعهد أبى بكر . وفى عهد عمر بن الخطاب كان المسجد قد ضاق بالمصلين، فاشترى الدور التى حول المطاف[1] ، وزاد فى مساحة المسجد الحرام ، وأقام حوله سورا عليه أبواب .

وكذلك فعل عثمان بن عفان ، فقد زاد فى مساحة المسجد الحرام ، بعد أن أزال الدور التى حوله بمقدار الزيادة . ووقع له من أصحاب هذه الدور ما وقع لعمر من قبل . فقد امتنع بعضهم عن بيع دورهم ورفضوا قبض ثمنها ، فأمر عثمان بهدم هذه الدور على أصحابها ...

---

(١) لهذه الدور قصة سبق ذكرها فى الرحلة الأولى .

فصاحوا به !!

فغضب عثمان وقال لهم :

— جرأكم علىّ حلمى عنكم ؛ فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد ...

ثم أمر بهم إلى الحبس ، فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأخلى عثمان سبيلهم وأخذوا ثمن دورهم .

وزاد عبد الله بن الزبير فى المسجد زيادة كبيرة عام ٦٦ هـ ، ثم جدد عبد الملك بن مروان عمارة المسجد الحرام عام ٧٥ هـ فرفع جدرانه وزين رأس كل اسطوانة بخمسين مثقالا من الذهب ، ثم كانت الزيادة والتجديد اللذين تما فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ٩١ هـ

وتمت بعد ذلك زيادات وتجديدات أخرى نذكرها فيما يلى :

زيادة أبى جعفر المنصور عام ١٣٧ هـ .

وزيادة محمد المهدى العباسى عامى ١٦٠ و ١٦٤هـ ، وهى أكبر زيادة تمت فى مساحة المسجد الحرام . فقد قدرت تكاليفها بما فى ذلك ثمن الدور التى هدمت وأدخلت فى التوسعة ، بنحو أربعة ملايين و ٥٠٠ ألف دينار .

ثم زيادة أبو أحمد الموفق بالله أخى الخليفة المعتمد العباسى عام ٢٧١ هـ

وزيادة دار الندوة فى عهد المعتضد عام ٢٨١ هـ .

وزيادة باب ابراهيم فى عهد المقتدر بالله عام ٣٠٦ هـ وهى آخر زيادة فى مساحة المسجد الحرام .

٣

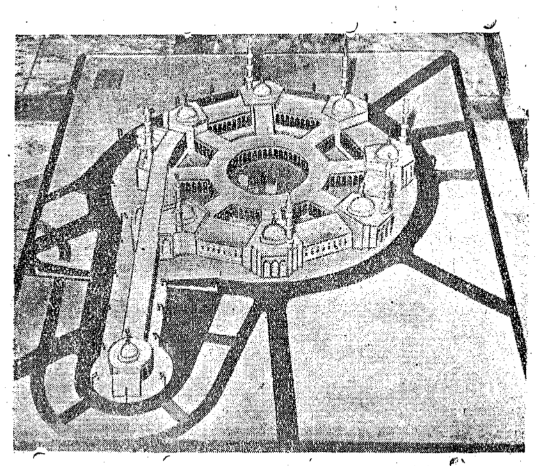
أما عمارة المسجد فقد كان أهمها عمارة السلطان قايتباى عام ٨٨٢ هـ وعمارة السلطان سليمان العثمانى عام ٩٧٢ هـ وعمارة السلطان سليم عام ٩٨٤ هـ وقد أتمها من بعده ابنه السلطان مراد خان . وعمارة السلطان عبد العزيز خان عام ١٢٧٩ هـ وعمارة السلطان عبد المجيد خان الثانى عام ١٣١٤ هـ .

ثم عمارة السلطان محمد رشاد خان عام التى بدأت عام ١٣٣٤ على أثر سيل عظيم طغى على المسجد الحرام ، وارتفع ماؤه حتى غطى الحجر الأسود وحجر إسماعيل وبلغ عتبة باب الكعبة . وفى أثناء العمل فى فى هذه العمارة أعلن أمير مكة الشريف الحسين بن على ، فى فجر يوم السبت ٩ شعبان من ذلك العام استقلاله بالحجاز ، ووقعت الحرب بينه وبين الأتراك ، فتوقف العمل فى العمارة ، إلى أن أتمها الشريف الحسين عام ١٣٣٨ هـ

وكانت آخر عمارة للمسجد الحرام ، هى التى قام بها الملك عبد العزيز آل سعود ، منذ عام ١٣٤٤ حتى عام ١٣٥٤

٤

وتعتبر عمارة الملك سعود التى تجرى الآن أعظم عمارة فى تاريخ المسجد الحرام . وتبلغ مساحة المسجد وملحقاته الآن ٣٥ ألف متر مربع . ويشتمل المشروع الجديد على إضافات خارجية تبلغ سبعين ألف متر مربع ، بحيث يتسع المسجد لنحو نصف مليـــون من المصلين .



تصميم العمارة الجديدة للمسجد الحرام

وسيقام على المسجد طابق علوى ، يخصص جانب منه للسيدات .
وسيضم المسعى إلى المسجد الحرام وبينهما جدار زجاجى سميك له نوافذ وأبواب تؤدى إلى المسجد . وبذلك يتهيأ للساعين النظر إلى الكعبة أثناء سعيهم بين الصفا والمروة ، فى جو من القداسة والخشوع .
ويتضمن المشروع إيجاد طبقة مكيفة الهواء تحت المطاف ، حتى لا يصلى الطائفون وقدة الأرض الملتهبة تحت أشعة الشمس ، ويؤدون عبادتهم فى يسر ومتعة .

وسيكون للمسجد سبع مآذن منها أربع ارتفاع كل منها ٩٠ متراً ، وثلاث ارتفاع كل منها ٧٠ متراً . وسيكون له ٢٤ باباً منها ما يمكن نقله وإصلاحه من الأبواب الحالية . ويحيط بالمسجد الحرام بعد توسعته وعمارته طريق عرضه ٢٠ مترا ، وأمام المسجد ميدان فسيح .

وقد رصد لتنفيذ هذا المشروع العظيم ، بما فى ذلك تعويضات أصحاب المبانى التى أدخلت فى الحرم ، خمسون مليوناً من الجنيهات .

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ »

وثائق واحصائيات

لم أرد أن أشغل القارئ في سياق هذه الرحلة الطويلة، التي طوف معي في ارتياد معالمها وأجوائها ، بالاستطراد في ايراد بعض الوثائق التاريخية والسياسية والاجتماعية ، والاحصائيات المفصلة ، عن جوانب الحياة في المملكة العربية السعودية .

ولهذا آثرت أن ألحق هذه الرحلة بأهم هذه الوثائق والاحصائيات ، لمن شاء أن يرجع اليها في استكمال الصورة ، على مزيد من الاحاطة والاستقراء ...

توحيد المملكة

كانت المملكة العربية السعودية حتى يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ تسمى المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها .

وهذه التسمية كانت عنوانا على طبيعة الفترة التى قامت فيها الدولة السعودية فى عهدها الأول . وهى التى كانت تتسم بملامح التجزئة فى الوطن الواحد : الحجاز ، ونجد ، والملحقات !

وفى يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ صدرت أول وثيقة تحمل الاسم الذى يقرر وحدة هذه البلاد ، ووضع نظام للمملكة على هذا الأساس . . وفيما يلى نص هذه الوثيقة التاريخية :

أمر ملكى

بعد الاعتماد على الله ، وبناء على ما رفع من البرقيات من كافة رعايانا فى مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ، ونزولا على رغبة الرأى العام فى بلادنا ، وحبا فى توحيد أجزاء هذه المملكة العربية ، أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى : يحول اسم « المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها » إلى اسم « المملكة العربية السعودية » ويصبح لقبنا الآن « ملك المملكة العربية السعودية »

المادة الثانية : يجرى مفعول هذا التحويل اعتباراً من تاريخ إعلانه.

المادة الثالثة : لا يكون لهذا التحويل أى تأثير على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية ، التى تبقى على قيمتها ومفعولها ، وكذلك لا يكون له تأثير على المقاولات والعقود الإفرادية بل تظل نافذة.

المادة الرابعة : سائر النظامات والتعليمات والأوامر السابقة والصادرة من قبلنا تظل نافذة المفعول بعد هذا التحويل.

المادة الخامسة : تظل تشكيلات حكومتنا الحاضرة ، سواء فى الحجاز ونجد وملحقاتها ، على حالها الحاضر مؤقتا ، إلى أن يتم رفع تشكيلات جديدة للمملكة كلها على أساس التوحيد الجديد.

المادة السادسة : على مجلس وكلائنا الحالى الشروع حالا فى وضع نظام أساسى للمملكة ، ونظام لتوارث العرش ، ونظام لتشكيلات الحكومة ، وعرضها علينا لاستصدار أوامرنا فيها.

المادة السابعة : لرئيس مجلس وكلائنا أن يضم إلى أعضاء مجلس الوكلاء أى فرد أو أفراد من ذوى الرأى ، حين وضع الأنظمة السالفة الذكر ، للاستفادة من آرائهم والاستنارة بمعلوماتهم.

المادة الثامنة : إننا نختار يوم الخميس الواقع فى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ الموافق لليوم الأول من الميزان ، يوماً لاعلان توحيد هذه المملكة العربية ، ونسأل الله التوفيق.

صدر فى قصرنا فى الرياض فى هذا اليوم
السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٥١
التوقيع « عبد العزيز »

بأمر جلالة الملك نائب جلالته
«فيصل»

أول خطاب للعرش

انعقد بالرياض أول مجلس للوزراء فى المملكة العربية السعودية ، وكان ذلك برياسة الملك سعود ، يوم ٢ رجب سنة ١٣٧٣ الموافق ٧ مارس سنة ١٩٥٤ وألقى جلالته أول خطاب للعرش ، يوضح معالم الدولة الحديثة ، ويرسم خطوط سياستها .

وقد بدأ جلالته هذا الخطاب بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله . ثم تحدث عن انتقال الملك عبد العزيز إلى الرفيق الأعلى بعد أن أرسى دعائم الدولة ، وترك ميراثاً عظيما من الأعمال المجيدة والتقاليد الصالحة . ثم قال جلالته :

● لقد كان همنا منذ تولينا مقاليد الأمور ، أن نعتصم بكتاب الله ونهتدى بهدى رسول الله وسنة خلفه من السلف الصالحين ، ثم نتبع سيرة والدنا العظيم فى السياسة والادارة ، وفى كل مجال من مجالات الاصلاح سلك سبيله وفتح لنا طريقه ، لنتعهد ما شيد ونتم ما بدأ فيه من أعمال ، ونقوم بكل ما نستطيعه لما فيه مصلحة بلادنا وشعبنا . لقد جعل الاسلام الأمر شورى بين المسلمين ، فأول ما عقدنا العزم عليه هو أن نجعل منكم إخواننا وأبناءنا ووزراءنا موضع ثقتنا ومشورتنا

لنتعاون معكم على النهوض بأعباء الحكم فى هذه البلاد ؛ فأنشأنا هذا المجلس « مجلس الوزراء » ليكون مصدراً لجميع أعمالنا التى نقوم بها فى خدمة هذه الدولة ، وسيكون أى عمل فى الدولة مصدره منكم وإليكم ، على أساس ما يقوم به كل منكم من أعباء وكلنا الأمر فيها إليه طبقاً للأنظمة المقررة له ، وإننا لننتهز هذه الفرصة الأولى لافتتاح هذا المجلس الموقر ، لنرسم لكم ونبين المنهاج الذى سنسير عليه فى حياتنا المقبلة بحول الله وقوته .

● إن أول ما يهمنا جميعاً هو الاعتصام بحبل الله المتين ، وأن نتخذ من الوسائل فى داخل بلادنا ما يمكن روح التوحيد الخالص فى قلوب أفراد الشعب كافة حتى يخلص لعبادة الله وحده . وسنسير فى ذلك بهدى كتاب الله والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فى كل مجال ، وعلى الأخص فى المدارس ، وسنحرص بحول الله على مراقبة ذلك وحث الناس على كل ما يأمر به الشرع الاسلامى ، ومنعهم عن كل ما ينهى عنه ، لأن فى ذلك خير الدنيا والآخرة ؛ ولأنه ليس شىء من الخير إلا دعا له الاسلام وليس شىء من الشر إلا ونهى الاسلام عنه . .

● أما سياستنا الخارجية فإننا نترسم فيها خطى والدنا العظيم . وأول ما يهمنا فيها هو العمل على جمع كلمة العرب ، وتأييد مصالحهم فى جامعتهم ضمن ميثاقها وضمن معاهدة الدفاع المشترك ، وقد أبلغنا الوفد الذى مثلنا فى جامعة الدول العربية فى أول اجتماع لها بعد استلامنا مقاليد الحكم ، أن يعلن عزمنا الاكيد على مناصرة العرب ، والتعاون معهم فى أى

ميدان وفى أى مجال ممكن لمنع العدوان عنا جميعاً ، والتعاون على تحقيقها لما فيه الخير والمصلحة لنا جميعا ، ونحن سنسير بعون الله فى دعوة البلاد العربية كافة لجمع كلمتها وتوحيد قواها لما يجمع شمل العرب ، ويحفظ استقلالهم ويرد غائلة العدوان من أى جهة كانت .

• كلنا يعلم ذلك السرطان الذى أنشئ فى جسم البلاد العربية فقام بأفظع ما عرفه التاريخ من الإجرام ، حيث قتل وشرد ما يقرب من مليون عربى من فلسطين ، ذلك السرطان هو الصهيونيون من اليهود الذين عرف التاريخ إجرامهم منذ القدم حتى اليوم . وهم لم يكتفوا بما قاموا به من إجرام بل إنهم يعدون العدة لعدوان جديد على البلاد العربية ، تمثله اعتداءاتهم المتكررة على حدود البلاد العربية المجاورة لهم ، وهم فى وضعهم الحاضر لايهددون البلاد العربية المجاورة لهم فحسب بل يهددون العرب فى بلاد العالم كله ، ونستطيع أن نقول أكثر من ذلك فانهم يهددون الاسلام والمسلمين فى أقطار الأرض كافة . ونحن عاملون مع الدول العربية ومع من يتفق معنا من الدول الإسلامية للدفاع عن أنفسنا ضد هذا العدوان . والله ناصرنا بحوله وقوته .

• إن سياستنا العامة خارج نطاق الدول العربية ، هى السعى الدائم لتحسين علاقتنا السياسية مع الجميع ، وإنا بعون الله عاملون على تقوية هذه الصلات الودية مع كل الدول التى تظهر الصداقة وترغب فيها معنا .

وإننا آسفون أن تكون هناك مشكلة بيننا وبين الحكومة البريطانية الصديقة ، لم نتمكن من الوصول إلى تسوية فيها حتى الآن ، ونحن

عاملون ما فيه الجهد للمحافظة على كياننا وسياستنا وحقوقنا الموروثة بالتفاوض مع الحكومة البريطانية لإنهاء المشكلة بالطرق السلمية ، ولنا وطيد الأمل بالوصول إلى حلها بصورة ودية إن شاء الله.

● لقد كان همنا تقوية جيشنا لأنه عماد الدولة ، وعليه بعون الله يتوقف حفظ كياننا واستقلالنا في الداخل والخارج ، ولذا فان الجيش سيخصص له قسم عظيم من الميزانية ، ونحن نعمل في كل ميدان لإكثار عدد الجنود وتدريبهم تدريباً فنياً والاستزادة من الأسلحة اللازمة لهم.

● لقد وجهنا عناية خاصة لما فيه خير شعبنا بمحاربة الجوع والفقر والمرض ، ولقد عانت بعض مناطق بلادنا متاعب اقتصادية بسبب انحباس الأمطار فعملنا على نقل قسم كبير من البادية إلى حواضر المدن وعملنا على تأمين حاجتهم ، ونحمد الله الذي حل هذه الأزمة بفضله بما منّ علينا من الغيث الذي سيكون مساعداً لإزالة هذه الأزمة.

كما أننا اتخذنا الترتيبات لما يساعد على مساعدة الفقراء في تأمين معائشهم ، ونأمل أن المشاريع العمرانية التي سنقوم بها في البلاد ستوجد أعمالا كثيرة تدر الخير على البلاد ، وتوجد أعمالا واسعة النطاق لسائر أفراد الشعب.

● ولقد وجهنا عنايتنا أيضاً لرفع المستوى الصحي في البلاد ، وقامت وزارة الصحة بانشاء المستشفيات العامة والمستوصفات ، وستقوم بكل ما في استطاعتها لمعالجة المرضى ورفع المستوى الصحي ، وبناء مستشفيات ومستوصفات في سائر أنحاء المملكة.

ولقد أنشأنا وزارة المعارف للنهوض على تعليم الشعب أمر دينه أولا ثم ما ينفعه فى دنياه ثانياً ، وسنخصص لها فى الميزانية قسطاً كبيراً لتقوم بنشر العلم فى أنحاء البلاد .

وكذلك أنشأنا وزارة الزراعة لتعمل على النهوض الزراعى فى أنحاء المملكة كافة ، ولدينا ولله الحمد مناطق زراعية غنية لا تحتاج إلا إلى المعاونة والتنظيم ، حتى تؤتى أكلها وثمرها حيث تغذى بلادنا ويمكنها أن تعاون فى تغذية بلاد أخرى بعد ذلك إن شاء الله .

ولقد أنشأنا وزارة للمواصلات وهى دائبة على العمل فى النهوض بما عهد إليها به ، وسيكون من مهامها تأمين المواصلات فى أنحاء مملكتنا الفسيحة الأرجاء ، ولقد تمت دراسة مد خط حديدى من الرياض ماراً بالوشم فالقصيم فالمدينة المنورة فجدة ثم ينتهى فى مكة المكرمة . وقد وضعت التصاميم اللازمة لهذا المشروع وسيباشر العمل فيه لأهميته الحيوية فى أول فرصة ممكنة .

• ولقد كان أهم ما فكرنا فيه تأمين المواصلات بيننا وبين البلاد العربية ، فاتصلنا بحكومتى الأردن وسوريا الشقيقتين لإعادة سكة حديد الحجاز فاستجابت الحكومتان لدعوتنا ، وعقد فى الرياض مؤتمر تم الاتفاق فيه على الأسس التى يقوم الخط بموجبها إلى سيرته الأولى ، وبعثنا بهيئة فنية لدراسة الخط ووضع تقرير عن تكاليف إصلاحه ، لنتعاون مع الدولتين الشقيقتين على إعادته . وسنضع برنامجاً تدريجياً لافتتاح الطرق فى مختلف أنحاء البلاد .

• إن العمود الفقرى للدولة لانتظام مصالحها ، والذى تقوم عليه الحياة العامة والخاصة هو المال ، وبغير تأمين موارد كافية للدولة ، وبغير تنظيم صرف الأموال لا يمكن أن يستقيم لنا أمر أو ننجح فى أى عمل عمرانى أو تجارى أو اقتصادى .

وكلنا يعلم كيف تأسست وزارة المالية فى هذه الدولة وما هى الأعباء التى أرهقت كواهلها ، وقد مر علينا وقت كانت كل أعباء المشاريع العمرانية والاقتصادية والزراعية والصناعية وغيرها بل وحتى العسكرية أيضاً ، على عاتق وزارة المالية ، وهذا بالطبع أمر ينوء به أولو العصبة فضلا عن فرد أو أفراد ؛ ولذلك أخذنا على عاتقنا تخفيف الأعباء عن هذه الوزارة وجعلها وزارة للمالية بالمعنى الصحيح ، بحيث تتولى جمع كل واردات الدولة كما تتولى صرفها ضمن الميزانية المعتمدة .

وما كان يجوز فى السابق لضيق الموارد وقلة المشاريع العمرانية التى كنا نضطلع بها ، لايجوز اليوم بعد اتساع الموارد وتعدد المشاريع العمرانية التى ينبغى النهوض بها ، لذلك أمرنا باعداد ميزانية للدولة تعرض على مجلسكم لمناقشتها وإقرارها ، وأمرنا بجعلها ثلاثة أقسام : قسماً لموازنة دوائر الدولة ومصالحها ، وقسماً ثانياً يخصص للمشاريع الإصلاحية العمرانية التى ستعرض على مجلسكم لإقرارها ، وقسماً آخر للاحتياط والطوارئ .

وبالنظر لرغبتنا فى تعاون شعبنا معنا فى كل مايتعلق بما له مصلحة

فيه، أمرنا أن يكون فى كل بلدة من بلداننا مجلس اداري يجتمع برئاسة أمير البلدة وقاضيها مع رؤساء الدوائر ووجهاء البلدة، لبحث الأمور التي تتعلق بمصلحة البلد نفسها ضمن نظام يخصص لذلك، كما أمرنا بتعميم تأسيس مجالس بلدية تنظر فى الشئون البلدية للنهوض بكل بلدة بما يصلح شأنها ويقوم عمرانها. وبالإضافة إلى ذلك فقد قررنا وضع برنامج مستقل موزع على سنوات خمس للمشروعات الكبرى للإنشاء والإصلاح والتعمير، وسيعرض عليكم عند إعداده للمناقشة والموافقة عليه إن شاء الله.

ولتأمين سير العمل بدقة أمرنا أن يؤسس بين دوائر هذا المجلس ديوان للمحاسبة العامة وسيتولى أمر هذا الديوان مراقب عام بصلاحيات نص عليها فى نظام هذا المجلس، يراقب جميع واردات الدولة ومصاريفها.

كما أمرنا بتشكيل ديوان تابع للمجلس سميناه ديوان المظالم، وسنحيل إليه كل شكوى ترفع إلينا وكل مظلمة نراها أو يخبر عنها ليقوم بالتفتيش والتحقيق فى كل دائرة من دوائر الحكومة، لإعطاء كل ذى حق حقه وليطمئن شعبنا بافراده وقبائله أن بابنا مفتوح لسماع شكواه وإنصاف مظلومه.

وقد أمرنا بانشاء شعبة فى هذا المجلس للخبراء لمعاونة المجلس فى النواحي الفنية لنشاط الدولة. والذى نبتهل به إلى الله سبحانه وندعوه مخلصين، هوان يمدنا بعونه وفضله وتوفيقه للوصول إلى أهدافه فيما يصلح أمرنا فى دنيانا وآخرتنا، إنه تعالى سميع مجيب وهو نعم المولى ونعم النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أول ميزانية للدولة

فى يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الثانى عام ١٣٧٤ هـ . الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، صدر المرسوم الملكى رقم ٥/١/٣/٥٥٤ باصدار الميزانية العامة للمملكة فى السنة المالية ١٣٧٤ — فكانت هذه أول ميزانية توضع على أسس منظمة ، وتذاع تفاصيلها على الشعب . وهى تصور معالم الدولة وملامح المجتمع تصويراً تحدده الفصول والأرقام .

وفيما يلى نص مرسوم الميزانية :

بعون الله تعالى :

نحن سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية .

بعد الاطلاع على الكشوف الخاصة بايرادات ونفقات الدولة للسنه الماليه ١٣٧٤ .

وبناء على ماعرضه وزير المالية .

أمرنا بما هو آت :

١ — تحدد نفقات الدولة للسنة المالية ١٣٧٤ بمبلغ ألف مليون ومائة وثلاثة وأربعين مليوناً وعشرة آلاف وخمسمائة ريال عربى ، وفقا للكشوف المرفقة بأمرنا هذا .

٢ — تحدد إيرادات الدولة للسنة المالية ١٣٧٤ بمبلغ ألف مليون

وماثة وثلاثة وأربعين مليوناً وعشرة آلاف وخمسمائة ريال عربي ، وفقاً للكشوف المرفقة بأمرنا هذا .

٣ — يؤخذ من الاحتياطي العام للدولة مبلغ مائتين وأحد عشر مليوناً وتسعمائة وثمانين ألفاً وخمسمائة ريال عربي لتغطية بند النفقات .

٤ — يداوم على استيفاء الإيرادات وفق الأنظمة والتعليمات المرعية ، وتدفع جميعها إلى مؤسسة النقد السعودية وفروعها لحساب وزارة المالية .

٥ — تصرف النفقات وفق الميزانية والتعليمات الخاصة بها من مؤسسة النقد السعودية .

٦ — لايجوز نقل أي مبلغ من فصل لآخر إلا بأمر منا وعند الضرورة فقط .

٧ — يحال إلى الاحتياطي العام للدولة مايزيد في الإيرادات وما يتوفر من النفقات عن المقرر في هذه الميزانية .

٨ — على رئيس مجلس الوزراء إنفاذ أمرنا هذا بابلاغه لمن يلزم لاعتماد العمل بموجبه .

إيرادات الدولة

وفيما يلي بيان تفصيلي عن الإيرادات :

ريال عربي	المـــورد	الفصل
٢٧٤٣٧٤٥٠٠	استثمار الزيت	١
٦٩٢٢٥٠٠٠٠	ضريبة الدخل	٢
٥١٥٠٠٠٠	(الزكاة)	
	زكاة الحبوب ا — ٢٣٠٠٠٠٠	
	زكاة العروض ب — ٢٤٠٠٠٠٠	
	زكاة المواشي حـ — ٤٥٠٠٠٠	٣
٨٠٠٠٠٠٠٠	الجمارك	٤
٣٠٠٠٠٠٠	رسم المرافىء	٥
٧٥٠٠٠٠٠	« الموانى	٦
٧٠٠٠٠٠٠	« المحاجر	٧
٣٠٠٠٠٠	الضريبة العقارية	٨
٢٥٠٠٠٠٠٠	الخطوط الجوية السعودية	٩
٢٧٦٠٠٠٠٠	إيراد سكة الحديد وميناء الدمام	١٠
١٦٠٠٠٠٠	المعادن	١١
٣٠٠٠٠٠٠	حاصلات البرق	١٢
١٧٠٠٠٠٠	حاصلات البريد	١٣
٣٠٠٠٠٠	حاصلات الهاتف	١٤

الفصل	المـــورد	ريال عربي
١٥	رخص الإقامة	٧٠٠٠٠٠٠
١٦	الجوازات	٨٠٠٠٠٠٠
١٧	ترقيم السيارات	١٢٥٠٠٠٠
١٨	رخص سياقة السيارات	٣٧٠٠٠٠٠
١٩	قيمة الطوابع	٤٠٠٠٠٠٠
٢٠	رسوم المطارات	٥٠٠٠٠٠٠
٢١	حفائظ النفوس	١٦٠٠٠
٢٢	تسجيل الشركات	٢٥٠٠٠
٢٣	تحرير الشركات	١٠٠٠٠
٢٤	تصديق الصكوك	١٥٠٠٠
٢٥	كاتب العدل	٨٠٠٠٠
٢٦	أملاك الدولة ثمن وإيجار أراض ومزارع	١١٠٠٠٠٠
٢٧	مبيعات حكومية	٥٠٠٠٠٠٠
٢٨	الصرفيات المستوردة	٢٥٠٠٠٠٠
٢٩	حسميات التقاعد	٣٠٠٠٠٠٠٠
٣٠	واردات متنوعة	١٠٠٠٠٠٠٠
	مجموع الايرادات	١١٤٣٠١٥٠٠
	من الاحتياطي العام	٢١١٩٨٩٥٠٠
	المجموع الكلي	١ر٣٥٥ر٠٠٠ر٠٠٠



معالى الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية والاقتصاد
ومعالى الشيخ عبد الرحمن الطبيشى وزير الدولة

مصروفات الدولة

وفيما يلي بيان تفصيلي عن المصروفات :—

ريال عربي	الفصل	المصرف
٤٩٥٣٣٣١٢	١	الخاصة الملكية
		ريال عربي
		٤٤٥٣٣٣١٢ مخصصات جلالة الملك والعائلة المالكة
		٥٠٠٠٠٠٠ الديوان العالي
٥٤٨٨٠٠٠	٢	مجلس الوزراء
		ريال عربي
		١٨٠٠٠٠٠ ديوان رئاسة مجلس الوزراء
		٦٨٨٠٠٠ الأمانة العامة
		٥٠٠٠٠ ديوان المظالم
		١٥٠٠٠٠٠٠ ديوان المراقبة العامة
		١٠٠٠٠٠ مجلس الشورى
٢١٠٠٠٠٠٠	٣	وزارة الخارجية
٤٧٢٠١٤٧٩٢	٤	وزارة الدفاع والطيران
		ريال عربي
		١٩٦٫٨١٧٫٨٤٧ (أ) وزارة الدفاع
		٣٣٠٢٧٧٥٧ (ب) سلاح الطيران
		٢٧٠٦٣٠٤٦ (حـ) الخطوط الجوية السعودية
		٢٣٠٧٣٢٤٨ (د) الحرس الملكي
		١٩٢٠٢٢٨٩٤ (هـ) تشكيلات البادية والحرس الوطني
		٤٦٩٫٠١٤٫٧٩٢

ريال عربى	الفصل	المصرف
٨١٩٦٠٨٩٩	٥	وزارة الداخلية
		ريال عربى
		٢٩٦١٧٣٠ (أ) الديوان العام
		٢٠٥١٧٧٠٠ (ب) الإمارات
		٧٠٠٠٠٠ (حـ) الأوقاف
		٤٦٥١٩٠٣٠ (ء) الأمن العام
		ريال عربى
		٣٨,٣٧٩,٢٥٠ الأمن العام
		٣٩١١٥٤٠ الجوازات والجنسية
		٤٢٢٨١٤٠ فرق المطافى
		٤٧٩٨٦٧٠ (هـ) خفر السواحل
		١٦٣٧٦٩ (و) أم القرى
٤٥٦٧١٥٩٢	٦	وزارة المعارف
		ريال عربى
		٤٤٨٠٥٦٥٢ (أ) وزارة المعارف العمومية
		٤٢٠٨٤٠ (ب) المدرسة النموذجية بالطائف
		٤٤٥١٠٠ (حـ) مدارس الجنوب
٩٧٢٢٧٨٦٠	٧	وزارة المواصلات
١٥٩٣٠٧٩٥	٨	وزارة الزراعة
٣٣٨٢٠٥١٧	٩	وزارة المالية والاقتصاد الوطنى
٣٩٥٤٩٤٥٨	١٠	وزارة الصحة
٢٨٢٤٠٠٠	١١	وزارة التجارة

المصرف	الفصل	ريال عربى
رئاسة القضاة	١٢	٦٨٠١٩٠٠
ريال عربى		
٦٠٢٥٠٢٠ القضاء والمحاكم		
٦٣٢٨٨٠ كتاب العدل		
١٤٠٠٠٠ المحكمة التجارية		
الافتاء والمعاهد العلمية	١٣	٩٩٢٩٦٢٠
ريال عربى		
٤٤٤٧٣٠ المفتى الأكبر والادارة العامة		
٧٤٩٤٨٩٠ المعاهد العلمية		
١٩٩٠٠٠٠ مبانى المعاهد العلمية		
الأمر بالمعروف	١٤	٩٨٤٨٨٣٢
الأشغال العامة	١٥	١٦٢٠٠٠٠٠
مديرية الحج العامة	١٦	٩٧٥٧٢٠
مديرية الاذاعة العامة	١٧	٢١٩٧٠٥٩
مديرية مصلحة العمل	١٨	١٩٦٨٤٩٠
القواعد السنوية للرؤساء ومشايخ القبائل	١٩	٢٦٠٣١٠٦٥
الرواتب الشخصية الشهرية	٢٠	٦٩٦٣٠٥٧
معاشات التقاعد	٢١	٨٠٠٠٠٠
عوض التنسيق	٢٢	٥٠٠٠٠٠
الصدقات	٢٣	٨٠٠٠٠٠٠

المصرف	الفصل	ريال عربي
المساعدات والاعانات	١٤	١٩١٠٠٠٠٠
ريال عربي		
١٥٠٠٠٠٠٠ (ا) مساعدات عامة ملكية		
١٥٠٠٠٠٠ (ب) إعانة اللاجئين		
١٠٠٠٠٠٠ (حـ) اعانة المؤسسات الخيرية والاهلية		
١١٠٠٠٠٠ (ى) نفقات دور اليتامى		
٥٠٠٠٠٠ (هـ) اعانة المؤسسات الصناعية		
قروض المزارعين	٢٥	٥٠٠٠٠٠٠
قيمة بيوت	٢٦	١٠٠٠٠٠٠٠
حفر أبار وإصلاح عيون	٢٧	١٠٠٠٠٠٠
نفقات الجباية	٢٨	١١٠٠٠٠٠
مصاريف سرية	٢٩	١٠٠٠٠٠٠٠
قيمة كتب ومطبوعات	٣٠	٢٠٠٠٠٠٠
ضيافات	٣١	٣٠٠٠٠٠٠
النقليات.	٣٢	٢١٠٠٠٠٠٠
ريال عربي		
١٥٠٠٠٠٠٠ (ا) قيمة سيارات		
١٠٠٠٠٠٠ (ب) أجور سيارات		
٥٠٠٠٠٠٠ (حـ) محروقات ولوازم وأدوات		
نفقات الرحلات الملكية	٣٣	٦٠٠٠٠٠٠
فرق عملة	٣٤	٥٠٠٠٠٠٠
وديات من الواردات	٣٥	٥٠٠٠٠٠

ريال عربي	الفصل	المصرف
٣٠٠٠٠٠٠	٣٦	مشروع الخرج الزراعي
٨٤١٦٠٤٤	٣٧	اعانة البلديات وعين زبيدة والاسعاف
٦٠٠٠٠٠٠	٣٨	مشتريات متنوعة
١٠١٥٧٠٣٢	٣٩	مصاريف غير منظورة
١٦٠٠٠٠٠٠	٤٠	المشاريع العامة
		ريال عربي
		١٥٠٠٠٠٠ (ا) عمارة الحرمين الشريفين
		٥٠٠٠٠٠٠ (ب) لحساب السكة الحديد الرياض جدة المدينة شرق الاردن
		١٥٠٠٠٠٠ (ج) مشاريع الحج والحجاج
		٣٠٠٠٠٠٠ (د) انشاءات ومباني الحكومة
		٤٠٠٠٠٠ (ه) انشاء وتعمير مساجد
		٦٠٠٠٠٠ (و) انشاء طريق السيارت المدينة — ينبع
		١٥٠٠٠٠ (ز) اصلاحات في طرق البادية
		١١٠٠٠٠٠ (ح) المياه
		ريال عربي
		٢٤٠٠٠٠٠ في الرياض
		١٠٠٠٠٠٠ « ينبع
		١٣٥٠٠٠٠ « املج
		١٢٥٠٠٠٠ « الوجه
		٨٠٠٠٠٠ « الليث
		١٠٠٠٠٠٠ « القنفذة
		٢٠٠٠٠٠٠ « جيزان

المصرف	الفصل	ريال عربي
ريال عربي		
٣٥٠٠٠٠٠٠ (ط) الموانىء		
ريال عربي		
٢٠٠٠٠٠٠ جدة		
١٠٠٠٠٠٠ جيزان		
٥٠٠٠٠٠ القنفذة		
٦٠٠٠٠٠٠ (ى) المشروعات العامة في المنطقة الشرقية		
٥٠٠٠٠٠٠ (ك) مشروعات الجمارك والمستودعات في المنطقة الشرقية		
٦٠٠٠٠٠٠ (ل) نزع ملكية المصلحة العامة		
٣٠٠٠٠٠٠ (م) مشروعات المدينة المنورة		
٣ ٠٠٠٠٠ (ن) لحساب انشاء محطة جديدة للاذاعة		
١٠٠٠٠٠٠ (س) لحساب مستشفى الناصرية		
لحساب ديون السنين السابقة	٤١	١٢٨٤٨٣٩٥٦
	المجموع	١٣٥٥٠٠٠٠٠٠

فى مناطق البترول

الإنتاج السنوى من الزيت الخام فى مدى ١٩ سنة

السنة	البراميل	الأطنان
١٩٣٨	٤٩٥١٣٥	٧٥٦١٨
١٩٣٩	٣٩٣٣٩٠٣	٥٢١٢١٤
١٩٤٠	٥٠٧٤٨٣٨	٦٧٢١٥٤
١٩٤١	٤٣١٠١١٠	٥٧٠٠٤٦
١٩٤٢	٤٥٣٠٤٩٢	٦٠٠٣٥١
١٩٤٣	٤٨٦٨١٨٤	٦٤٥٨٦٠
١٩٤٤	٧٧٩٤٤٢٠	١٠٣٤٦٠١
١٩٤٥	٢١٣١٠٩٩٦	٢٨٢٥٩٩٠
١٩٤٦	٥٩٩٤٢٧٦٦	٧٨٩٩٦٧٥
١٩٤٧	٨٩٨٥١٦٤٦	١١٨١٣٦٦٨
١٩٤٨	١٤٢٨٥٢٩٨٩	١٨٧٥١٢٧٠
١٩٤٩	١٧٤٠٠٨٦٢٩	٢٢٨٢٥٧٨٣
١٩٥٠	١٩٩٥٤٦٦٣٨	٢٦١٩٦٨٥٢
١٩٥١	٢٧٧٩٦٢٦٠٥	٢٦٦٠٨٥٨٥
١٩٥٢	٣٠١٨٦٠٨٨٥	٣٩٨٧٠٨٠٥
١٩٥٣	٣٠٨٢٩٤٢٤٥	٤٠٨٨٧٧٥٤
١٩٥٤	٣٤٧٨٤٤٨٥٠	٤٦١٢٦٥٨٣
١٩٥٥	٣٥٢٢٣٩٩١٢	٤٦٧٨٤٦٩٣
١٩٥٦	٣٦٠٩٢٣٣٨٤	٤٧٩٣٥٠٤١

حالة الآبار فى نهاية عام ١٩٥٦

الحقل	منتجة	معطلة أو متوقفة	للمراقبة	للحقن	معطلة	مهجورة	يجرى حفرها	المجموع
بقيق	٤٢	٢٢	٢	٦	٠	١	١	٤٧
أبو حدرية	٠	١	١	٠	٠	٢	٠	٤
العلاة	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١
الجعوف	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١
الدمام	٢٩	١	١	٠	٠	١٠	١	٤٢
الفاضلى	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	١
عين دار	٤٤	٨	٢	٠	٠	١	١	٥٦
شدقم	١١	٠	١	٠	٠	١	٠	١٣
العثمانية	٣٣	١٠	٣	٠	١	٢	٠	٤٩
الحوية	٠	١	١	٠	٠	٠	٠	٢
حرض	٠	٧	١	٠	١	٠	٠	٩
الخرسانية	٠	١	٠	٠	٠	٠	١	٢
معقلا	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١
القطيف	٨	٢	١	٠	١	١	٠	١٣
السفانية	٠	١٨	١	٠	٠	٠	١	٢٠
المجموع	١٦٧	٧٢	١٤	٦	٣	٢١	٥	٢٨٨

الاستهلاك المحلى للبترول ومشتقاته بالبراميل

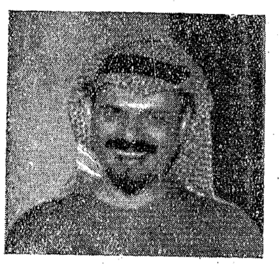
وفى هذه الأرقام بعض الدلالة على التطور الحضارى والاجتماعى والاقتصادى، الذى يقوم على أساس الحركة الآلية التى تعتمد على البترول ومشتقاته .

المادة	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
بنزين	٣٨٦٥٠٦	٥٠٣١٨٠	٦٧١٥٦٠	٨١١٤٥٤	٩٧٣٥٧٨	١١١٣٥٩٢	١٣٨٤٤٩٦
وقود ديزل	١٣١٦١٥	١٨١٣١٤	٢٦٩٨١١	٣٦١٥١٤	٤٢٩٩٨٧	٥١٠٠٤٥	٦٣٢٢٦٥
كيروسين	٢٣٥٨١	٥١٣٣٦	١٠٩١٧٢	١٥٥٦١٢	١٩٥٧٩٧	٢٥٢٧٧٩	٣٠٩٦١٨
أسفلت	١١٤٦	٣٥٥٥٧	٣٤١٠٣	١٠١٨٧٥	٩٥٦٥٢	١٣٨٢٠١	١٢٧٨٤٤
غاز سائل	٨٨	٤٠٦	٢٥١٤	٧٧٣٥	١٢١٠٣	١٢٤٥٢	١٧٦٠٦
منتجات أخرى	١١٧٢٢	١٢٤٩١	٢٦٦٥٥	٢٨٤٣٧	٤٣٥٣٩	٦٩٣٨١	١٣٤٠٧٣
المجموع	٥٥٤٦٥٨	٧٨٤٢٨٤	١١١٣٨١٥	١٤٦٦٦٢٧	١٧٥٠٦٥٦	٢٠٩٦٤٥٠	٢٦٠٥٩٠٢

عدد الأيدى العاملة وجنسياتهم
طبقا لإحصاء عام ١٩٥٦

الجنسية	العدد	النسبة المئوية
سعوديون	١٣٢١٣	٦٧ر٣
أمريكيون	٣٨٧٨	١٤ر٧
باكستانيون	١٣٣٤	٦ر٨
هنود	١٠٥٢	٥ر٤
فلسطينيون	٤٨٩	٢ر٤
إيطاليون	١٨٢	ر٩
عدنيون	١٧٥	ر٩
سودانيون	٨٣	ر٤
هولنديون	٣٣	٠ر٢
آخرون	١٩٣	١ر٠٠
المجموع	١٩٦٣٢	١٠٠ر٠

الميزان التجاري مع الدول العربية


معالى الشيخ محمد رضا وزير التجارة

تنحصر صادرات المملكة العربية السعودية فى زيت النفط الخام ومشتقاته ، وفحم الحطب ، والجلود ، والسيارات عن طريق الترانسيت .

أما وارداتهـــا فهى المنسوجات القطنية والغزل والملابس والأحذية والأثاث والخردوات ، والأسمنت ومواد البناء ، والتبغ والسجاير ، والصابون والورق ، والمواد الغذائية ، والأدوات الكهربائية ، والآلات المختلفة والسيارات وقطع الغيار .

وأهم عملاء المملكة العربية السعودية الهند وأمريكا وبريطانيا والدول العربية . وفيما يلى المتوسط السنوى للصادرات والواردات مع مصر والعراق وسوريا والاردن :

المملكة العربية السعودية	مصر	العراق	سوريا	الأردن
	جنيه	دينار	ليرة	دينار
صادرات إلى	٥٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠
واردات من	٢٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠

الصادرات من المملكة السعودية إلى مصر

خلال عام ١٩٥٥

الصنف	المقدار بالطن	القيمة بالجنيه المصرى
زيوت بترول وزيوت معدنية خام للتكرير	٥٩٨ر٠٥٨	٣ر٣١٣ر١٠٢
بنزين	٨١٩	١٠ر١٦٨
كيروسين	٣٧ر٢٨٤	٤٦ر٢٦٠
زيت مازوت	١٦٦ر٤١٣	١ر٠١٣ر٦٤٠
زيت ديزل	١٣ر١٧٩	١٣١ر٨٠٢
زيت سولار	١٥ر٦٨٢	١٧٣ر٦٥٦
فحم حطب	٦ر٦٦٥	٩٥ر١٧٦
سيارات ركاب	٤٩	٢٧ر٤١٩
الجملة	٨٣٩ر٥٢٨	٥ر٢٤١ر٩٤٩

الواردات من مصر الى المملكة السعودية

الصنف	المقدار بالطن	القيمة بالجنيه المصرى
أسمنت	٢٢ر٩٠٠	١٢٥ر٥٦٩
بطاطس	١ر٣٠٩	١٩ر٣٦٦
جلود	٣٢	١٩ر٩٨٤
جبن أبيض	٢٤٤	٣٧ر٨٣٦
طماطم	٢٤٩	٤ر١٠١
بصل	٢ر٩٨٤	٢٧ر٠١٩
أرز ملمع	٢٥٥	١٢ر٨٦٠
سمسم	٦٤	٤ر٨٦٩
سكر مكرر	٥ر٢٠٥	٢٠٩ر٤٧٣
مصنوعات سكرية	١٨٠	٢٤ر٤٠١
مستحضرات غذائية	٩٩	١٢ر٧١٨
دهان مصنوع	٣٩	٣٨ر١٢٢
جبس مكلس	٧ر٩٩٢	٣٨ر٨٦٤
كوك وأسفلت	١ر٥١٠	١٩ر٨٦٢
أدوية مركبة	٣٥	١٩ر٨٩٥

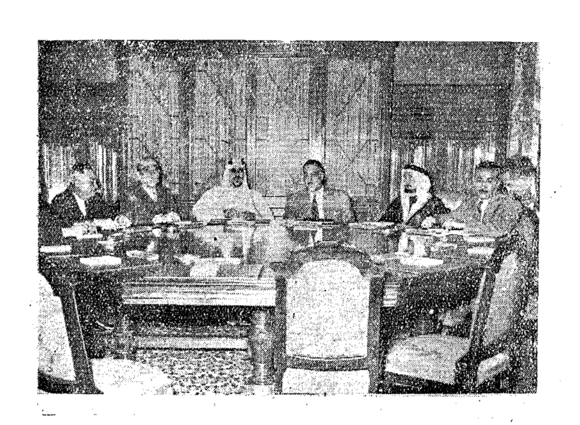
الواردات من مصر الى المملكة السعودية

الصنف	المقدار بالطن	القيمة بالجنيه المصرى
جلود مجهزة	٧١	٢٠ر٠٣٦
أبواب وشبابيك	١ر٠٦٦	١٦١ر٠٢٤
أثاث	٦٥٤	١٦٦ر٦٤١
كتب	٢٨٨	٨٦ر٧٠٣
جرائد ومجلات	١١١	٢٢ر ٩٥
ملابس صوفية	٣٥	٤٩ـ٤٢٧
ملابس وبياضات قطنية	٥٢٤	٢٤٨ر٦٦٦
أحذية	٦١	٥٧ر٨٨٣
منشآت معدنية	٢٧١	٥٣ر٩١٦
أثاث معدنى	٧٧	١٦ر٩٩٤
أجهزة اضاءة	٥١	٣٣ر٤٣٥
الجملة	٥٣ر٥٥٩	١ر٩٩١ر٨٢٢

ملاحق مصوّرة



الاتفاقية العسكرية بين مصر والمملكة العربية السعودية.
أول معول فى بناء حلف بغداد، وحجر الأساس
فى بناء الوحدة العربية. تم التوقيع عليها بالقاهرة يوم ١١
ربيع الأول ١٣٧٥ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥



ميثاق الأمن العربي بين مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية ،تم التوقيع عليه بالقاهرة يوم ٢٨ رجب ١٣٧٥ الموافق ١١ مارس ١٩٥٦

* * *

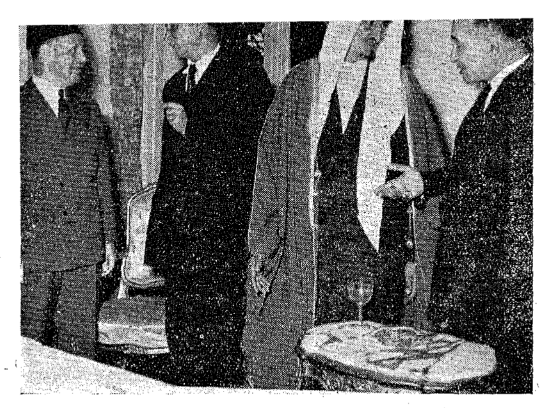
وفى يوم ٢١ أبريل ١٩٥٦ عقدت فى جدة الاتفاقية العسكرية بين مصر والمملكة العربية السعودية واليمن، ووقع الاتفاقية الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود والإمام أحمد .



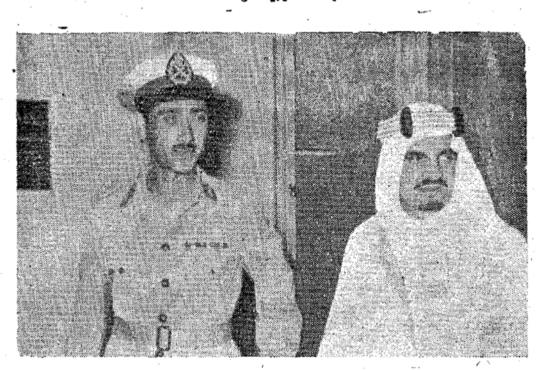
اتفاقية التضامن العربى بين المملكة العربية السعودية وسوريا ومصر والمملكة الأردنية الهاشمية ، بتقديم ١٢ مليوناً و٥٠٠ ألف جنيه للأردن لمدة عشر سنوات . تم التوقيع على الاتفاقية يوم ١٨ جمادى الثانية ١٣٧٦ الموافق ١٩ يناير ١٩٥٧

* * *

وفى الفترة ما بين ٢٥ و٢٧ رجب ١٣٧٦ (٢٥ و٢٧ فبراير ١٩٥٧) اجتمع فى القاهرة الملك سعود والملك حسين والرئيس شكرى القوتلى والرئيس جمال عبد الناصر . وعرض الملك سعود فى هذا الاجتماع نتائج رحلته إلى الولايات المتحدة ، وكانت بعض آثار العدوان الثلاثى على مصر مازالت قائمة بامتناع إسرائيل عن الانسحاب إلى ماوراء خطوط الهدنة فى فلسطين . وصدر فى هذا الاجتماع بيان مشترك بتأييد حقوق مصر فى جلاء العدو ، وسيادتها على القناة ، وتعويضها عما أصابها من جراء هذا العدوان الغاشم ، والتمسك بالسياسة العربية المتحررة ، لتحقيق أهداف الأمة العربية فى الحرية والوحدة .



سياسة عربية موحدة ...



... وقيادة عسكرية مشتركة



أقامت السفارة المصرية بجدة حفلا لتكريم القائمقام أنور السادات ، بمناسبة زيارته للمملكة العربية السعودية فى مارس ١٩٥٥

وتحدثت مجلة « الرياض » إلى سيادته ، وكان وقتئذ وزيراً للدولة ، قلت أسأله :

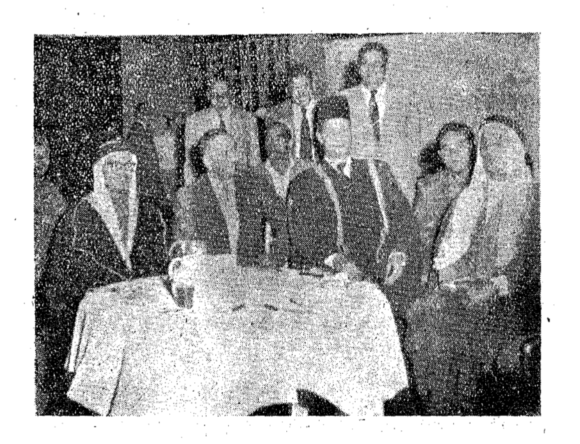
ــ ثبت أنك عسكرى ناجح ، وصحافى ناجح ، وسياسى ناجح .. فإذا خيرت بين أحد هذه الميادين ، فأيها تختار ؟

فأجاب على الفور :

ــ أفضل الصحافة ، لأنها ميدان حر كبير ...

ولم تمض فترة طويلة ، حتى آثر السيد أنور السادات الصحافة على الوزارة !

يوم إعلان الدستور المصرى (١٦ يناير ١٩٥٦)
أقامت السفارة المصرية بجدة حفلا بهذه المناسبة .
ويرى الدكتور عبد الوهاب عزام السفير السابق
وإلى يمينه الأستاذ عبد العزيز سلامة رئيس البعثة
التعليمية المصرية ثم المؤلف ، وإلى يساره الأستاذ
إبراهيم الشورى مستشار الإذاعة السعودية وقتئذ .



الدكتور طه حسين فى زيارة السفارة المصرية بجدة . وإلى يساره المؤلف ، والأستاذ سعيد فهيم مدير الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . وإلى يمينه السيد على الدسوقى القائم بأعمال السفارة .

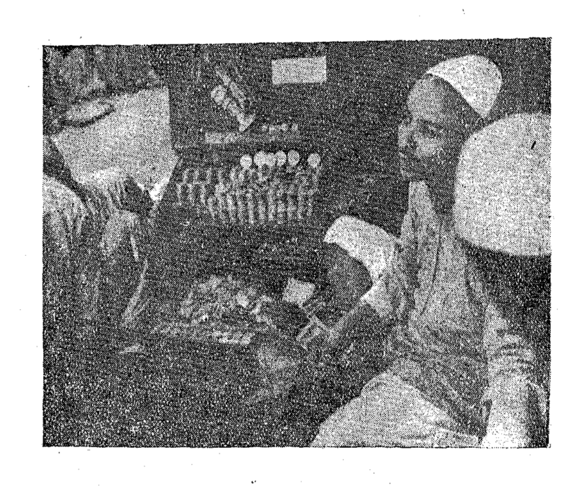




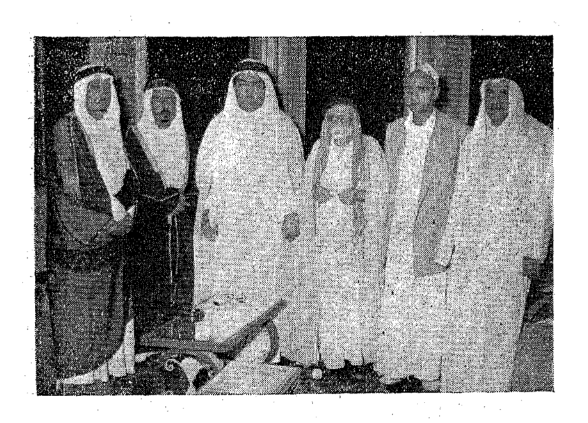
السيد محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودانية، في الحفل الذي أقيم لتكريمه بجدة ، عند زيارته للمملكة العربية السعودية في نوفمبر ١٩٥٤ ويرى معالي الشيخ محمد سرور الصبان وإلى يمينه المؤلف وإلى يسار معاليه الشيخ عبدالعزيز العبدالله السليمان والأستاذ أحمد يوسف زينل والمحتفل به .

دكتور فون هنتج ، كان من رجال السلك الدبلوماسى الألمانى . عرف بصداقته للعرب ومناهضته للصهيونية . قام برحلة فى البلاد العربية بعد اعتزاله الخدمة . وفى جدة أقامت له السفارة المصرية حفلة تكريم . ويرى المحتفل به وإلى يمينه المؤلف ، وإلى يساره السيد على الدسوقى القائم بأعمال السفارة وقتئذ .



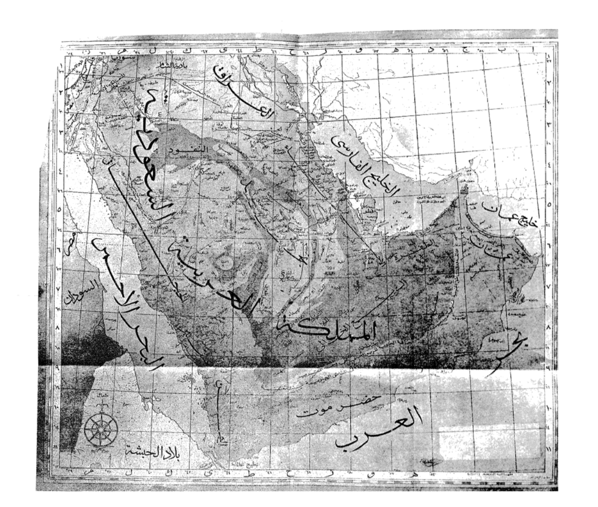


الصراف ... شخصية هامة فى الأسواق المالية والتجارية . لديه جميع أنواع العملة من مختلف أنحاء العالم . وفى مثل هذا «الدكان» الصغير، تخرج كثير من كبار رجال المال وأصحاب المصارف الكبرى فى المملكة العربية السعودية .



تألفت لجنة لإنشاء معاهد علمية فى جدة . وكان الملك سعود قد تبرع بمبلغ ٢٠٠ ألف ريال ، وتبرع أفراد أسرته بمبلغ ١٠٠ ألف ريال .
واجتمعت اللجنة برياسة معالى الشيخ محمد رضا وزير التجارة يوم ١٤ جمادى الأولى عام ١٣٧٤ فافتتح قائمة التبرعات بمبلغ ٢٥ ألف ريال للتأسيس و١٠ آلاف ريال سنوياً لتمويل المشروع ، وبلغت التبرعات الأولى التى نشرتها مجلة الرياض ١٨٢ر٦٨٠ ريالا للتأسيس ٥٨ر٧٥٠ ريالا لتمويل المشروع سنوياً .

ويرى فى الصورة أعضاء اللجنة وهم من اليمين : الشيخ عبد الله بحيرى رئيس بلدية جدة ، والشيخ يونس سلامة ، والشيخ محمد الطويل والسيد حسن كتبى ، والأستاذ عيد محمد ، والشيخ عبد المجيد شبكشى .



العراق
الخليج الفارسي
خليج عمان
النفود
السودان
المملكة العربية السعودية
البحر الأحمر
حضرموت
بحر العرب
بلاد الحبشة

فهارس الكتاب

فهرس الموضوعات

١ ـ مقدمة

٢ — الرحلة الأولى

دعوة من وراء الغيب

٣ — الرحلة الثانية

نداء الوطن الأول

٤ — الرحلة الثالثة

العود أحمد

٥ — ملاحق

فهرس الصور

الصورة	الصفحة
الرئيس جمال بملابس الإحرام والأمير فيصل . . .	٨٩
الملك سعود والسيد غلام محمد فى موسم الحج . . .	٩١
الملك سعود والسيد أنور السادات	٩٣
مسجد الخيف فى منى	١٠٣
الملك سعود فى العرضة النجدية	١٠٧
الأمير عبد الله الفيصل فى العرضة	١٠٨
الأمير محمد بن سعود يقود أحد ألوية الجهاد	١٠٩
الطبول والأعلام فى العرضة	١٠٩
وانفتح باب الكعبة	١٢٦
غار ثور	١٣٦
غار حراء	١٤١
الحجر الأسود	١٥١
الصلاة فى المسجد الحرام	١٥٤
القبة الخضراء ومنارة الحرم النبوى	١٦٣
باب السلام فى الحرم النبوى	١٦٥
المقام النبوى الشريف	١٦٧
مسجد قباء	١٩٠
محطة سكة حديد الحجاز بالمدينة المنورة	١٩١
ميناء جدة	١٩٥
الأستاذ أحمد قاسم جودة	٢٠٩

الصورة | الصفحة

الصورة	الصفحة

الصورة	الصفحة

(استدراك)

ذكر اسم الملك سعود في السطر الثاني من صفحة ٣٤١
والصواب « الملك عبد العزيز »

فهرس الأعلام

١ – أعلام جغرافية وتاريخية

(ب)

٢ ـــ أعلام الأشخاص والقبائل والأمم

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس المراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — زاد المعاد فى هدى خير العباد : لابن القيم

٣ — سيرة النبى : لابن هشام

٤ — تاريخ الكعبة المعظمة : حسين عبد الله باسلامه

٥ — تاريخ عمارة المسجد الحرام : « « «

٦ — تاريخ مكة : أحمد السباعى

٧ — وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : نور الدين على بن أحمد السمهودى

٨ — عمدة الأخبار فى مدينة المختار : أحمد بن عبد الحميد العباسى

٩ — الرحلة الحجازية : محمد لبيب البتانونى

١٠ — مرآة الحرمين : اللواء ابراهيم رفعت

١١ — رحلة الحجاز : إبراهيم عبد القادر المازنى

١٢ — فى منزل الوحى : الدكتور محمد حسين هيكل

١٣ — جزيرة العرب فى القرن العشرين : حافظ وهبة

١٤ — حاضر العالم الإسلامى : لوثروب ستودارد - ترجمة عجاج نويهض،
تعليق شكيب أرسلان

١٥ — المملكة العربية السعودية : كارل توتشل - ترجمة شكيب الأموى

١٦ — المملكة العربية السعودية : وزارة التجارة السعودية

١٧ — مشاهداتي في جزيرة العرب : أحمد حسين
١٨ — رحلات : الدكتور عبد الوهاب عزام
١٩ — صور من الحجاز : محمد كامل حته
٢٠ — بناة العلم الحديث في الحجاز : عبد القدوس الأنصاري
٢١ — ضوء في تاريخ التوحيد : أحمد صبري شويمان
٢٢ — فلسفة الثورة : جمال عبد الناصر
٢٣ — دراسة عن الأمة العربية وامكانياتها الاقتصادية : يوسف فهمي الجزايرلي
٢٤ — تقارير شركة الزيت العربية الأمريكية
٢٥ — تقارير حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية
٢٦ — مجموعة صحف ومجلات : البلاد السعودية ، أم القرى ، المدينة المنورة ، الحج ، المنهل ، الرياض ، صرخة العرب ، الإذاعة السعودية ، قافلة الزيت .

للمؤلف

- محمد رسول الله .
- صور من الأدب الدينى .
- صحائف مطوية من تاريخ النوبة .
- ذكرى المولد النبوى .
- تقويم التعليم الإلزامى .
- التعليم الإلزامى فى البرلمان .
- الرسالة المحمدية .
- صور من الحجاز .
- تقديم وإعداد . قصة عيد الأم .
- محمد سعيد العريان : الحلقة الأولى من معجم الأدباء المعاصرين .
- شهداء الصبحة : الحلقة الأولى من سلسلة (مع الشهداء) .
- المعلمون فى المعركة .

ويصدر قريباً ..

- أسوان : فى الماضى والحاضر والمستقبل .
- الجواهرى : حلقة من سلسلة (شعراء الحرية) .
- فى بلاد النوبة : دراسات تاريخية واجتماعية لهذه المنطقة

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتاب المصري

